سيرة روائيّة

أحلام مستغانمي

أصبحتُ أنتَ

مكتبة

أصبحت أنت

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

صدرت عام 2023 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2023
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

مكتبة
t.me/soramnqraa

تصميم الغلاف: **داليا ضاهر**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-060-120-8
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-060-119-2

سيرة روائيّة

أحلام مستغانمي

أصبحتُ أنتَ

مكتبة
t.me/soramnqraa

نوفل

أمّي،
أهديك هذا الكتاب،
مطمئنّةً أنّك لن تقرئيه، ولن تحاسبيني عمّا جاء فيه،
اعتبريه هديّةً متأخّرةً من أبي،
فلا تواصلي معاتبته (هناك).
برغم كلّ شيء، لقد أحبّك...

ما جدوى ما أكتبُ ما دام ليس في المقابر مكتباتٌ ليقرأني أبي.

الجزء الأوّل

الفصل الأوَّل

مكتبة
t.me/soramnqraa

«تلك القصَّة التي كّلما شرعتَ في كتابتها، كتبتَ غيرها،
تلك التي تحتبسها بداخلك،
ستدرك يومًا ما، أنّها هي التي تكتبك».

ربَّما أصبحت روائيةً يوم أيقنت أنّنا لن نكون بعد الآن معًا، وأنَّ أشياء كثيرةً حدثت لن تدري بها أبدًا، ولن أرويها لك كما اعتدت أن أفعل في الماضي.

أكنت معك أتمرَّن على دور شهرزاد، «جدّة الروائيات»، وأنا جالسةٌ مساءً على طرف سريرك، أحكي لك تفاصيل يومي، بدهشة الانبهار الأوَّل بالعالم، متفنِّنةً في سرد حكاياتي الصَّغيرة واكتشافاتٍ كانت تبدو لي كبيرةً، فتصحِّح بعض أوهامي في الحياة، مستشهدًا ببيتٍ لفيكتور هوغو أو بقولٍ لفولتير؟

كنت تخفي عني همومك السِّياسيَّة، فقد كنت أصغر من أن أدرك خباياها.

وما كنت أخفي عنك شيئًا (تقريبًا) سوى كتاباتي. في جميع الأحوال ما كنتَ قادرًا على قراءتها أصلًا، لا أحد في البيت كان يقرؤني،

أنت لعدم إتقانك اللغة العربية، وأمِّي لكونها محدودة التعليم، وكان في ذلك مبعث سعادتي وسرُّ جرأتي الأدبية.

كنت في تحدِّي البدايات، أرقص حول نار الشِّعر، صبيَّةً تلهو بإضرام الحرائق في الكلمات، معتقدةً أنَّ الآباء كالآلهة، خالدون، وأنّهم يأتون دومًا في النهاية لنجدتنا، فلطالما تركتَ في متناولي الكبريت، واثقًا أنّك حصَّنتني ضد اللَّهب... إلى أن مضيت ذات يومٍ إلى الأبد، من دون أن تترك لي وصيَّةً، سوى جينات جنونك، وفيضًا من الكتب.

الفقدان الأكبر لا منطق له، لذا لا يمكن تصديقه.

ثلاثون سنةً ولَّت ولم أكتب عنك بعد. كما في الحبّ، ثمّة من نكتب إليهم، ومن نكتب عنهم لتأبينهم. كنتُ في كلّ كتاب أواصل الكتابة إليك لتكذيب حقيقة غيابك.

احتفظت لك بدمعة متأخّرة لكتابٍ كهذا.

«لا شيء يدوم ولا حتّى الموت» كتب بروست في تأبين أمّه. أتكون الكتابة أطول عمرًا من الموت؟

أخفقت دومًا في رثاء من أحببت. أَعجَبُ للّذين يُسارعون في الرثاء. الصدمة الكبرى تأخذ صوتنا، لا تترك لنا من كلمات. الحزن الكبير ذهولٌ لا دموع له. نحن نبكي دائمًا فيما بعد، عندما يتوقّف الغرباء عن البكاء. ولكنّنا اليوم أصبحنا ننتحب على الإنترنت، كي نُشهد الآخرين على حزننا، فيواسوننا بالدَّمع الافتراضيِّ و«اللايكات». حتى الموت، أصبح على أيامنا فرصةً لجمع المزيد من المتابعين.

الحِداد الإشهاريُّ خدشٌ لحرمة الموتى، وتصغيرٌ لخطبٍ جلل، وأنا أردتك حتّى في موتك لي وحدي. فالحزن العظيم لا يُتقاسَم.

لا أحبّ أن يعزّيني أحد في من أحبّ. يسمّون العزاء «واجب». كيف أجد في واجبهم عزائي؟ الذين توقّعوا انهياري أمام جثمانك لم يفوزوا بدمعةٍ منّي.

كنت أنيقةً في فاجعتي، جميلةً كما لو أنّني وصلت من بيروت لتوّي لألقاك، لا لألقى جثمانك. أغضب ذلك أمّي.

لم تدرك أن لا حساب لي أقدّمه لسواك. كنتُ كما تمنّيتني دائمًا أن أكون، لو أنّك فتحت عينيك لتراني بين الجموع.

في الواقع، بكيت في مطار جنيف بين طائرتين، إذ لم تكن هناك رحلةٌ مباشرةٌ من بيروت إلى الجزائر.

الحياة تذاكر سفر. حين أصبح الوقت يُقاس بالدّقائق التي تفصلني عن لحظة مغادرتك البيت للمرّة الأخيرة، اكتشفت أنّ لا أقسى من غربة اللغة سوى غربة المسافات، فقد كنتُ أقلّ اغترابًا أثناء إقامتي بباريس، حيث خمس رحلاتٍ يوميّةٍ يمكن أن توصلني إليك.

أعدت النظر في تعريف الغربة: هي ألّا يفارقك الخوف من رنّة الهاتف أينما كنتَ، لأنّها يومًا ما ستحمل خبر رحيل أقرب النَّاس إليك وأغلاهم، ومهما فعلت ستصل يومذاك متأخرًا، لأنّ الموت أسرع منك.

حتّى في صمته، يبقيك الهاتف رهينةً لديه، يمارس عليك إرهاب احتمالاته.

«الإبرة نفسها تخيط ثوب العرس والكفن». كذلك الحبّ والموت، يستعملان الهاتف نفسه، وكلاهما يملك ترف اختيار توقيت مباغتتنا. كلاهما ابن المصادفة ويد القدر.

ريختر نفسه، ما كان ليقدر على قياس مدى فرحته أو دماره في أثناء مكالمةٍ هاتفية. الفرحة الكبرى كما الحزن المدمّر، موجودان في داخلنا، تحت مسامِّ الروح، في انتظار هزّةٍ ما لا يقيسها سلّمه.

يقول الحبّ بلهفة المهاتفة الأولى:

– لو تدرين منذ متى أنتظرك!

ويقول الموت بصعقة المباغتة:

– لقد رحل أبوك هذا الصباح. تعالي بسرعة... لتلحقي به قبل أن يغادر البيت. جثمانه ينتظرك.

ليس للهاتف أذنان فحسب، بل عينان وقلبٌ أيضًا، قلبٌ قد يخفق فرحًا، وقد يدقُّ كما لو أنّه ينتحب. الهاتف طرفٌ ثالثٌ في كلّ قصة حبّ وكلّ خبر موت.

وعلينا أن نعيش بين نداءين، أحدهما على لهفة... والآخر على عجل.

كلّ ما يحدث في الحياة هو بين تينك القوسين.

***

«بعدكَ أصبحتُ أنتَ».

كنت أقول «عندما نفقد حبيبًا نكتب قصيدة، وعندما نفقد وطنًا نكتب رواية». ولكن يوم فقدتك خانني الحبر. لم أعرف كيف أرثيك بقصيدةٍ كما يفعل الشُّعراء. لعلّك كنت وطني إذن، فقد كبرت الخسارات بعدك، إلى حدٍّ أنَّ الروايات راحت تتناسل. صرتُ أكتب وكأنّني أواصل حديثي المسائيَّ إليك.

الرثاء حزنٌ قصير الأجل، أمّا الوفاء فهو في مواصلة الحديث مع الغائبين وكأنّهم لم يرحلوا، إلى أن نجد أنفسنا وقد صرنا نتكلم مثلهم، نتبنّى أفكارهم، عاداتهم، أحكامهم، نروي نِكاتهم، نردّد أمثالهم الشعبية، نقع في حبِّ مدنٍ أحبّوها، وإن لم نعرفها، نحفظ أشعارًا ما كانت لتعنينا، فقط لأنّهم ردّدوها، ثم ينتهي بنا الأمر بأن نشبههم.

عندئذٍ نكون قد تقبَّلنا حقيقة غيابهم الأبـديّ. لشدَّة حاجتنا إلى استحضارهم، نتقمَّصهم. تلك حيلةٌ أوجدتها الذاكرة لهزيمة حنيننا إلى من لا أمل في عودتهم.

بعدكَ أصبحتُ أنـتَ. أعـدتُ اقتراف كلِّ حماقاتك، خسرتُ بسخاء، وبسخاءٍ تهكَّمت على خساراتي. أكرمت أعدائي لأنَّ لا قصاص أكبر من الكرم. أحببت كما لو كنتُ أنت، كذبتُ لأختلق لمواعيدي العاطفية ذرائـع وهمية كما فعلتَ. بكيتُ من أحببتُ، لأنّي رأيت دموعك على من فـارقتَ. كتبتُ قصائد بشغفك، بولعك وحزنك. خبّأتُ رسائل من أحبوني، بخوفك على رسائل من أحببتَ. أحببتُ الحياة كما لو كانت رجل حياتي، لأنّك أحببتها كما لو كانت أنثاك. ما عرضت قلمي في سوق الذِّمم، لأنّك قلت لي إنَّ من يضع لنفسه ثمنًا يصبح بلا ثمن. رفضت أن أنحني لأحد، لأنّك غادرت مستقيم الظَّهر. أضعت فرصًا ذهبيّة، لأنّك أورثتني حساسيتك ضدّ التملق والانتهازية.

لعنتُ لصوص الأوطان، بغضبك أنت. طاردتهم كتابًا بعد آخر، كما كنتَ لتفعل. صادقت كلَّ سائقي الأجرة وعاملات البيوت وكلَّ البؤساء الذين صادفت، لأنَّ إحدى مهامِّك كانت الدفاع عن حقوق العمال. وضعت شرطًا لقلبي ألّا يحبَّ إلّا رجال المواقف، لأنَّ الحبَّ عندك كان قضية. لم أسأل يومًا أحدًا عن ديانته، لأنّك لم تسألني يومًا إلّا عن أخلاق من عرفت، فقد كنت تؤمن بأنَّ وحدها الإنسانية ديانة الشرفاء. حاربت الطُّغاة، لأنّك يوم رحلت تركتَ مع أوراقك الثبوتية بطاقة انتسابك إلى أوَّل رابطةٍ جزائريةٍ لحقوق الإنسان.

حين كبرتُ، أردتُ أن أنتسب إليها، وأن أحمل رقم بطاقتك نفسه. أخبرني صديقك عبد الحميد مهري، أحد آباء الثورة ورجالاتها، بسخريّته المعهودة، أنّه لا داعي إلى ذلك لأنَّ الحقوق عندنا مصانة، حتى إنّه أصبح لدينا رابطتان لحقوق الإنسان.

لعلَّك فهمت ما كان يعنيه. أمَّا أنا، فتأخّرت في الفهم!

التقيته بعد ذلك في بيروت. كان على موعدٍ مع الدكتور سليم الحص رئيس وزراء لبنان الأسبق، توأمه شكلًا ونزاهة. قال إنّهما يُعدّان لمؤتمر «المنظمة العربية لمكافحة الفساد». كان عليَّ أن أقهقه، ولكنّني صحت بحماس:

«أودّ الانتساب إلى هذه المنظمة... كم أتمنى فضح هؤلاء اللصوص!».

ردَّ مهري ناصحًا، بالسخرية نفسها:

«دعكِ من الفساد، حاربي الإرهاب، هذا أفضل لك، فهو أقلُّ خطرًا».

الآن، وقد فهمتُ أكثر ممَّا تمنّيت يومًا أن أفهم، أسألُك، لماذا فعلت بي كلَّ هذا؟ أكان العالم على أيامك مختلفًا، فتركت لي القِيَم إرثًا، معتقِدًا أنَّ الحياة لا تستقيم من دونها؟

ها هي الحياة، على اعوجاجها وقلَّة مروءتها، تبدو اليوم مستقيمةً. تأقلم النَّاس مع كلِّ ما هو فاقدٌ للحياء. الجميع يفعل ويقول ما يشاء، وعليك أن تقول رأيك في ما تعتقد أو ترى همسًا، ذلك لأنَّ الصوت الخافت للحقِّ أصبح أعلى درجات البطولة.

كم كان يوفتوشينكو على حقٍّ حين قال: «سيذكر أحفادنا بشعور من الخجل المرّ، ذلك الزمن العجيب الذي كان الشرف البسيط فيه يسمّى شجاعة».

حاولت لأجلك أن أرفع النبرة، ولكنَّ شجاعتي خفتت مع الوقت، لفرط ما اشتعلتُ بحماقة شمعة احترقتْ وهي تضيء كتابًا يُمسكه أعمى.

يوجعني يا أبي أنَّك لن ترى ما ذاب مني، وسال على ورق.

تمنّيت لو استطاع أحدهم أن يعلّمني القسوة وانعدام الضمير، كي أتأقلم مع هذا الزمن لما تبقّى من العمر.

***

«قارئٌ ينقصك وإذا بالدنيا لا أحد فيها».

صديقك لامارتين، القائل: «شخصٌ واحدٌ ينقصك وإذا بالدنيا مقفرة لا أحد فيها»، أكان يدري أنَّ في الأدب، كما في الحبِّ، قارئٌ واحدٌ ينقصك وإذا لا أحد من ملايين قرَّائك يعوّضه؟

كلُّ كتاباتي كانت تنقصها دهشتك. كلُّ نجاحاتي كان ينقصها زهوك.

أيُّ شقاءٍ أن تكتب للقارئ الوحيد الذي لن يقرأك!

في حياتك كنتُ أحرص على أن أخفي عنك كتاباتي، واليوم غدت مأساتي أنْ لا أمل لي في أن تقرأني.

ما جدوى كلّ كتبي إذن؟ فكلُّ ما كتبته بعدك كان لك. كلُّ ثورتي وتمرُّدي، كلُّ تلك اللغة التي تدفَّقت ينابيعها في كتبي، كانت لإبهارك أنت، كلُّ دموعي عن خالد في «ذاكرة الجسد»، كلُّ حزني على قسنطينة، كلُّ أساي وخيباتي في مأتم أحلامك، كان لأخبرك بما حلَّ من بعدك. كلُّ كبرياء أبطالي، ورفضهم الانحناء، كلُّ المرَّات التي قالوا فيها «لا»، كانت إكرامًا لك. كلُّ الرّجال الذين أقاموا في كتبي كان فيهم شيءٌ منك، من عنفوان خسارتك، من ذكاء سخريتك، ومن تلك المروءة التي لا تصمد أمام سحرها النساء.

كان الحبُّ بالنِّسبة إليَّ مشروعًا أدبيًّا. أهدرت عمري بحثًا عن آباء لكتبي، أُنجب منهم روايةً تشبهك، لكنْ كلُّ ما كتبته عن سواك كان حملًا كاذبًا.

أتعبتني جيناتك. كلُّ أبطالي يتحدّثون مثلك، كلُّ رفاقك أصبحوا من بعدك رفاقي، فقسوت على نفسي وحاسبتها كما لو كنتُ من جيلهم.

صادقتُ بن بلَّة لأنّه كان يذكِّرني بك. كنت أرى فرحته بي، وهو يقرؤني بالعربية، كأنّها فرحتك، أستمع إليه يروي ذكرياته كأنَّني أسمعها بصوتك. في أوّل موعد لي معه في جنيف، أحضر لي من الجزائر هديّة، شريطين لأغانٍ قسنطينيّة من تلك التي تحبّ، رافقتني «يا ظالمة» بصوت الفرقاني وكمنجته طويلًا، وأنا أكتب. ناب عنك عبد الحميد مهري في إسناد غصني، كي لا ينحني لأحد، أثناء عمله سفيرًا للجزائر في باريس. أقنعني بأن أغدو روائية، أمدّني بالشّغف الذي كنت أحتاجه، وهو يواصل بعدك الحديث عن قسنطينة، روى لي عنك ما مضيتَ دون أن ترويه لي. قال: «عندما كان يمرُّ سي الشريف بمقهى النجمة في قسنطينة، كان روّاد المقهى يهتفون: يحيا مستغانمي»، فعشتُ واقفةً، رافضةً الجلوس على المبادئ، وفاءً لأناسٍ لا أعرفهم هتفوا يومًا لك.

وعندما رحل إبراهيم حشّاني، وعلي يحيى عبد النور، ورفاقك جميعًا، وانتهى زمن الرجال النسور، غدوتُ طائرًا غريبًا، أكبر من أن يجد له بين العصافير رفيقًا.

***

«الحرية ليست بذات قيمةٍ إذا لم تشمل حرية ارتكاب الأخطاء».

غاندي

أكتب إليك بالعربيّة، غير عابئةٍ بخطأٍ ما قد تعثر عليه في هذا الكتاب، ولا خائفة كخوفي في صغري من أخطاءٍ إملائيةٍ كانت تزدحم بها رسائلي إليك، تلك التي كنتَ تنتظرها بلهفة زمنٍ لم يكن يعرف الهاتف المحمول، خلال غيبتك للعلاج في مدينة إيفيان بفرنسا، والتي كنتَ تصحِّحها وتعيد إرسالها إليَّ ليستقيم قلمي بالفرنسية.

بعدك كبرتُ، وكتبتُ لسواك رسائل كنت سأسعد لو أنَّ أحدهم صحَّحها لي، ففي كلِّ ما كتبتُ لغيرك تركتُ خطأً لأختبر به حبيبًا، عسى أن يقرأني بعيون الأب. لكنّ لا أحد فعل. ربّما لأنّ الحبَّ لا صبر له على تدقيق الأخطاء، هو يقرأ بلهفة القلب.

اليُتم هو أن تخطئ ولا يصحِّح لك أحد. لذا، تعلَّمتُ بعدك أن أتدارك أخطائي وأصحِّح لنفسي أخطاءها، وكأنّي في كلِّ ما أفعل أرفع حسابًا لأبوَّتك. حتّى بعد رحيلك، ظللت حريصةً على محو ما قد لا يروقك. كنت أعتقد أنَّ الكاتب تشي به كتاباته، إلى أن اكتشفت أنَّ حقيقة الكاتب تكمن في ما محاه لا في ما كتب.

باكرًا نبَّهني نزار قبّاني إلى ذلك: «لا تحذفي الجملة التي تخافينها، دافعي عنها... فهي أنتِ».

عندها انتبهت كم تتشابهان. تذكّرت أنك لم تقدِّم لي ممحاةً قطُّ، بل أقلامًا فحسب، ولا وضعتَ في لوازمي المدرسية مقصًّا، لأنّك كنت صديق الكلمات، ترفض قصَّ ضفائر القصائد لتصنع منها مشنقةً للشاعرات الصَّغيرات. منذ البدء، تركت لي حقَّ الخطأ، كي يتسنَّى لك أن تصحِّح لي، كما لو كنتَ تضع ملاحظاتٍ لطلَّابك على هامش واجباتهم المدرسية.

لذا، منذ أوّل كتابٍ وأنا أهديك ما كتبتُ وما شطبتُ، أهديك كلَّ ما لم أقله، وما تعلَمه، لأنّني أشبهك.

كلُّ ما اقترفتُ من جرائم حبرٍ يمكن أن يُسَجَّل ضدَّك. في كلِّ محضر ضبطٍ عاطفيٍّ، لم أكن أنا، بل أنت، العاشقَ المتَّهم. في كلِّ القضايا الكبرى الخاسرة التي بكيتُها، كنت أبكي بعينيك أنت. في كلِّ مرّةٍ واجهتُ فيها لصوص الوطن، كنت نيابةً عنك أرفع الصوت وأدفع الثمن. في جنوني وتعقُّلي، كنت تمامًا كما أردتني أن أكون: نسخةً عنك.

كان عاموس عاوز يقول: «عندما أكبر أريد أن أصبح كِتابًا، ذلك أقلُّ خطورةً من أن أكون إنسانًا، ففي أسوأ الأحوال قد تنجو نسخةٌ مني».

ها قد نجت نسخةٌ منك. لقد أصبحتَ كتابًا. تحقَّقتْ نصف أمنياتك. أعرف أنّك كنت تودُّ لو صرتَ كاتبًا، ولكن صدِّقني هذا أفضل، فهكذا لن يغتالك أحد. منذ الأزل، كان قهر الطغاة في أنَّ بإمكانهم اغتيال الكُتَّاب لا الكتب.

***

«لن تنضج حتى يُهدَم أمام عينيك كلُّ ما كنت تؤمن به».

أحمد خالد توفيق

ليست صغيرتك تلك التي تكتب إليك. في غيابك نضجتُ، أعني هرمت.

لست وحدي من هَرِم. كلُّنا «هرمنا» مرّتين، مرّةً «في انتظار تلك اللحظة»، ومرّةً عندما اكتشفنا عبثيَّة ما انتظرناه.

لن تفهم شيئًا ممّا أقول. إنّها جملةٌ دخلت التاريخ حين صاح تونسيّ فرحًا وقد بلغه خبر هروب بن علي: «هرمنا في انتظار هذه اللحظة»، فاشتعل العالم العربيُّ وهمًا ببلوغ لحظة الانعتاق. كان الرجل قد شاب في عزِّ عنفوانه، وتساقطت بالرغم من شبابه أسنان انتظاره، بينما كان الطاغية الهارب، بشعره المصبوغ بالأسود، يفوق شعبه شبابًا عامًا بعد عام.

أعرف أنَّك تتحرَّق إلى معرفة بقيّة القصة. حين نلتقي، سيكون لنا حديثٌ طويلٌ عمَّا حدث بعد ذلك من أهوال. الجميع سيكون لديه ما يرويه (هناك). المآسي جعلت الجميع روائيين، حتّى الأطفال ذهبوا يروون للّه ما رأوه. الأعمال الأدبية الحقيقية ستُكتب في العالم الآخر. أمَّا هنا، فما عاد بإمكاننا أن نكتب سوى روايات الحبّ.

وددت لو أكتب لك كتابًا بنهايةٍ سعيدة، ولكنَّه سيكون ضربًا من الكذب. نحن نكذب على الأحياء لسببٍ ما، ربّما لئلا تؤذيهم الحقيقة، ولكن ما جدوى أن نكذب على الأموات وقد أصبحوا في مكانٍ توقَّفت فيه آلامهم؟ ثمَّ، إنَّ القارئ العربيَّ لم يعتد رؤية الكاتب سعيدًا. سعادة الكاتب تربكه، تشوِّش قناعاته، تهزُّ اعتقاده بأنَّ الحزن قدرٌ جماعيٌّ. يريد أبطالًا أقدارهم تضاهي قدره بؤسًا. في الكتاب القادم، ربّما، سأحاول أن أكون أقلَّ أسًى، أعني بلا ذاكرة. لا بدَّ للأدب أن يُشفى من الذِّكريات ليكون سعيدًا.

ما الحلُّ؟ أتذكَّر أشياء لا يمكن كتابتها، وأنسى أشياء تمنَّيت لو كتبتها، وفي كلِّ كتابٍ، أحتفظ بأشياء لأسرِّبها في كتابٍ آخر أكون فيه أكثر شجاعة.

ولكن، إلى أيِّ حدٍّ تريدني شُجاعةً عند الكتابة إليك، في زمنٍ كهذا؟

هذا الكتاب لك. لا بطولة فيه لأحدٍ سوى الجنون. وحده ظلَّ بخير. ثمَّ من أين لي أن آتيك بالأبطال؟ لقد سُرقت البطولة أيضًا وانقلبت الأدوار، وأصبح كلٌّ يحمل صفةً ليست له.

تمنّيت لو قصصت عليك حكاياتٍ طِوالًا بتفاصيل كثيرة، عن نهايات رفاقك الذين تأخروا في الرحيل، وغادروا مدمَّرين من هول ما رأوا.

مهري، عاش بعدك ثريًّا بماضيه زاهدًا في حاضره. لكبر أسراره حماها كعادته بالصّمت. رحل مكابرًا بذاكرة مجروحة، حاملًا قهره إلى قبره، تاركًا خلفه قولًا غدا مأثورًا: «لكلّ زمنٍ رجاله، وللرّداءةِ ناسُها».

أمّا الأخضر بورقعة، فكتب كتابًا بعنوان «شاهدٌ على اغتيال الثورة»، كنت سأقرأ لك منه قصصًا لإدهاشك، كعادتي في قراءة أشياء تسلّيك، وأنا جالسةٌ على طرف سريرك، ولكنّ ما رواه لا ينبغي أن يُحكى للراحلين، فلا وجع أكبر من دموع الموتى.

هل يبكي الموتى يا أبي؟ أخبرني حتّى لا أكتب ما يُبكيك. وهل يقرأ الموتى؟ أجبني حتّى أواصل الكتابة إليك.

حيث أنت، هل تواصل قراءتي سرًّا؟ هل عثرت هناك على من يقرأ لك ما أكتب، كما في الماضي، حين كنت تأتيني بجريدة «الشَّعب» التي كنت أنشر فيها مقالي الأسبوعي، من دون أن تخبرني أنّك في طريقك توقّفت في «حديقة ساعة الأزهار» وطلبت من أحد الشُّبّان الجالسين على أحد مقاعدها أن يقرأ لك ما كتبت، قبل أن تثني الجريدة وتأتيني بها دون أن تقول شيئًا.

أيّ أبٍ عجيبٍ كنت!

ألكي يولد قلمي حرًّا دون ذعرٍ من رقيب، زوَّدتني بالكبريت والحطب، ثمَّ أوهمتني أنَّ لا علم لك بما أكتب؟

ألهذه المحرقة أعدَدتني؟

كنتُ أريد أن أكون سندريلّا فغدوتُ «جان دارك» الأدب.

كما كان قدماء المصريين يلقون بأجمل العذارى إلى النيل حتّى لا يغضب، تركتني لهم قربانًا، أنا صغيرتك، مع أنّك كنت تعلم، علم اليقين أنّنا أمَّةٌ ترجم بحجر الخطيئة كلَّ امرأةٍ تكتب!

***

«لا يولد الكاتب مرّةً واحدة، بل بعدد مرّات وقوعه في الحبّ،
ولا تنجبه أمٌّ واحدة، بل له من الأمّهات بعدد ما سهر عليه من المدن.
لذا، فلكلِّ كاتبٍ مسقطٌ لرأسه وآخر لقلبه وثالثٌ لقلمه».

جئتُ إلى العالم، في عام اختراع قلم الحبر الجافِّ BIC، القلم الذي أحدث ثورةً في الكتابة وبيع منه إلى اليوم 100 مليار قلم.

إشارةٌ سماويّةٌ تحكَّمت في قدري.

قبلها كان العالم يستعمل أقلامًا تُملأ بالحبر السائل الذي ينفد سريعًا، ويسيل على الأوراق، فيحتاج إلى ورقٍ مجفِّف. لذا كان شعار القلم الجافِّ: «يكتب كأوَّل مرَّة... كلَّ مرَّة».

لكأنّني من وضع الإعلان، أنا التي مذ بدأت الكتابة والحبّ يكتبني كلّ مرَّةٍ كأوَّل مرَّة، وما من كتابٍ كتبته إلّا وكان ذلك بخوف الكتاب الأوَّل، وذعر الكتاب الأخير.

كم غيَّر الحبُّ شهادة ميلادي!

أنجبتني أمّي مرَّةً، وأنجبني الحبُّ مرارًا. محكومةٌ بالحلم المؤبَّد مذ أسميتَني أحلام. لماذا اخترتَ لي اسمًا جمعًا إن كنت تعلم أنَّ قدري أن أتشظّى؟

ولكن هل أنت من اخترته أم الاسم يختار حامله؟ في أثناء تنقّلك بين المعتقلات والمنافي، وبينما كان جيلك في العالم العربيِّ

يسمِّي بناته نضال وانتصار وصامدة وحتى اعتقال، من أين جئتَ باسمٍ خارجٍ عن قاموس ذلك الزَّمان؟

ألكي أحرس أحلامك؟ أم لأكون لك الحلم؟

ما استطعتُ يومًا تغيير قدري. وُلدت ذات نيسانٍ، داخل حزام الزلازل العاطفية. لا أعرف في أيِّ زمنٍ جيولوجيٍّ تكوَّنتْ أنوثتي، ولا أيَّ ريحٍ حملت إليَّ بذور الغضب. كنت دومًا حبلى بقضيةٍ ما، حتّى لكأنّ عمري يُقاس بخيبات العرب.

أنتمي إلى فصيلة العشَّاق الذين كلَّما أَحَبُّوا، أحرقوا خلفهم قوارب العودة إلى مرافئ العقل.

امرأةٌ من برج الحمل، أندلسيّة الأصول، تنحدر من سلالة ولَّادة بنت المستكفي وابن زيدون، وتُقاسم نزار قبَّاني برجه ومزاجه النَّاريَّ. حيث تمرُّ يشتعل بمرورها فتيل الشِّعر.

***

«هل كنت لتتوقَّع هذا؟».

وُلدتُ على يد أوَّل امرأةٍ عربيةٍ تتصدَّر صورتها ورقةً نقديَّة!

أنت المفتون بالنساء الرائدات، أتُراك أصررتَ على أن أولد على يد الدكتورة توحيدة بن الشِّيخ، لتربط حبلي السِّرِّيَّ بقدَر امرأةٍ كانت كاسحة الألغام، شقَّت في زمانها الطريق لكلِّ نساء المغرب الكبير؟

الصَّبيَّة اليتيمة ساندتها والدتها الأمِّيَّة ضدَّ مشيئة رجال العائلة. حسمت قدرها بالاستناد إلى الإسلام نفسه، في فرضه العلم على المسلمين من رجالٍ ونساء.

قبل قرن، سنة 1920، كانت أوَّل فتاةٍ مسلمةٍ تحصل على شهادة البكالوريا في شمال إفريقيا. الأولى التي كسرت أصفاد

التّقاليد في ثلاثينيّات القرن المنصرم، وسافرت لدراسة الطِّبِّ في باريس وعادت منها طبيبةً.

بإمكاني أخيرًا أن أكتشف ملامحَها. ها هي ذي توحيدة بن الشِّيخ، أراها على ورقة العشرة دنانير التونسية. أتأمَّل الرضيع الذي يجاورها ملفوفًا في قماطه. لعلَّه أنا. كنت أصغر من أن أشكرها، فلا أنا كنت أعرف من تكون، ولا هي كانت تدري ماذا سأغدو.

حفظت اسمها، لفرط ما سمعت أمّي تذكُرها باسمها الصَّغير، حتى خلتها صديقتَها. كانت «توحيدة» إحدى مفاخر أمومتها، فقد وُلدتُ أنا وإخوتي على يدها في المستشفى، بخلاف ما جرت عليه عادة النساء في ذلك الزمان، بوضع مواليدهنَّ على يد قابلةٍ في البيت.

في الواقع، كانت «توحيدة» صديقة النساء، مثلما كانت صديقة الفقراء والمناضلين والزعماء. كانت أمَّ تونس الفتيّة الحاضنة لأجيال الحرية، فكيف لا تكون لك قرابة بها.

بيني وبينها أسرارٌ صغيرة، هي التي عايشت مخاضَ أمِّي، هي التي طمأنتك، وسمعت صرختي الأولى، وقمَّطتني. كبرتُ على يدها، فقد أهدتني حواسِّي الخمس، وسمعتني ألفظ أولى كلماتي، ورأتني أخطو أولى خطواتي، وأرضع حليب أمِّي، وأنا أشتمُّ رائحة الياسمين المخبَّأ في صدرها.

أخلفتُ موعدي معها. كانت لا تزال على قيد الحياة حين زرت تونس، ولم ألتقِها. كنت سأضمُّها طويلًا وأسألها عن أمِّي، هل تعذَّبت يوم أنجبتني؟ وعن «غشاء الجنين»، ذلك الكيس الذي ولدت داخله، ويقال إنّه حالة نادرة، وإنّ القابلات يحتفظن به لأنّه يجلب الحظ، كنت سأحتاجه لأختبأ داخله كلّما صغرت أمام الألم. عن فرحتكَ الغامرة يوم وُلدت... عن أوَّل كلمةٍ قلتَها حين علمت أنّك رُزقت

ببنت... وهل أهديتها كُتبًا، كعادتك كلَّما التقيتَ من يشبهك؟ ولِمَ لم تحاول إقناعك بأنَّ «أحلام» اسمٌ أكبر من قدرة طفلةٍ على حمله.

على مدى طفولتي، تكون قد وزنتْني مرارًا لتتأكَّد من نُمُوِّي الطبيعيِّ، ما درَت بما سيحمله جسدي الصَّغير لاحقًا من أحزان العروبة. الأحزان حمولةٌ عربيّةٌ كبرت معي، ولا هي توقَّعت أنَّ قلبي الصَّغير سيسع ما شاء من قصص الحبِّ، التي ستتدفّق دموعها في الكتب، وأنّه في أكثر الأحيان سيَخفق خارج المنطق. بل، كيف لها أن تعرف أنَّه لا جدوى من تسجيل شهادة ميلادي، لأنَّ الحبَّ كثيرًا ما سيزوِّرها!

الفصل الثاني

«الذكاء مشكلة. والتفكير مرض، وشدّة الإدراك لعنة حقيقيّة.
كلّ وعيٍ هو مرض».

دوستويفسكي

أحنُّ إلى أحذيةٍ أخذتني يومًا إليك، إلى السَّاعة الواحدة التي كان يُسمح لي فيها بزيارتك، إلى حافلةٍ كانت تغصُّ بضجيج الآخرين، ووحدي فيها من يغصُّ بفرحته، حاملةً إليك ما أرسلته أمّي معي من أشياء... وخبرًا سيفاجئك.

كنت أولي قصرَ الحكومة ظهري، وأعبر الحديقة المجاورة بسعادةٍ، فيهرب الحمام من دربي، ويطير ليستقرَّ فوق النُّصب الضخم الذي تركته فرنسا تخليدًا لموتاها. من عُلْوِه، كان يتقصَّى أخبارنا ويواصل التجسّس على تنقلاتنا. أظنُّه يعرف عنّي أكثر ممّا عرفتَ أنت.

كانت تلك الحديقة ممرِّي الحتميَّ بحكم انحدارها نحو قلب المدينة. حديقةٌ بديعة التّصميم، يطوِّقها النَّخيل نزولًا، وتتوسَّطها ساعةٌ مُزهرةٌ كانت تجمِّل صباحي. اعتدت أن ألقي نظرةً على أزهارها

الزاهية، لأتأكَّد من الوقت، وأنا أعبرها مسرعةً نحو محطّة الحافلات التي تتَّجه إلى حيّ حسين داي، وتأخذني إلى ثانوية عائشة، وأصبحتُ آخذ غيرها لأزورك في أيّام عطلي المدرسية... في مستشفى مايو العسكري.

باكرًا، دخل حيُّ «باب الواد» دائرة حياتي، لفرط ما سلكت الطريق إليه منذ صِباي. كنت أسعد حين أجدني أخيرًا أمام مبنى مستشفى مايو. كنت أراه مهيبًا لوجودك فيه.

كان قد بناه آخر بايات الجزائر العاصمة، واستحوذت عليه فرنسا ووسّعته حسب ضخامة حاجاتها العسكرية. ثمّ بعد الاستقلال، ناب عن مرضاها مرضانا، ولم يبق سوى بعض الأطباء العسكريين الفرنسيين لإدارة أقسامه المختلفة.

كالعادة، عبرت الرَّدهة الشاسعة التي كانت تُفضي إلى قاعة الاستقبال، ومنها إلى مساحةٍ خضراء، ثمَّ إلى مصحَّة الأمراض العقلية.

هناك... حيث كانت غرفتك.

صغيرةً دخلته أوَّل مرَّةٍ برفقة أمّي لزيارتك. أعرف الآن التاريخ لأنّه صادفَ يومَ انقلاب بومدين على بن بلَّة في سنة 1965. من حسن حظّك أنّك دخلت المستشفى قبل ذلك. لم تر قصر الحكومة ولا حيَّنا وهما مطوَّقَين بالدبّابات، ولكنّك علمت أنَّ مكتب الرئيس حُطِّم بأكمله، كـ«إنجازٍ ثوريٍّ»، وأنَّ الرئيس بن بلّة اعتُقل بتهمة الخيانة العظمى!

في ليل الخيانة المحبوكة، ذهب بن بلَّة لحضور مباراةٍ بين الجزائر والبرازيل، ما كان له وهو لاعب الكرة المحترف أن يفوِّتها. كيف له أن يتوقَّع أنَّ المباراة الحقيقية سوف تدور في مكانٍ آخر!

هو الرياضيُّ وبطل السِّباحة في مسافة 400 متر، لم يعتد السِّباحة مع الحيتان، فابتلعته أمـواج السُّلطة، ولـم يقذفه البحر خارج السِّجن إلّا بعد 15 سنة، ذلك أنَّ المارد البشوش الطَّلَّة، بقي في أعماقه على سذاجته الأولى، طفلًا يتيمًا، لا يعرف التمييز بين الأشرار والأخيار.

كان بن بلَّة يدين بشعبيته وشهرته العالمية لحادثة اختطاف السلطات العسكرية الفرنسية في العام 1956 لطائرة تمّ تغيير مسارها، وكانت تقلّه مع قادة الثورة من المغرب إلى تونس، لحضور مؤتمرٍ لتوحيد نضال المغرب الكبير ضد الاستعمار الفرنسي...

كانوا خمسة زعماء في هيئة أنيقة، لا تشبه الصورة التي أرادت السلطات الفرنسية أن تعطيها عنهم بصفتهم مجرمي حرب. هزّ الخبر العالم، فقد كانت تلك المرّة الأولى التي تُقدم فيها دولة على عمل كانت تسمّيه «إرهابيًّا» حسب تعريفها لخاطفي الطائرات.

بعد الاستـقـلال انتقل بـن بلّـة مـن سجـون فرنسا إلـى سـدّة الرئاسة، ومنها مجدّدًا إلى السّجن. تمّ اختطاف قدره وأقدار رفاقه الأربعة مرّة أخرى، لكن من قبل الجزائر الفتيّة، فتوزّعوا بين السجون والمنافي والمقابر.

كان مسكونًا بحماس المنتصرين، وربّما أيضًا بتهوّرهم. مأخذك عليه كان ارتجاله قراراتٍ مصيريةً في لحظةٍ عاطفيةٍ تصعب مناقشته فيها، ثمَّ إلغاؤها بين ليلةٍ وضحاها. لم يكن يملك من السّلطة دهاءها بل فقط شهيتها.

لكي تجد له أعذارًا كنت تقول: «لقد استلمنا الحكم ولم نكن نعرف كيف نحكم، نحن خرّيجي الجبال، لم نجلس منذ قرن على كرسي»، ثمَّ تستدرك: «ولكن، هل نتعلّم الحكم بالإعدام على من

يخالفنا الرأي!». في الواقع، كانت التّصفيات قد بدأت بين الثوّار من قبل الاستقلال.

طلبتَ يومذاك من أمّي إتلاف الوثائق التي كنت تحتفظ بها في ملفٍّ مميَّزٍ على أعلى رفٍّ في خزانتك. شرحتَ لها مكانه بالتَّحديد. لعلّك ندمتَ على عدم إحراقها مع ما أحرَقت، يومَ أغلقتَ عليك بابَ غرفة الطعام، وأشعلتَ المدفأة الرخاميَّة الجداريَّة في عزِّ حزيران، وألقيتَ إليها بأوراقٍ كثيرةٍ، أنت الذي ما عهدتك تفرِّط بورقة.

صغيرة، اكتشفتُ مذهولةً جبروت النَّار، قدرتها على تحويل الورق الأبيض إلى سواد، والكلمات إلى رماد.

لا شيء يُستعاد من فوَّهة اللَّهب. يكفي عود ثقابٍ صغيرٌ، ولا يعود شيءٌ كما كان. رائحة الحريق الأولى تلك، سأتذكَّرها حين أكبر، كلَّما احترقت على مقربةٍ مني فراشةٌ ليليةٌ، لحظة ارتطامها بالضوء، أثناء سهري للكتابة والنافذة مفتوحة. انتهى بي الأمر إلى الاعتقاد بأنَّ الفراشات تحترق لتحمي أسرارها، فما أجنحتها الملوَّنة سوى رسائل مشفَّرة، ومهما حاولتُ لن أستطيع حمايتها من قدرها، ومنعها من الموت. فهي تنتظر خلف الزجاج أن تُزَفَّ إلى النَّار.

عندما غادرتَ المستشفى بعد ثلاثة أشهر، صُعقتَ حين اكتشفت أنَّ أمّي لم تُبق على شيءٍ ممّا كنتَ تحتفظ به لسنواتٍ، وكان يصنع سعادتك السِّرِّيَّة، من رسائل عاطفيَّة، وصورٍ تذكاريةٍ لزياراتك الرسمية، إحداها والزعيم تيتو يصافحك، وأخرى مع نينا خروتشيف، زوجة رئيس الاتحاد السُّوفييتي آنذاك، مترئِّسًا وفدًا جزائريًّا. كانت تلك فرصة أمّي لفتح خزانتك التي ما كانت لتجرؤ على الاقتراب منها، فأقدمَت على تمزيق كلِّ رسائل الحبِّ والصور التي

كنت تحتفظ بها، بذريعة جهلها القراءة واعتقادها أنَّ كلَّ ما يحمل أختامًا يشكِّل خطرًا عليك.

نوبة غضبك العارمة تسبَّبت في انتكاستك، تبعها حزنٌ صامت لازمك. فقد كنت شديد التنظيم، حريصًا على ما يخصُّك من وثائق وأوراق، تحتفظ بها في ملفّاتٍ خاصَّةٍ لا مجال للخلط بينها.

كانت ذكرياتك أجمل من واقعك، فغدت صورك أغلى من حياتك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

«نحن لا نحزن على شيءٍ تمنَّيناه ولم يحدث. الألم العميق يأتي ممَّا حدث مرَّةً واحدةً، وما كنّا ندري أنّه لن يتكرَّر».

دخلتَ في حِدادٍ على أشياء وحدك تعرفها. لا شيء ممَّا خبَّأته من ذكرياتك الجميلة نجا، لا شيء من الكلمات التي كنت تحفظ بعضها ستراه مجدَّدًا، وتلك الرسائل التي عبرت البحار محمَّلةً بأشواق العشَّاق وبوحهم، انطفأ عبقها... بعد الآن، لن تلمس حتّى أوراقها.

كان زمنًا كلُّ شيءٍ فيه نسخةٌ فريدة. زمن الأشياء التي لا تعوَّض، والاعترافات التي لا تُسجَّل، واللحظات المسروقة التي لا تتكرَّر. صورٌ بالأبيض والأسود لا تقيم في ذاكرة هاتف؛ رسالةٌ مكتوبةٌ باليد لا يحتفظ الكمبيوتر بنسخةٍ منها؛ بوحٌ لا تملك الذَّاكرة إلّا أن تردِّده دون توقُّفٍ كي توثِّق جماله. لذا كان الثُّوَّار والعشَّاق ينفقون أعمارهم في البحث عن مخبأٍ لأسرارهم، وتنفق المخابرات والزَّوجات مثلها في البحث عن تلك المخابئ!

أضحكُ لما رواه رسول حمزاتوف، شاعر داغستان الكبير، عن والده الذي كان شاعرًا هو الآخر، ينظم الشِّعر بالعربية وكذلك بالآفارية

القومية، فقد كان يكتبُ كلَّ قصائد الغزل في النساء الأخريات بالعربية كي لا تفهمها زوجته إذا عثرتْ عليها!

إن كان الشُّعراء لا تنقصهم الحيلة، فالنساء لا يعدَمن الذَّكاء.

كيف لشاعرٍ مثل رسول حمزاتوف أن يختار بين الانحياز إلى الشِّعر والانحياز إلى الأمومة، وقد وجد نفسه عالقًا بين أبٍ جعل من الشِّعر ساعيَ بريدٍ إلى كلِّ امرأةٍ أحبَّها، وأمٍّ تملك حاسَّة اشتمام الخيانة بكلِّ اللّغات، حتّى بتلك التي لا تتقنها؟

كنت في التاسعة عشرة من العمر عندما وجدت نفسي أمام الخيار الأصعب: هل يجب أن يكون ولائي للشِّعر؟ أو للأمومة؟

على الأصحّ: هل أنحاز إليك... أو إلى أمِّي؟

فبعد صدور ديواني «على مرفأ الأيام»، جئتَني يومًا بمجموعةٍ شعريةٍ أسميتها EVASION وطلبت منّي أن أكتب لها مقدِّمةً وأتابع مشروع نشرها.

العنوان يختصر ما كانه الشِّعر بالنِّسبة إليك، «الهروب الجميل»، والملجأ الأخير.

كان الدِّيوان موزَّعًا بين قصائد وطنية وأخرى عاطفية، أمَّا المفاجأة فكانت قصيدةً موجَّهةً إلى أمِّي، تمتدح خصالها وصبرها عليك، وتعتذر لها عمَّا كتبته لغيرها.. من دون أن تقرأه عليها!

حين كبرتُ أدركتُ أنَّ بإمكان شاعرٍ أن يتغزَّل بامرأةٍ، ويبقى على حبِّه لزوجته. معظم الشُّعراء يفعلون ذلك. يبقى إقناع الزوجات بهذا المنطق.

في جميع الحالات، لا أعتقد أنَّ قصيدتك اليتيمة كانت ستشفع لك عندها، بل كانت ستطالب أوَّلًا بترجمةٍ حرفيةٍ لكلِّ قصائدك الأخرى، لتدقِّق في تفاصيلها، ثمَّ تبتُّ في الأمر. لا أدري

كيف وصل خبر مشروعك إليها، فمارست عليَّ كلَّ إرهاب أمومتها لمنعي من نشره، وحمَّلتني عواقب مرضك، لأنَّ صدور ديوانك سيزيد من توتُّرك وانفعالك!

في الواقع، حسب تعليمات الطبيب، كان لا بدَّ من أن نحافظ على مزاجك معتدلًا، فلا تفرح بشدَّةٍ ولا تحزن بشدَّة، لأنَّ تطرُّف المشاعر يؤذيك.

أيُّ قصاصٍ هذا، لرجلٍ دائم الاشتعال، وأيُّ حياةٍ هذه التي يجب ألّا تفرح فيها ولا تحزن إلّا بحساب!

لم تفارقني الحسرة لأنّي لم أحقِّق لك أمنيتك على بساطتها، ولأنَّ تلك القصائد التي قدَّمتها لي، مؤرَّخةً ومطبوعةً، لا أدري أين انتهت، وأيَّ مآلٍ كان مآلها.

لعلَّ رسول حمزاتوف انحاز إلى والده، وتواطأ معه في حفظ أسراره، وهو القائل «أبي كان على حقٍّ، ربّما كان الحبُّ معهدًا لا يدرس فيه كلُّ من يشاء، وحيث الفرح والحزن وحدهما، طوال الأيَّام والليالي، هما اللذان يُعلِّمان الطلبة».

أنت الذي زرت «الاتّحاد السُّوفييتي»، ليتك بدلًا من لقاء نينا خروتشيف التقيت وقتذاك رسول حمزاتوف، ابن داغستان، أرض الجبال والنُّسور والأساطير، المطمئنَّة في بقعةٍ ما من روسيا، حيث يولَد الصِّبية شعراء وفرسانًا، ولا ينحني الرجال إلّا للّه والجمال.

لو أنّك جالسته قليلًا لعدتَ بحفنةٍ من حكمته. هو القائل قبل وفاته بأيَّام: «حياتي مسوَّدةٌ تمنَّيت لو أنَّ لديَّ الوقت لتصحيحها». لربَّما كانت حسرته ساعدتك في تصحيح حماقات حياتك.

ولكن، هل كنت ترغب في تصحيح حماقاتك، أم في اقتراف ما لم تجد الوقت لاقترافه؟

أظنُّ أنّك كنت ستأتمنني على رسائلك لو كنتُ أكبر ببضع سنواتٍ، لثقتك بأنّني ما كنت لأتجسَّس عليك أو ألومك. صغيرةً شاطرتك حزنك دون أن أعي تمامًا ما فقدت.

لعلَّني ظلمت أمّي حين لم أغفر لها ذلك. هي مزَّقت ما كانت تراه خطرًا على أسرتها، بعد أن أفنت في أثناء انشغالك عنّا عمرًا في حمايته، وأنت أحرقت ما كنت تراه خطرًا على حياتك، بعد أن بذلتَ حياتك في الدّفاع عنه.

أدركتُ أنّك تفضِّل النَّار على التَّمزيق، لأنَّك رجلٌ سريع الاشتعال، من جيلٍ كان لنا الفتيل، حاسمٌ كحريق، لا تدخِّن، ولكنّك تصادق الكبريت، فوحدها النَّار لا تُبقي ولا تذر. أمَّا أمّي فكانت تملك صبر النساء، قدرتهنَّ على الكتمان، كيدهنَّ واستمتاعهنَّ بالتقطيع إربًا إربًا.

هي خرِّيجة المطبخ، وأنت خرِّيج السُّجون. في كلِّ مرحلةٍ من حياتك وجدت نفسك مؤتمنًا على وثائق، على أسماء، على سرٍّ عليك أن تحميه، سرٍّ قد لا يكون في خطورة ما كنت تخفيه أيَّام الثَّورة، وأحرقته قبل أن يداهم البوليس الفرنسيُّ البيت في قسنطينة، ويقتادك إلى حيث توقَّع أن تعترف بما تعرف.

منذ ذلك الحين صادقتَ النَّار، لحظةَ أدركت أنَّ الأوراق قد تطيح بالأعناق، أمَّا أمّي فصادقت المقصَّ، مذ فصَّلت به جهاز عرسها، ثمَّ ثيابًا لنا، ثمَّ ثيابًا لغيرنا، يومَ ما عاد لنا من موردٍ سوى ماكينة خياطتها، وهكذا واصلتْ تقطيع رسائلك... وربَّما أيضًا قصائدك!

***

«الماضي.. أيّها الماضي
ماذا فعلت بنفسك أيّها الماضي».

حين غادرتَ المستشفى، وجدتنا قد انتقلنا للإقامة عند خالي لبعض الوقت. لم يكن قد تزوَّج بعد، فأراد أن نقيم في فيلَّته ليسهل عليه في غيابك الاهتمام بنا.

كان خالي الأقرب إلى قلبي. في الواقع، لم يكن لنا قريبٌ سواه. أتت الحروب على شجرة عائلتنا. لم ينج سوى غصنٌ صغيرٌ تعلَّقنا به وتعلَّق بنا. كان مزيجًا من الطِّيبة والهيبة، صقله اليُتم والكفاح المسلَّح. كلَّما كان يعود من جبال الأوراس في إجـازةٍ قصيرة، كان يشتري لي هديَّةً. بسببه وقعت في حبّ الأوراس الذي كان يتردّد اسمه في بيتنا، كما لو كان ذلك الجبل يقيم معنا. لعقود نسيته، ثمّ فوجئت به يستيقظ في لاشعوري، وأنا أكتب «الأسود يليق بك» بمشاعر من أقام على قممه.

رضيعةً أهداني خالي خلخالي الذَّهبيَّ الأوَّل بما جمع من مال، ثمَّ أهداني درَّاجةً للأطفال. كبرتُ أنا وهرم هو، وظللتُ أناديه حسب الأصول «سيدي عز الدّين»، وظلَّ يناديكَ بدوره «سيدي» حتى وأنت في مصحَّة الأمراض العقليَّة، ومع كلِّ ما كان على أكتافه من نجوم.

لم تُبقِ له الحرب من أبٍ سواك. تربَّى هو وأخته في كنف جدتي، كانوا فتيانًا، هي من تكفَّلتْ بهما وبأمّي إثر وفاة إخوتها في أحداث 8 ماي 45 التي أفقدتها جلَّ أقاربها، بعد أن أودت الأوبئة الفتّاكة التي ضربت الجزائر بالقسم الأوّل من العائلة.

في الواقع، تربَّى وأخته في كنف الثَّورة، التحقا بالجبال وهما في ريعان الشَّباب، هو سنة 1955 وهي بعده بسنتين. ولم أعرفهما حقًّا في طفولتي إلَّا في وقتٍ متأخِّر.

أذكر من تلك الفيلّا حديقتها الجميلة، وشجرة وردٍ وارفةً تحتضن البوَّابة بقوسٍ من الورود البيضاء الصَّغيرة. لم أشمَّ بعد ذلك عطرًا كعطر وردها الأبيض أبدًا، ولا كنت أدري أنّه سيغدو في غربتي عطر الوطن الذي خزَّنته ذاكرتي. لا ريب زرعها الضَّابط الفرنسيُّ الذي أقام هناك، وترك لنا مُكرَهًا شذاها.

كانت الفيلّا تقع في شارعٍ صغيرٍ وجميلٍ يطوِّقه النَّخيل، يربط بين ما غدا اليوم فندق الأوراسيِّ الفخم، ووزارة الدفاع، ويضمّ مجموعة فيلات يسكنها كبار الضُّبَّاط، صادف أن كان المقيم في إحداها مقرَّبًا من الطَّاهر الزُّبيري الذي قام سنة 1967 بمحاولة الانقلاب الفاشلة ضدَّ بومدين. لجأ الرجل إلينا لأنَّ حديقتنا كانت مفتوحةً على حديقة بيته، بعد أن تمَّ تطويق الشَّارع من قبل المخابرات، التي رابطت سيَّاراتها في انتظاره على الرَّصيف المقابل.

ذلك الشَّارع يستحقُّ رواية. ما أزال أذكر سكَّانه. كنَّا صغارًا نتبادل الزِّيارات، وكنت أصادق من كان من عمري من بنات، من دون أن أعي تمامًا ما الذي يحدث.

بعد سنوات، غادر خالي ذلك البيت، وقد تخلَّى باكرًا عن نجومه، واختار حياةً مدنيَّةً بعيدةً عن السُّلطة، متابِعًا عن بعد أخبار جيران الأمس.

كنتَ قد خسرتَ وظيفتك، ولكنَّ مصادفة وجودك في ذلك البيت ألبستك شبهةً ما كنت لتتوقَّعها، شبهةً تقتضي المساءلة.

لقد عملت مع بن بلَّة، فكيف لا تكون متعاطفًا مع المتآمرين على بومدين؟

وهكذا أعادتك الصَّدمة مجدَّدًا إلى المستشفى، ونحن إلى شقَّتنا.

***

«الغزلان تحبّ أن تموت عند أهلها، الصقور لا يهمّها أين تموت».

غسان كنفاني

كنتُ في الرَّابعة عشرة. علقتْ في ذهني من ذلك الزَّمان قصصٌ مؤثِّرةٌ وطريفة. منها، أنّه كان لجارنا ببَّغاء، ولكنَّنا ما سمعنا له صوتًا. لا أدري كيف ولماذا حفظ الببَّغاء اسمي بالذَّات، ربّما لأنّه كان يحبُّ الحروف الحلقيَّة، وصار ما إن يستيقظ فجرًا، على عادة الطُّيور، حتى يبدأ بالنِّداء «أحلام... أحلام»، مُرفقًا ذلك بالصَّفير، ممَّا زاد الأمر شبهةً. ولأنّي كنت أحبُّ مقاسمة جدَّتي سريرها، فقد كنت أستيقظ لدى سماع اسمي، فتستيقظ هي أيضًا في حالة استنفار، واثقةً من أنّها أمسكتني بالجرم المشهود. فذلك لا يمكن أن يكون إلّا صوت ابن الجيران الذي يواعدني فجرًا. أبكي وأقسم أنَّ لا علم لي بالأمر، لكنّها تضربني وتوبّخني غير مصدِّقةٍ براءتي. إلى أن كنَّا مرّة في زيارةٍ لجيراننا، وكانت المفاجأة الكبرى، إذا بالببَّغاء يصفِّر وينادي باسمي، فتحلَّق حوله الكبار والصِّغار، وراحوا يلحّون في تلقينه أسماءهم، وكلَّما ازداد الأطفال إلحاحًا ومُطاردةً له، ازداد الببَّغاء رفضًا لترديد ما يُطلب منه. وكانت الصَّدمة عندما بعد يومين، استيقظنا لنجده قد انتحر بغرس مخالبه في عنقه.

حزنت حزنًا كبيرًا لموت الببَّغاء، لاعتقادي بأنّني تسبَّبت في انتحار الطائر المسكين. ثمّ، حين كبرت اعتدت أن أقول مازحةً: «مهما يكن، لا رجل سيحبُّني أكثر ممَّا أحبَّني ذلك الببَّغاء». في الواقع، غيَّر ذلك الطَّائر نظرتي إلى الكرامة، فمن دون أن يدَّعي أنّه مُناضلٌ أو مثقَّفٌ أو صاحب قضيَّة، مات بسبب إيمانه بحرِّيَّة التعبير، وحقّه في قول ما يحلو له، رافضًا أن يلقِّنه أحدٌ ما لا يريد قوله، تاركًا للبشر دور الببَّغاء.

حدث أيضًا أن جاءنا خالي من الصّحراء بغزالةٍ صغيرةٍ أفلتها في الحديقة، معتقدًا أنَّ ذلك الفضاء الصَّغير يكفيها لتعدو فيه. كانت سعيدةً معنا، كنّا نلاعبها وكانت تفوقنا سرعة، وما كنّا ندرك بأنّ حاجتها إلى الحرية والعدْو كانت تزداد يومًا بعد يوم كلّما كبرت، وأنّ العدْو بالنسبة لها ليس لعبًا وإنّما حياة، إلى أن قفزت ذات يومٍ من مكانٍ مرتفعٍ في الحديقة نحو الشَّارع، فتكسَّرت قوائمها. أخذها خالي لجبرها، ولكنَّها لم تعش إلّا أيَّامًا معدودة، ذلك لأنَّ القوائم الرفيعة هي التي تجعل من الغزلان غزلانًا. «الغزلان لا تكون غزلانًا إلّا إذا كانت حرّة» يقول مالك حداد، أي عندما تمارس حقّها الفطري في العدْو ولا تكون سجينة أو كسيحة في بيت.

من تلك الغزالة تعلّمت أنَّ الحرية تحتاج إلى خفَّة لا يمتلكها الإنسان، الذي على عكس الغزلان، كلَّما تقدَّم به العمر، أثقلته مسؤوليات الحياة، ودجّنته نظرة الآخرين وكثرة الحسابات، وانطفأت رغبة صباه في التَّحرُّر والانطلاق، إلى أن ينتهي كائنًا بيتوتيًّا.

ألهذا خلقنا الله بأرجلٍ لا بقوائم؟ لكي تظلَّ أقدامنا على الأرض ونحسب حسابًا لكلِّ قفزة؟

تعلَّمت أيضًا أنّه لا يمكننا تغيير فطرة الكائنات، فكما أنّ الدّجاجة مخلوقٌ مدجّن سعادتها في الفوز بقنّ، ولا يمكن إقناعها بالطيران لمجرّد أنّ لها جناحان، كذلك لا يمكن تدجين غزالةٍ ومنعها من أن تعدو بأقصى سرعتها، فقد خلقت حرّة ولن تقبل بغير البراري فضاءً. إنّها لا تملك ذعر الدّجاجات ونزعتها للاختباء، وتفضّل أن تموت غزالة على أن تعيش دجاجة، فالخوف من الموت هو موت يمتدّ مدى الحياة.

حين كبرت، أخبرتك مرة بفرحة غامرة أنّني صادفت مالك حداد، وأنّ صاحب «سأهبك غزالة» قال لي إنّه يحبّ سماعي ليلًا

أقرأ شعرًا باللغة العربية التي مثلك حرم منها، وأنّني «غزالة الشعر الجزائري». من فرحتي نسيت أن أعتبر من نهاية غزالتنا تلك، وأحذر الشعر، فهو «انتعال للريح» وشهقات وقفز نحو المجهول، قد يكسر قوائم الغزلان الصغيرة، لأنّها لا تتوقّع خطورة الكلمات الشاهقة!

***

«العربيُّ المحظوظ هو الذي يصحو من نومه ذات صباح،
فيجد نفسه مجنونًا وانتهى الأمر».

مريد البرغوثي

في الزمن الأوَّل، ما كنت أفهم لماذا أنت هناك، ولا ماذا يعني «الانهيار العصبي». ما كان يبدو عليك شيءٌ من الأمراض التي تسبِّب جراحًا ظاهرة.

صغيرةً كنت أسأل «ما به أبي؟»، وتجيب أمّي بأنّك لم تنم منذ عدَّة أيَّام. في معظم الأمسيات، كنت أذهب للنوم، بينما أنت في غرفة الطعام فاردًا الكثير من الأوراق، واضعًا ساعة يدك أمامك، تكتب. لا أدري ماذا كنت تكتب. كلُّ ما أدريه، أنّك كنت تسابق الوقت، مسرعًا في العمل، مسرفًا في الحماس، قليل الإخلاد إلى الراحة، تحاول إنجاز أكثر ما يمكن من عملٍ في أقلِّ ما يمكن من الوقت.

كان زمن ما بعد الفرحة الكبرى، زمنًا يجمع فيه الوطنيُّون بعد الاستقلال بين عدَّة وظائف ومهامّ، لا وجاهةً ولا جشعًا، بل استعجالًا منهم لبلوغ وطن الأحلام. كنتَ، حيثما توجد مهمَّةٌ تقدر عليها، تنبري لها، حتى تجاوزت مهامُّك طاقتك. شيئًا فشيئًا أصبحت عاجزًا عن النوم، غارقًا في هواجس لا يعلمها إلَّاك.

معارك الضمير لا شاهد لها، لذا لا نياشين لأصحابها. إنّها حروب تخوضها كلَّ يوم، لكي تنام بعمقٍ آخر النهار. لكنّ مصدر أرقك هو تلك المعارك التي تواجه فيها ليلًا أوهامك. ثمَّ حدث شيءٌ، تغيَّرت بعده حياتنا، أوصلك إلى حيث أنت.

عندما زرتك في تلك المرّة، رافقني ممرِّضٌ ليفتح لي باب غرفتك الحديديَّ المغلق من الخارج.

قال متوجِّهًا إليك بصوت ودودٍ:

– ها قد جاءت ابنتك عمِّي الشَّريف...

الرّجل الذي ينتظرني بلهفة أبوّته، ينام في سريرٍ ضيِّق، لا يشبه سريره المزخرف الذي على ظهره جدائل وردٍ نافرةٍ من خشب السِّنديان، مزيَّنةٍ على طرفيها بملائكةٍ من نحاس. لا شيء هنا يشبه غرفة نومه الجميلة، التي اقتناها بسعر زهيد من فرنسيِّين قبل مغادرتهم. ما كانت الفخامة من طبعه ولا كان يملك في ظروف أخرى ثمن شرائها. لكنّ أصحابها قبلوا بالقليل عندما قال لهم بأنّ هذا النوع من الزخرفة يعود للحقبة النابوليونيّة الثالثة، كان عزاؤهم أنّهم تركوها لمن يعرف قيمتها. هو نفسه باع بيته وأثاثه في تونس بسعر زهيد، إنّه قانون الحياة. لكنّه ما كان يدري بأنّه اقتنى الغرفة التي ستغدو عالمه، وسيقضي فيها أكثر أوقاته إلى آخر حياته. هل نشتري مع الأشياء أقدارنا؟

له طلَّةٌ لم أعهدها، ربّما منظر ذقنه الذي لم يحلقه منذ أيَّام.

كتبت في ذاكرة الجسد: «هنالك أوطانٌ تنتج كلَّ مبرِّرات الموت، وتنسى أن تنتج شفرات حلاقة!».

ولكن ليس هذا هو السَّبب في عدم حيازته موس حلاقة.

مع ذلك، بقي هذا الرجل الملتحي يحتفظ بهيبته، بجبهته العالية كجباه الجبال، وبترتيبه الخرافيِّ لأشيائه، وبنظافة كلِّ شيءٍ

فيه وحوله. تلك النَّظافة التي جعلت معلِّم الفرنسية يوم كان تلميذًا في الابتدائية، في قسنطينة، يعاير به أترابه.

كان ذلك بعد زيارةٍ طبِّيَّةٍ مفاجئةٍ للصَّف، فُتِّش فيها شَعرُ التلاميذ، وثيابهم الداخلية، ونظافةُ أقدامهم. قال المعلم متوجِّهًا بكلامه إلى صفٍّ متعدِّد الجنسيات كان هو العربيَّ الوحيد فيه:

– تقولون «Sale Arabe». ها هو ذا «العربيُّ القذر» أنظف منكم!

واصل ذلك الرجل رفع تحدِّي التميُّز حتى وهو في مصحَّةٍ عقليَّة، فارضًا معاملةً خاصَّة.

ولكنَّه اليوم يرى كلَّ شيءٍ يتلوَّث من حوله، في زمن الوشايات والتصفيات وخيانة الرفاق. الثورة نفسها فقدت طهارتها الأولى. «إنّها التفاحة الأولى»، قال لي يومًا، ولم أفهم إلّا بعد موته ما كان يعنيه. هو يدري أنَّ الأنظمة المستبدَّة تحكم بالإفساد، مراهنةً على التفّاحة الفاسدة التي ستأتي على كلّ تفاحات الصندوق، فكلُّ شيءٍ سيتعفَّن في النهاية. إنّها قضية وقتٍ ليس أكثر، فثمَّة من دسّ باكرًا الدُّودة في قلب التفّاحة.

في ذلك الزَّمن الأوَّل، كان المطرب الشعبي رابح درياسة يغني: «يا التفّاحة... يا التفّاحة قولي لي وعلاش النَّاس والعة بيك»، دون أن يدري أنَّ تساؤله أكثر فاجعةً ممَّا يبدو، وأنَّ ولع البعض بالتفّاح سيجعلهم يقضمون معه أحلامنا.

لم يكن أبي قد قرأ بأنَّ شيللر، شاعر الحرية والثورة على الظلم، كان يحتفظ دائمًا بتفّاحةٍ متعفنةٍ في درج مكتبه، يقول إنّها تحفّزه على رؤية الحقيقة.

***

«القدر كان طيِّبًا معي... لم أكُن مجنونًا ولا أعمى،
سوى أنّني ما أزال أتوق إلى رؤية الرَّغيف أقلَّ ثمنًا وحياة البشر أغلى».

رسول حمزاتوف

كنت أرى الجنون يوشك أن يفترس أبي، ولا أستطيع شيئًا لإنقاذه. أو لعلَّ الجنون هو الذي تولّى إنقاذه من مصائر انتهى إليها رفاقه. فوجوده في المستشفى أبعده عن متناول القتلة.

كم من فرصٍ للموت أفلتَ منها، ولكن وحدها تلك التي لم تصبه أفقدته صوابه. الرصاصة التي لم تخترق جسده اهتزَّت لها قناعاته، لأنّها انطلقت من يدٍ جزائرية، وصار عليه أن يتعايش مع قاتلٍ جزائريٍّ محتمل، يدرس برنامجه، يعرف تنقُّلاته، ويتعقَّب خطاه.

من حاول اغتياله؟ ومن بعث به؟ ولماذا؟

جوابًا على أسئلته، سلَّموه سلاحًا ليدافع عن نفسه.

وهكذا، عاد إلى البيت في أحد الأيَّام وفي حقيبته الجلدية، إلى جانب ملفّاته، مسدَّس. كان عليه أن يحمله كلّما غادر البيت، ولكنَّه فضَّل أن يخفيه على الرَّفِّ الأعلى لخزانته.

كان ذلك اليومُ الفاصل بين أحلامه وأوهامه، وبين قناعاته وهلوساته. انتقلت الكوابيس إلى غرفة نومه، فقد أصبح المسدَّس يقاسمه ليله، ويتسلَّل إلى عقله في كلِّ خطابٍ يكتبه.

لم يكن في سجلِّه قطرة دمٍ واحدة، تمامًا كرفيقه عبد الحميد مهري، وكعلي يحيى عبد النور. كان رجل نضالٍ وقلم، وحتّى في حرب التحرير، كان مكلَّفًا في الخارج بجمع الأموال لتسليح الثورة، ولكنَّه لم يحمل سلاحًا، ولم يقتل عدوَّه، فكيف عليه غداة الاستقلال أن يختار بين أن يقتل جزائريًّا أو يموت على يده؟

ها أنت ذا، على سريرٍ مركونٌ في غرفةٍ فارغةٍ تقريبًا من كلِّ شيء. شجرةٌ نُقلتْ إلى غير مكانها الطبيعي، إلى خارج منطق المواسم. لا التربة تربتك ولا الرياح توافقك. ولكنَّ نسيم فرحةٍ عارمةٍ يهبُّ دائمًا في غرفتك عندما ينفتح الباب وتراني أدخل.

– جئتِ حبيبتي!

قلتَ بالفرنسية وأنت تنهض من سريرك.

– هل كان المشوار متعبًا؟

لم أخبرك أنّني انتظرت الحافلة طويلًا، لأنّي فضَّلت عدم ركوب الأولى بسبب ازدحامها.

اعتدت أن أزورك مشهرةً سعادةً كاذبة، ملفِّقةً أخبارًا سارَّة.

أجبتك بالفرنسيّة:

– أبدًا بابا!

كانت أحاديثنا تدور غالبًا بالفرنسية، كما أردتَ، لكي تتابع إتقاني لها، بعد أن حرصتَ على أن أكون في مدرسةٍ للّغة العربية.

وضعتُ على طاولتك الصَّغيرة طعامًا أعدَّته أمّي وزيَّنته بعناية. كنسائنا، كانت تلك طريقتها في إرسال رسائل حبٍّ إليك. كان مع الوجبة أيضًا قليل من التّمر. أعرف أنَّك كنت تفضِّل البرتقال الذي اعتدت تقشيره بالسِّكِّين من أعلى إلى أسفل بطريقةٍ هندسيةٍ مذهلةٍ في تناسقها، ولكنَّ السِّكِّين كانت ممنوعةً عليك، ولم أتصوَّرك تقشِّر برتقالةً بيدك كيفما اتَّفق.

كيف لذوَّاقةٍ اعتاد ارتشاف الحياة كما تُرتشف قهوةٌ قسنطينيَّةٌ مرشوشة بماء الزَّهر، أن يغرفها بيده؟!

في تقشير البرتقالة، كما في طريقة تناولك السَّمك، الجزء الفوقيُّ أوَّلًا، ثمَّ قلبُ السَّمكة وتناول نصفها الآخر، بحيث يبقى هيكلها كاملًا في الصَّحن، تُختصَر شخصيَّتُك.

لم تكن أرستقراطيَّ المولد، ولكن، كرجالات جيلك، تكفَّلتَ بتربية نفسك، لأنَّ صورة الجزائر كانت جزءًا من معركتك، ضدَّ من أشاعوا أنّهم جاؤوا لتلقين شعبٍ همجيٍّ الحضارة. كنت من جيلٍ أنيقٍ دون بذخ، فصيحٍ دون جهد، ومثقّفٍ دون استعراض. الاستعراض يشي بافتقار صاحبه لما يستعرضه، كنتَ تقول.

تعلَّمت منك أن أحمي تلك الصُّورة في كلِّ ما أفعل، ولكنَّك أفسدت علاقتي بالبرتقال والسَّمك. أشعر أنّني غير متحضِّرة كلَّما اتَّسخت يداي وأنا أفتفت السَّمك بحثًا عن الحسك، مع أنّك شرحت لي أنَّ المرء إذا فهم تركيبة السَّمكة من الدَّاخل، عرفَ موضع الحسك وتفادى أذاه... وكذلك كلُّ شيءٍ في الحياة!

كيف إذن لم تستطع تفادي أذى الوطن وقد رأيتَه من الداخل بكلّ هذا الوضوح؟

كنتَ تتابع بفضولٍ ما أُخرج من قفَّتي. مددتك بكتابين أحضرتهما من مكتبتك، ولكنّك قرأت عنوانيهما ثمَّ وضعتهما غير آبهٍ جانبًا.

قلت معتذرةً:

– جئتك بكتابين، لهوغو ولامارتين، ظننتك تحبُّهما.

لم تعلِّق.

انتبهتُ إلى حماقتي. لقد درستَ هذين الكاتبين ودرَّستهما، وليس فيهما ما يمكن أن يغريك بالقراءة.

في الواقع، كنتَ تتمنَّى لو أنّني جئتك بالجريدة. ولكنَّ الطبيب منع عنك الجرائد والمذياع كي لا تزيدك الأخبار توتُّرًا.

كنت أنا نشرتك الإخباريَّة مرَّتين في الأسبوع، وكنت أيضًا مرآتك، إذ لم يكن من مرآةٍ فوق مغسلتك!

لم أفهم لماذا كلُّ هذا الإجحاف في حقِّ أناقة روحك، فما كنت من العنف لتكسر مرآة، أو تفتح بزجاجها شريانك، أو تهاجم بها الممرِّض. كنت مسالمًا، وكانت معركتك مع نفسك، كنت تريد فضَّ الاشتباك مع أحلامك، أو على الأصحِّ، مع أوهامك.

***

«هي التي يحلو لها التَّحايل على الجمارك العربيَّة،
ماذا تُراها كانت تخبِّئ في حقائبها الثَّقيلة، وكتبها الثَّخينة؟
أنيقةٌ حقائبها، سوداء دائمًا، كثيرة الجيوب السِّرِّيَّة، كروايةٍ نسائيَّةٍ،
مرتَّبةٍ بنيَّةٍ تضليليَّةٍ، كحقيبة امرأةٍ تريد إقناعك بأنَّها لا تخفي شيئًا».

عجبت لامتثالك لقانون المستشفى، فبالنسبة لي، كنتَ أنتَ السُّلطة. لعلَّك تأقلمت مع ما فُرض عليك لكونك تحترم القانون بطبعك، حتى في تفاصيله الصغيرة وأنت تجتاز الطريق، ولكنَّني كنت أرى نفسيَّتك تسوء بسبب حرمانك ممَّا تحبُّ. لذا قرَّرتُ أن أهرِّب إليك كلَّ الأشياء التي تصنع سعادتك ومُنعتْ عنك.

كان ذلك درسًا مبكِّرًا في الكتابة... صغيرةً تعلَّمت التَّحايل على الممرِّض، ولاحقًا على الرَّقيب. لم يحدث أن أمسك بي أحدهما. أوَ ليست الرِّواية حقيبةً لتهريب الممنوعات في الجيوب السِّرِّيَّة لكتاب؟

هكذا تعلَّمتُ أن أخبِّئ كلَّ محظورٍ بين الجمل.

وأنا أكذب وأهرِّب، وأُفشي وأُخفي، وأروي قصصًا أختلقها لإسعادك، أصبحت كاتبةً. وأنا أفاجئك بزياراتي خارج المواعيد الرَّسميَّة، تعلَّمت من شهقة فرحتك أنَّ الحبَّ مباغَتةٌ لا مواعَدة.

وأنا أعانقك كلَّما دمعت عيناك عند ذكر ما اقترفه الرِّفاق، كنت أقطع عهدًا بأن أثأر لك، فغدا دمعك حبري، وإذا بي مناضلة. كانت غرفتك الصَّغيرة الفارغة من كلِّ شيءٍ عدا الذَّاكرة والجنون، هي المدرسة التي تخرَّجتُ منها.

لا شيء كان يُسعدك كتلك اللحظة التي ينفتح فيها باب غرفتك، وتراني أدخل. أتسلَّل إليك كشعاع شمسٍ مباغتٍ يضيء وحدتك.

وضعت قبلةً على خدِّك، طوَّقتك وقلت:

– بابا حبيبي تْوَحَّشْتَكْ، كيف أنت؟... تبدو بهيًّا اليوم!

لأنّك تصدِّقني أضاءت كلماتي وجهك، وعدت الرّجل الوسيم الذي عهدته. فقد طمأنتك «مرآتي» على ما كان يعنيك ألّا تفقده.

كلُّ رجلٍ مرآته امرأة. من دون عينيها تشيخ وسامته وتنطفئ رجولته. وأصدق المرايا عينا ابنته.

في تلك اللحظة اغتنمت فرحتك لأخبرك بأنّني اقترحت على الإذاعة تقديم برنامجٍ شعريٍّ وأنّهم وافقوا.

فاجأك الخبر. أجبت بنبرةٍ فرنسيَّةٍ غاضبةٍ، لأسبابٍ كنت أتوقَّعها.

– ما هذا الذي تقولين؟

انتفضتَ جالسًا:

– هذا جنون! أنت ما تزالين تلميذةً، وهذا العام لديك امتحانات الثَّانويَّة العامَّة. هذه الشَّهادة تتطلَّب التَّركيز وإلَّا لن تدخلي الجامعة أبدًا. كيف ستوفِّقين بين الدِّراسة والعمل؟ أنت أصغر من أن تلتحقي بوظيفة. العمل التزامٌ ومسؤوليَّة. ثمَّ... ما الذي أوصلك إلى الإذاعة؟!

جلستُ على طرف سريرك، لأكون أقرب إليك وأنا أدافع عن مشروعي. كنت في حاجةٍ إلى مواهبي كلِّها لإقناعك!

– بابا... أنا أكتب أحيانًا نصوصًا شعريَّة، أطلعت أستاذي الأخضر السَّايحي على أحدها، أظنُّك تعرفه، هو شاعرٌ من الجنوب وله برنامجٌ إذاعيٌّ، طلب منِّي الحضور إلى الإذاعة لقراءتها في برنامجه. أُعجبوا هناك بصوتي، وسألوني إن كنت أريد أن أكون مذيعةً. تصوَّر، ليس لدينا مذيعاتٌ بالعربيَّة إلّا واحدة. أجبت بأنَّني لا أريد أن أتوظَّف، ولكن بإمكاني أن أقدِّم برنامجًا شعريًّا أعدُّه بنفسي... ما توقَّعت أبدًا أن يوافقوا.

أجبتَ بتذمُّر:

– في الأساس كيف يوافقون على برنامجٍ تعدُّه تلميذة؟!

– لقد قدَّمتُ حلقاتٍ تجريبيَّةً نالت إعجابهم. إنَّني موهوبةٌ بابا... ثق بي.

قلت جملتي الأخيرة وأنا أضمُّك واثقةً من أنَّك لن تخذلني.

سألتني إن كان برنامجًا أسبوعيًّا. أجبتك بأنَّه يوميٌّ.

صحتَ:

– يوميٌّ؟! كيف هذا؟!

سارعت إلى طمأنتك:

– لكنَّني سأسجِّل حلقات الأسبوع دفعةً واحدةً يوم عطلتي.

– وما مدَّة البرنامج؟

– نصف ساعةٍ فقط.

– نصف ساعة! تعرفين كم من أوراقٍ عليكِ كتابتها لملء نصف ساعة؟ كنت أكتب 15 صفحةً لأتكلَّم عشر دقائق في الإذاعة أسبوعيًّا لشرح فكرة التّسيير الذاتي. متى ستدرسين إن كنت ستكتبين 30 صفحةً يوميًّا؟

– برنامجي تتخلَّله أغانٍ، هي وحدها ستشغل نصف الوقت.

– لستُ مقتنعًا أبـدًا بأنَّ هذا لن يؤثِّر على دراستك. هدفك الحقيقيُّ يجب أن يكون النَّجاح في البكالوريا. أمامك كلُّ الوقت بعد ذلك. بإمكان مشروعك أن ينتظر حتى السَّنة القادمة.

لم أخبرك بأنَّ وضعنا الماديَّ لن ينتظر حتى السَّنة القادمة، وبأنَّني يجب أن أعمل لأخفِّف وزر المسؤوليَّة عن أمِّي، التي أصبحت تقضي معظم وقتها أمام ماكينة الخياطة، كي نواصل في غيابك حياةً كريمةً. لو قلت لك ذلك لعرفتَ أنّهم أوقفوا معاشك، ولانتكستَ وساءت نفسيَّتك، ولازددتَ عنادًا ورفضتَ مشروعي من الأساس.

أجبتك:

– ولكنْ هذه فرصتي بابا... أحبُّ الشِّعر ويقولون إنَّ صوتي جميل، لم يحدث لفتاةٍ أن قدَّمت برنامجًا كهذا. الفكرة جديدة، جرِّبني... أعـدك بأنَّني سأعمل أكثر. سأُطلعك على علاماتي. إن ساءت نقاطي في الفصل القادم سأوقف البرنامج فـورًا. لست من الحماقة بحيث أضحِّي بدراستي!

كان صمتك موافقةً «مبدئيَّةً».

لعلَّ الشِّعر هو ما شفع لي عندك. كان حماقةً أن تعتقد أنَّ بإمكانك أن تأتمنه عليَّ، فأنت تعلم أنَّ الشِّعر رفيقٌ غريب الأطوار، إن صادقته نقل إليك جنونه. أعتقد الآن أنَّ مشروعي كان حلمك، ولذلك تركتني أحقِّقه نيابةً عنك. لقد أيقظَ حنينك إلى ذلك الصَّديق الذي أضعته لفرط ازدحامك بسواه.

***

«أبناء الفاجعة لا منطق لأعمارهم... يكبرون دفعةً واحدة، يعبرون فصولًا لا تشبه فصول الحياة الأربعة».

كان الشِّعر صديقًا خنته، بعد أن استبدلتَ به كتابةَ الخطب السِّياسيَّة. فقد كان رفيقَ رجال جيلك، أولئك الذين درسوا في المدارس الفرنسيَّة في قسنطينة التي منها تخرَّج كاتب ياسين ومالك حدَّاد، كلٌّ برتبة شاعر، إذ كلُّ ثائرٍ شاعر. كان لكم الشَّغف نفسه وشهادة ميلادٍ واحدة. أنتم أبناء الفاجعة، جميعكم وُلدتم في 8 ماي 45، بين 40 ألف جثَّةٍ فرشت بها فرنسا في ظرف ثلاثة أيَّامٍ شوارع الشّرق الجزائري، وكبرتم عشر سنواتٍ، دفعةً واحدةً، في غضون أشهرٍ في السُّجون.

الذين صدّقوا وعود فرنسا بالحريّة، بعد تجنيدهم الإجباريّ لخوض الحروب تحت الألوية الفرنسيَّة، خانهم منطقهم. كانوا يظنُّون أنَّ الحرب العالميَّة الثَّانية كانت آخر الحروب. فكانت نهايتها بداية الحرب التي أعلنتها فرنسا عليهم. فانتصارها ما كان نصرهم، بعده غدا بإمكانها أن تفرَغ لهم!

«الحرِّيَّة والمساواة والأخوَّة» التي تعلَّموها في المدارس، كانت شعاراتٍ وُضعت لغيرهم. هذا ما استنتجه جيلك من الشَّباب الذين درسوا بالفرنسيَّة، بصفتها لغةً إجباريَّة، فكانوا أوَّل من نزل إلى الشَّارع مطالبين بحقوقٍ يدركونها تمامًا، جاهزين للدِّفاع عنها بالشِّعارات نفسها.

عندما غادر كاتب ياسين السِّجن الذي كنت رفيقه فيه، وجد حبيبته قد غدت زوجةً لسواه، ووجد أمّه هائمةً على وجهها في الشَّوارع فاقدةً عقلها، بعدما فقدت كلَّ أفراد عائلتها. مثله لم يبق

لأمِّك سواك، وكرجال جيلكما، أصبحتما كلَّ شيءٍ في حياة أمَّهاتٍ متطرِّفاتٍ في الحبِّ والخوف والاستحواذ.

كتب ياسين نصَّه الشِّعريَّ الأجمل «نجمة» وهو في حالة جنونٍ حقيقي، نصًّا لا بطل عاقل فيه. أمام موتٍ غير عاديٍّ في وحشيَّته، غدا الجنون عاديًّا، يسير مع النَّاس في الشَّوارع. مجازر 1945 أنجبت لنا أوَّل دفعةٍ من المجانين. مكتبة سُر مَن قرأ

أمَّا نهاية حرب التَّحرير فكانت مرفَقةً بفوج آخر من أنصاف المجانين، أناسٍ تائهين فاقدين بوصلتهم وصوابهم، زحفوا من كلِّ حدْب وصوبٍ نحو المدن، فاقدين أو مفقودين، يحدِّثون أنفسهم، كلٌّ يبحث عن أحدٍ أو يبحث عن نفسه.

سبع سنواتٍ من القتال، ومئات القرى المحروقة، وشعبٌ مبعثرٌ بين معاقل المجاهدين في الجبال والبلدان المجاورة. بين ألوفٍ اختفوا في المعتقلات، وألوفٍ سقطوا تحت القصف، لم تبق عائلةٌ إلّا وفقدت في الطريق إلى النَّصر فردًا منها. حتّى إنَّ أشهر برنامجٍ إذاعيٍّ كان آنذاك «أبحاثٌ في فائدة العائلات»، ظلَّ لسنواتٍ يبثُّ يوميًّا نداءات العائلات بحثًا عن أقربائهم المفقودين. ألوفٌ اختُطفوا من بيوتهم من قِبَل المظلّيِّين الفرنسيِّين، وما يزال الأهالي إلى اليوم يبحثون في الأرشيف الفرنسيِّ وفي المقابر الجماعيَّة عن جثثهم دون كلل.

تقول الإحصاءات إنَّ كلَّ التَّائهين، في سنوات الاستقلال الأولى، فقدوا بدرجاتٍ متفاوتةٍ عقولهم!

كم من مرَّةٍ قبلُ كان يمكن أن تُجنَّ؟ ولكنَّ جنونك تأخَّر ليكون على يد الوطن!

كعادتي كلَّ مرَّة سألتك:

– هل أخبرك الطبيب متى يمكنك المغادرة؟

أجبتَ بتذمُّر:

– هو يفضِّل تمديد إقامتي لبعض الوقت. قلت له إنَّني أنام كثيرًا على غير عادتي، قطعًا بسبب الأدوية، فلأذهب للنَّوم في البيت إذن!

– أنت في المستشفى لأنّك لم تكن تنام، من الأفضل أن تظلَّ هنا تحت المراقبة.

ربَّما لفظتُ الكلمة الخطأ. انتفضتَ:

– أعرف أنّهم حتى هنا يراقبونني. الجميع مراقَبٌ، عليك أن تعرفي هذا. أنا محتجَزٌ هنا، لا أملك قراري.

قلت لأهدِّئ من غضبك:

– «سيدي عز الدِّين» هو من جاء بك إلى هنا لأنّه المستشفى الأفضل بالنسبة لك.

– ولكنَّني لست مريضًا.

– بابا حبيبي أنت تعاني إرهاقًا شديدًا، لا بأس أن تبقى مدَّةً أطول لكي لا تنتكس... أعرف أنّك تشعر بالضَّجر... وددتُ لو كان بإمكاني أن آتيك بالمذياع... لكان آنسَك.

صحتَ:

– أحضري لي جريدةً.

– سأفعل ولكن تعلم أنَّ هذا ممنوع.

– سأتصفَّحها وتأخذينها معك. أريد أن أعرف ماذا يحدث. أنا منقطعٌ عن العالم منذ شهرين... وائتيني أيضًا بدفتر.

– لقد أحضرت لك دفترًا في آخر زيارة... هل ملأته؟!

– لا، ليس بعد... ولكن أحتاج إلى دفترين... لديَّ خطَّة!

– خطَّة؟! كيف؟

– لن تفهمي... أفكِّر في أمرٍ ما.

كنتُ أكثر من تتفاهم معك، لأنّني كنت أتقبَّل كلَّ أفكارك، حتّى الغريب منها، وأتمادى في مسايرتك، كما لو كانت أفكارًا طبيعيَّة. ولكنَّني لم ألحَّ في سؤالك، فالأمر لم يبد لي مهمًّا.

احتضنتك وقلتُ:

– ستخبرني في المرَّة القادمة.

تحاشيتَ الجواب. قلتَ:

– احكي لي عمَّا يحدث في البيت.

رحت أخترع قصصًا، وأُخفي أخرى، وحين طال الحديث، نظرتَ إلى ساعتك وقلتَ:

– لا تتأخَّري في العودة، فهذا وقت الزَّحمة. تعالي أبكر في المرَّة القادمة...

كانت ساعة يدك هي غنيمتك، الشَّيءَ الوحيدَ الذي ما استطاعوا تجريدك منه، وما كنت لتتنازل عنه، نظرًا إلى هاجسك الأزليِّ بالوقت.

قلت مرَّةً معلِّقًا على شخصٍ مهمٍّ واعدك وتأخَّر في المجيء: «لا يمكن لمن يحترم نفسه أن يهين وقت الآخرين...».

حين جاء لم يجدك.

كان يحلو لك أن تروي نكتة «الموعد العربي» إلماحًا إلى استخفاف العرب بالوقت، إذ بإمكان أحدهم أن يضرب لك موعدًا لا ميقات له، مُهدِرًا ساعاتٍ من يومك دون أدنى شعورٍ بالحرج: «نلتقي على الواحدة، انتظرني حتّى الثَّانية، فإن لم أحضر على الثَّالثة، يمكنك على الرَّابعة أن تغادر».

لفرط حرصك على الوقت، كدتَ تُفقد السَّاعاتيَّ أعصابه، وهو الصَّبور بحكم مهنته. كنت تنتظر نشرة أخبار الثَّامنة لتضبط ساعتك، فإن وجدتها تأخَّرت أو تقدَّمت بضع دقائق، أرسلتها له من الغد مع أخي ياسين ليفحصها. كانت الدقائق هي الوحدة الزمنية لديك، وكان هذا أمرًا غريبًا ومضحكًا، لمن يعيشون حولك خارج الزمن.

تمامًا كوضعك النقاط والفواصل بين الكلمات أثناء الحديث لأنّها إيقاع الكلام.

ها إنَّ كلَّ الوقت أمامك الآن، فما أنت فاعلٌ به؟ وكلّ تلك النقاط والفواصل ما نفعها وليس لك من تتحدّث إليه؟

أنَّى لك أن تستعيد عافيتك وأنت تعي أنَّ وقتك مهانٌ حيث أنت، وقد استُبحتَ بحكم مرضك ومكوثك في المستشفى؟ هل يمكن لحصانٍ جامحٍ أن يغدو فجأةً سلحفاة؟

أمَّا أنا، فكان لي وقت العصافير الصغيرة، وقتٌ بجناحين وقلبٌ يخفق لينطلق لأوَّل مرَّةٍ في الحياة. وقتُ البدايات.

لم أصدِّق أنَّني فزت برضاك على مشروعي، ولو صمتًا. ضممتك طويلًا وغادرتك فَرِحَةً... أو بالأحرى أشدَّ جنونًا منك!

***

«الفرح في أقصاه توأمُ الجنون».

فرحتي انطفأت في البيت.

رفضت أمّي فكرة عملي في الإذاعة رفضًا قاطعًا وحاسمًا، لا بسبب دراستي ولا لصغر سنِّي، ولكن لمجرَّد أنَّ دخول الإذاعة عيب. ماذا ستقول لمعارفها حين يسمعونني أتحدَّث من الإذاعة ليلًا وأتردَّد

إليها كالمغنِّيات؟ مع أنَّ مغنِّيات تلك الأيَّام كنَّ محتشماتٍ، يظهرن على شاشة تلفازٍ هو نفسه وقورٌ ومحتشم بالأبيض والأسود.

سُدًى شرحت لها أنَّني لن أزور الإذاعة سوى مرَّةٍ في الأسبوع، أي أربع مرَّاتٍ لا أكثر في الشَّهر. أبت أن تفهم أو حتّى أن تسمعني. كانت ضدَّ الفكرة لا ضدَّ العدد. استخدمتُ آخر أوراقي، قلت إنَّ دخلي سيكون جيّدًا. ولكنَّ ذلك لم يغيِّر شيئًا. «لا نحتاج إلى نقودك... أنت تستغلِّين مرض أبيك لإقناعه بأيِّ شيء، غير آبهةٍ بإلحاق العار بالعائلة».

لأيَّامٍ أعلنت عليَّ الحرب، ورفضتْ أيَّ حديثٍ معي.

لزمت غرفتي وبكيت لأيَّام. وحين زارنا خالي، حاولتُ إقناعه، فوحده القادر على إقناعها. فزت بموافقته بعد شروطٍ «عسكريَّةٍ» صارمة. أخذ منِّي عهدًا بحسن السُّلوك وعدم التَّهاون في الدِّراسة. قال: «أنت تحت الاختبار، تذكَّري هذا. عند أوَّل خطأٍ سيتوقَّف البرنامج».

لم أعرف فرحةً أكبر. الفرح في أقصاه توأمُ الجنون.

أسرعت إلى الإذاعة لأخبرهم بموافقة أهلي.

وهكذا، كنت في السَّابعة عشرة من العمر، أوقِّع أوَّل عقدٍ في حياتي.

***

«الشَّرُّ أنثى، ما دامت الشَّرارة مؤنَّثًا».

كان أبي متشدِّدًا في كلِّ ما يتعلَّق بسلوكنا، مصرًّا على انضباطنا، مراقبًا طريقة جلوسنا وأكلنا، واحترامنا للآخرين، مصحِّحًا كلامنا، فارضًا علينا أن نتكلَّم لغةً واحدة، لا لغتين معًا، لأنّ في ذلك دليل

على عدم تمكّننا من الاثنتين. وكانت كلمته عند الغضب تفوق وقع صفعات أمّي التي كانت توزّعها علينا بالكفّ، أو بخُفٍّ قريبٍ من متناولها، غير آبهةٍ ببلوغنا سنَّ المراهقة.

«الكفُّ» الوحيد الذي تلقَّيته منه كان وأنا في الثَّانية عشرة، بسبب تأخُّري في العودة إلى البيت، وهي المرَّة الوحيدة التي ضربني فيها في حياتي، فقد كان بإمكانه أن يصفعني بكلمة. يكفي أن يقول بالفرنسيَّة «تستحقِّين كفًّا» لأشعر بصفعته على خدِّي وأبكي طوال الليل. فمعه حتّى النَّظرة يمكن أن توجِع، تلك التي كانت في الماضي تجمِّد الأبناء في مكانهم، وما عدنا نراها لدى آباء اليوم.

كنت قد عُدت متأخِّرةً إلى البيت، لأنَّني صادفت في طريقي عجوزًا تحمل قفَّةً ثقيلة، فحملتها عنها غير واضعةٍ في حسباني أنَّ بيتها قد يكون بعيدًا، فقد كانت العجائز، وما يزلن، يحملن مشترياتهنَّ الثَّقيلة ويمشين بها طويلًا. أوحى إليه ارتباكي من أسئلته أنَّني أكذب، وهو ما لم يكن يطيقه، إضافةً إلى خوفه أن أعتاد في غيابه التَّأخُّر في العودة، فصفعني صارخًا في وجهي: «أريدك هنا حال خروجك من المدرسة!».

بكيت طوال الليل، وحزنت أشدَّ الحزن، فقد أبى الحديث معي.

حين كبرت، قال لي يومًا «أنا أثق بكِ».

ظلَّت تلك الكلمات الثَّلاث ترافقني حتّى بعد رحيله. لم يزد عليها بعد ذلك أيَّ سؤالٍ عن سلوكي أو تنقُّلاتي، ولا وضع في معصمي أيَّ قيدٍ سواها. كان قد زرع الرَّادع في داخلي.

أمَّا أمّي فقد استبدلت بالكلمات الثَّلاث ثلاثةَ أحرفٍ: «عيب»، وهي لا تعني نظرتي إلى نفسي، بل نظرة الآخرين إليّ. كلمةٌ رافقتني إلى ما بعد زواجي. فالعمل بالإذاعة عيب، ووضع قليلٍ من الزينة قبل

الزَّواج عيب، والزَّواج بمن تختارين عيب، وكذلك وجدتْ أختي صوفيا الصُّعوبة نفسها في إقناع أمّي بأنّ دراسة الفنون الجميلة ليست عيبًا.

تأخَّرت أمّي في الاعتراف بموهبتنا، ككلّ الأمهات، كانت بدءًا تفضِّل لو كنّا طبيبات أو محاميات. إلى أن لقيتْ مرّة معاملةً خاصّةً من طبيبة، علمتْ من الاسم أنّها والدتي، فشعرت أنّ الكتابة لا تقلّ وجاهة عن الطبّ، ثمّ تميّزت أختي في مجالها، وعندما شاهدت أمّي نجاحها، استيقظتْ لديها رغبة دفينة في منافستها. حدث أن تغيّبتْ صوفيا لفترة طويلة، عادت فوجدت أمّي قد استلمت محترفها للسيراميك وأصبحت تتقن رسم المنمنمات وتلوينها وتزينها بالذّهب السائل ووضعها في الفرن الخاص، وأنجزت لوحات مذهلة في حرفيّتها وقّعتها بأحرف لاتينية باسمها!

في الواقع، كانت صوفيا قد حقّقت ما تمنّته أمّي التي كانت تهوى الرسم والديكور، أمّا أنا فحقّقت ما تمنّى أبي أن ينجزه في الأدب.

لا يعادل حزني أن لا يكون أبي قد قرأني، إلّا حمدي لله على عدم اطّلاع أمّي على كتاباتي. نصوصٌ كثيرة ما كنت كتبتها لو كنت أدري أنّها ستقرؤها. يمكن أن أذكر قصصًا طريفة كثيرة، لكتّاب فرنسيّين كلاسيكيين ومعاصرين، أفسد خوفهم من نقد أمّهاتهم علاقتهم بالكتابة.

أحدهم كتب «ما استطعت كتابة كلمة واحدة وأمّي على قيد الحياة، كنت أكتفي بتدوين ملاحظاتي».

لا يمكنني أن أتصوّر أمّي وهي تطالع كتبي، وتفتّش بين جملي، كانت ستتحكّم في علاقتي بأبطالي، وتبحث في كلّ نصّ عاطفي عن مصدر إلهامي. وربّما ظهرت عليها أعراض الكتابة وفاجأتني

برواية تصدرها لدى ناشري، لتلقّنني كتابة الروايات، كما تعلّمني كلّما زارتني ترتيب البيت وإعداد الطبخات، لقناعتها بأنّ «النار تلد الرماد» وأنّني لن أضاهيها إتقانًا للأشياء!

يا لحظّي الجميل! دائمًا كنت محظوظةً بقبيلة رجالي، فأبي وإخوتي وخالي وزوجي وأبنائي كانوا استثنائيّين في حبّي واحترام حرّيّتي في الكتابة، وحمايتي من سذاجتي. كانوا حولي بالتّناوب، يطمئنُّون ويذودون ويحنُّون ويسندون. حتّى إنّي لأعجب لأقدار نساءٍ أخرياتٍ عندما أرى رجالًا لا مروءة لهم.

اكتشفت باكرًا أنَّ الأنوثة ضعفٌ، وخوفٌ، وشبهةٌ، وخطأٌ، وخطيئةٌ، وأنّ الأنثى وحدها المسؤولة عن شرف العائلة، وأنَّ حياتها في كلِّ الأعمار تتحكَّم فيها ثلاثة أحرفٍ: «عيب»، وهو حكمٌ مخفَّفٌ بالنَّظر إلى أنّها على مدى عصورٍ كانت تولد باسمٍ من ثلاثة أحرفٍ أخرى: «عار»، وبسبب هذا العار كانت تُدفن حيَّةً فورَ ولادتها، حتّى قبل أن تحمل اسمًا أو تقترف إثمًا.

ذات مساءٍ، خرجت أمّي عن صوابها، عندما راح شابٌّ سكرانٌ ينادي باسمي بأعلى صوته أسفل البناية، كي أسمعه من الطّابق الخامس: «أحلاااام... أحَبْطي جِيبي الدَّراهم»، فأطلَّ كلُّ سكّان الحيِّ من شرفاتهم ليروا ما الخطب. كان أبي في المستشفى منذ أشهُر. رأت أمّي في الحادثة فضيحةً ما بعدها من فضيحة. من هذا الذي له مال عندي؟!

عبثًا رحت أشرح لها أنَّ الشَّابَّ زميلٌ في الجامعة، شكا لي حاجته، لكونه ابن شهيدٍ ويعيل إخوته، فاعتدت مساعدته، ثمَّ توقَّفت عندما بدأت أشكُّ في أمره. لم أتوقَّع أن يلاحقني حتّى البيت.

استنجدتْ أمّي بجارنا فنزل وتوعَّده بلغة مجاهد ما زال يحتفظ بسلاحه إن هو عاد مجدَّدًا إلى الحيِّ. بعد ذلك فرغَتْ لي!

ما أبكاني يومذاك، قولُها: «سأخبر أباكِ بفضائحك».

لم أفهم لماذا، وقد كانت نيَّتي الإحسان، أن يحلَّ بي كلُّ ذلك «العار»، بينما الشَّابُّ الذي كان سكرانًا، وتصرَّف بدناءةٍ لا مثيل لها في أعرافنا، لم يعبأ أحدٌ بالسُّؤال عن هويَّته، وواصل حياته في الجامعة محترمًا، منتقمًا بإطلاق الإشاعات عني. أدركتُ صدمة بعد أخرى، بأنّ كلّ رجل ترفض له امرأة أمرًا ما، يتحوّل إلى عدوّ لها، ويحاربها بالإشاعات، خاصة إذا اقترفت جريمة التفوّق عليه. ذلك سلاح الضفادع التي تحسب على الرّجولة، وتلتقي في المقاهي حول المياه الآسنة للفشل، لتقيس فحولتها بالنّقيق والخوض في أعراض النساء، مطمئنّةً إلى كون المجتمع ليس معنيًّا بأخلاق الرّجل، ولن يحاسبه مهما فعل، وسيصدّق أقواله دون التأكّد منها، طالما أنّ الشُّبهة أنثى!

الرّجال الرّجال يثأرون بنبلهم لا بلسانهم، ولا يأتون على ذكر امرأة، هي التي تفاخر بهم.

الفصل الثّالث

«العدو الأخطر ليس الأكثر تسلُّحًا،
بل الأكثر معرفةً بك، والذي لا تعرف كم أمرك يعنيه!».

أليس الشَّاعر من نستمع إليه والرِّوائيُّ من يستمع إلينا؟

كان على الحمام الذي يحوم في حيّنا أن يكون روائيًّا.

هو الذي كان يلتقط كلماتنا في أثناء التقاطه الحَبَّ عن الأرض، ويتابع تنقُّلاتنا في أثناء طيرانه فوقنا، تمامًا كروائيٍّ منهمكٍ في جمع معلوماتٍ عن أبطال روايته. لا شيء من تفاصيلنا كان يفوته، لا حركة كانت تخفى عليه. ما عساه يفعل بكلِّ ما لديه من قصصٍ وحكاياتٍ وأسرار، إن لم يكتب رواية؟

لم يكن الحمام يحطُّ على الأشجار كالعصافير فنسمع هديله، ولا كان يزعق في تنقُّلاته بأصواتٍ مزعجةٍ كالنَّوارس فننتبه إليه. كان بلا صوت. ولذلك لم يكن أحدٌ يوليه اهتمامًا، أو ينتبه إليه وهو يتنقَّل بين الأسطح وشرفات البنايات. كان الطَّائر الأخرس فوق كلِّ شبهة، بلونه الرَّماديِّ الذي يذوب مع أيِّ لونٍ يحطُّ عليه، المتحرِّك

بكلِّ أريحيَّةٍ بين النَّاس، تارةً بين أرجلهم وتارةً فوق رؤوسهم، جامعًا من المارَّة فُتات الكلمات، مُلمًّا بتفاصيلهم اليوميَّة.

لكأنَّه «أبو الرِّيش»، المتسوِّل الذي ما كان أحدٌ يعرف اسمه فأُطلق عليه هذا الاسم لاعتماره قبَّعةً تعلوها ريشة.

يُحكى أنَّ «أبا الرِّيش» ظهر في سنة 1976 في شارع الحمرا الشَّهير، قلبِ بيروت، وكان يتنقَّل رثَّ الثِّياب، وَسِخَ الوجه واليدين، حافيَ القدمين، أشعثَ الشَّعر واللِّحية، متسربلًا صيفَ شتاءَ بمعطفٍ أسود ممزَّقٍ تفوح منه رائحةٌ كريهة. كالحمام، كان الرّجل مجهول الاسم والنَّسب، وما استطاع أحدٌ أن يسأله من أين جاء ولا لماذا ظهر فجأةً في حيِّهم، فقد كان أخرس... تمامًا كالحمام.

وكالحمام، كان «المتسوِّل الأخرس» مسالمًا ولطيفًا مع الصَّغير والكبير، يتصدَّق عليه النَّاس بفضلات طعامهم، أو برغيفٍ، أو بسيجارةٍ، فيردُّ عليهم بابتسامةٍ وَدُود. وكالحمام أيضًا، عاش بينهم لسنواتٍ دون ضغينة، لم يؤذ إنسانًا ولا تعدَّى على أحد. كالحمام، كان ليلًا يلتحف السَّماء، وينام في الحدائق على المقاعد العموميَّة، ولا يبدو في النَّهار معنيًّا بحربٍ طاحنةٍ تدور بين البشر، إذ لم يُعرف عنه انحيازه إلى أيِّ ميليشيا أو حزب، بل كان يبدو غير عابئٍ بكلِّ ما كان يجري حوله، حتى إنَّ بعضهم أشفق عليه حين اشتدَّت المعارك وأشار عليه بمغادرة الحيِّ، ولكنَّه واصل حياته متنقِّلًا بين المقاهي التي يرتادها المثقَّفون والشَّوارع التي يتقاسمها المسلَّحون. وبسبب ضراوة المعارك التي أشعلتها الحرب الأهليَّة، لم يعبأ بأمره أحد، ولا انتبه إلى اختفائه وعودته أحد، فالجميع في صيف 1982 كان مشغولًا بالاجتياح الإسرائيليِّ للبنان، وواقعًا تحت صدمة دخول إسرائيل لأوَّل مرَّةٍ عاصمةً عربيَّة.

ولكنَّ صدمةً أكبر كانت في انتظار سكَّان الحمرا، عندما شاهدوا دوريَّـةً إسرائيليَّةً، تتوقَّف على بعد خطوتين من المتسوِّل

المستلقي على الأرض، وتؤدِّي له التَّحيَّة العسكريَّة، فينتصب الرَّجل واقفًا ليتبادل مع جنودها جملًا بالعبريَّة.

بعد سنواتٍ من الخرس، «نطق زكريا» وقال متوجِّهًا إلى الجنود: «تأخَّرتم بعض الشَّيء يا جماعة»، وصعد على متن الدَّبَّابة.

هكذا انتهت مهمَّة الكولونيل «المتسوِّل» بعد أن فتح أبواب بيروت للدَّبَّابات الإسرائيليَّة.

كيف بعد قصَّةٍ كهذه أثق بطائرٍ مهيَّأٍ جينيًّا ليكون مخبرًا، وكيفما تلفَّتّ رأيته؟!

منذ الأزل عمل الحمام الزَّاجل ناقلًا للرَّسائل بين الجيوش، حتّى إنَّ التَّاريخ يذكر أنَّه استُعمل لأوَّل مرَّةٍ سنة 24 قبل الميلاد لمآرب حربيَّةٍ، للاطِّلاع على ما كان يدور عند العدوّ ومعرفة أخباره من بعيد!

كان على المخابرات العربيَّة أن تتحالف مع الحمام، فهو أخطر من عصافير تويتر المغرِّدة التي تتجسَّس عليها، وهو قادرٌ على سماع أصواتٍ منخفضةٍ يبلغ تردُّدها 0.05 هرتزلًا يمكن للبشر سماعها.

يا لَلحماقة... لقد رأى الحمامُ وسمع على مدى عقودٍ كلَّ ما يخصُّنا!

لا أحد يدري من أين جاء هذا الحمام، وكيف وصل إلى هنا، وفي أيِّ عهدٍ حطَّ رحاله بيننا.

أتُراه جاء مع الموركسيِّين بعد سقوط الأندلس قبل 500 عام؟ أم دخل مع الفرنسيِّين سنة 1830 عند احتلالهم الجزائر؟ أم تُراه رافق قبيلة بني هلال في رحلتها من نجد إلى شمال إفريقيا في القرن الحادي عشر؟ أم إنّه كان هنا منذ البدء مع أجدادنا الأمازيغ؟

وهل من المصادفة أنّه اختار له مسكنًا بمحاذاة قصر الحكومة، من دون أن يشتبه أحدٌ في وجوده هناك، لكونه أكثر الطُّيور قربًا من الإنسان؟

هناك، راح يتناسل ويتكاثر مؤسِّسًا له وطنًا موازيًا ما انفكَّ يزداد توسُّعًا، مستفيدًا من انهماك النَّاس من حوله في الحروب والتَّظاهرات، ليسطو بحكم الواقع على منطقة الحكم.

قديمًا أولى العربُ تربيةَ الحمام اهتمامًا خاصًّا، فعرفوا سلالاته وسمَّوا أنسابه، ولهم كتبٌ في ذلك. ولكن، هذا الحمام، لم يطالبه أحدٌ، في أيِّ عهدٍ، بتقديم أوراقه الثبوتيَّة، ولا تمَّ يومًا اعتراضه واستجوابه عن موطنه الأصليِّ وهويَّته الحقيقيَّة، ولا عن سرِّ مكوثه على مقربةٍ من مقرِّ الحكومة، ولا سأله أحدٌ إلى أيِّ جهةٍ ينتمي، ولأيٍّ من الطَّرفين ولاؤه؟

ذلك لأنَّه كان هناك دائمًا طرفان يتنازعان حقَّ ملكيَّة الأرض... بينما لم ينازعه يومًا أحدٌ ملكيَّة السَّماء، ولا ملكيَّةَ نُصب الموتى.

غداة الاستقلال، تغيَّرت حياة الجميع، المهزومين كما المنتصرين، الوافدين كما المغادرين، وحده واصل حياته متنقِّلًا بين حديقة ساعة الأزهار وقصر الحكومة، كأنَّ شيئًا لم يكن.

***

مُدّت مائدة المنتصرين
كلٌّ يعكف على غنيمته
كلٌّ يشرب حليب ناقةٍ
ليست له.

أدونيس

إنه النَّصر!

اكتملت فرحتنا كليلةٍ يكتمل فيها القمر، ويُقال إنَّ لأطواره تأثيرٌ في أطوار البشر.

«أخطر الأوقات أوقات النَّصر»، أصعبُ من ترويض وحوش الحرب ترويضُ وحوش النَّصر، حين تعلو الهتافات والشِّعارات ويخفت صوت العقل، ذلك لأنَّ نشوة النَّصر في أقصاها جنونٌ مؤقَّت، حتّى لو كان انتصارًا على فريقٍ رياضيٍّ لبلدٍ آخر، فما بالك إن كان على واحدةٍ من أكبر القوى في العالم.

كان مشهد العاصمة وهي تعيش فوضى عارمةً بين المغادرين والوافدين، وتفرغ تدريجيًّا من سكَّانها الفرنسيِّين، أشبه بمشهدٍ في قاعة سينما غادرها المشاهدون على وجه السُّرعة مذعورين، في أثناء عرض فيلم، بسبب قنبلةٍ قيل إنّها ستنفجر، مخلِّفين وسط الفوضى حقائبهم ومظلَّاتهم ومحافظ نقودهم وأشياءهم مبعثرةً على الأرض وعلى المقاعد، تاركين القاعة لأفواجٍ بشريَّةٍ مبتهجةٍ قادمةٍ من كلِّ حدبٍ وصوب، لا صبر لها على انتظار موظَّفةٍ تُرشدها إلى مقاعد مرقَّمة.

في الأصل ما كانوا يملكون تذاكر، كانوا يملكون الحقَّ... إنَّهم المنتصرون!

اكتسح القادمون الجدد الأماكن الشَّاغرة، محتلِّين أوَّل مقعدٍ يصادفهم، غير معنيِّين بعنوان الفيلم أو بقصَّته، فما حاجتهم إلى القصص والأفلام؟! لقد كتبوا التَّاريخ، وفازوا لتوِّهم بالاستقلال بعد 132 سنةً من الاستعمار الفرنسيِّ. ما عاشوه يتجاوز في فظاعته أيَّ فيلمٍ قد يشاهدونه. هم هنا ليحتفلوا بنصرهم.

لكن، عندما أُشعلت الأضواء، اكتشف المنتصرون أنَّه في أثناء عتمة العرض وانشغال النَّاس بفيلم الانتصار العظيم، كان دستور الجزائر المستقلَّة يُناقَش في قاعة للسينما، في غياب أعضاء الحكومة المدنيَّة المؤقَّتة التي كانت تمثِّل الجزائر خلال الثَّورة.

هكذا، من القاعة نفسها وُلدت أوّل سُلطة وأوّل معارَضة للدولة الناشئة.

في الخارج، كان في كلِّ حيٍّ يدور فيلمٌ مثيرٌ، يمكن أن يكون عنوانه «الاجتياح الكبير»، أبطاله قدموا من كلِّ حدبٍ وصوبٍ نحو العاصمة. إنَّهم «أبطال الثَّورة»، ويحقُّ لهم كمنتصرين احتلال أيِّ مسكنٍ شاغرٍ تركه الفرنسيُّون. بينما على الطَّرف الآخر، كان الفرنسيُّون مجرَّد حشدٍ وكومبارس في مسلسلٍ طويلٍ عنوانه «الهجرة الكبرى». على مدى أشهرٍ رحل نحو مليون فردٍ من ذوي «الأقدام السَّوداء» على دفعاتٍ عائدين إلى فرنسا، في رحلاتٍ بحريَّةٍ يوميَّة، في أكبر عمليَّة نزوحٍ مضادٍّ عرفتها أوروبَّا، خوفًا على حياتهم، تاركين خلفهم قبور أقربائهم، وحيواناتهم الأليفة، وبقايا حياةٍ سابقة، وأشياء عزيزةً ما استطاعوا حملها.

وحده الحمام لم يعبأ أحدٌ بمصيره. لم يسأل أحدٌ إلى من ينتمي، إلى الرَّاحلين أم إلى القادمين الجدد الذين انتقلت إليهم ملكيَّة الأجواء؟

وبدوره، مع أنَّه كان يعيش على بُعد رفَّتَي جناحين من الميناء، لم يدْرِ من غادر ومن جاء، إذ كيف له أن يميِّز بين الجزائريِّين وذوي «الأقدام السَّوداء».

يُقال إنَّ هذه التَّسمية أُطلقت على الفرنسيِّين وذوي الأصل الأوروبِّي الذين عاشوا في الجزائر خلال فترة الحكم الفرنسيِّ، بسبب سواد أحذيتهم مقارنةً بما كان ينتعله الجزائريُّون آنذاك. ولكن، وقد أصبح الجميع ينتعل الأحذية العصريَّة نفسها، كيف للحمام أن يميِّز بين الخصمين وهو يتحرَّك على الأرض بين أقدامهم؟

كلُّ شيءٍ يراه هاربًا نحو وجهةٍ ما، وهو لا يجرؤ على اتِّخاذ قرار، لأنّه ببساطةٍ لا يدري على ماذا يتخاصمان. لذا، كان الحمام يبدو تائهًا، يحوم دون بوصلةٍ حول الأماكن نفسها، بين حديقة ساعة الأزهار ونُصب الموتى، صعودًا إلى ساحة قصر الحكومة، مطمئنًّا إلى كون السَّماء ما زالت له، ما دام هو الوحيد الذي نجا بريشه، من كلِّ المعارك والكمائن التي نُصبت على مقربةٍ منه، والقنابل التي وُضعت في الشَّوارع المجاورة، في المقاهي وفي قاعات السِّينما، تارةً من قِبَل الجزائريِّين ضدَّ الفرنسيِّين، وتارةً من قِبَل المتطرِّفين الفرنسيِّين من جماعة OAS ضدَّ من فضَّل البقاء من المستوطنين.

مَن يقتل مَن؟ لا يتريَّث الحمام ليعرف الجواب.

قبل الرَّصاصة الأولى كان يطير، بينما الفرنسيُّون والجزائريُّون يسقطون جرحى وقتلى.

كان يحسب أنّ النَّجاة لمن يملك جناحين.

«بل لمن يملك السَّماء»، قال الطَّيران الحربيُّ مصحِّحًا سذاجة الطَّير!

ثمَّ، ما نفع السَّماء للحمام إن كان لا يذهب أبعد من فتات قوته؟ وما جدوى أن يكون شاهدًا على كلِّ ما حدث إن كان لا يعنيه تقصِّي الحقيقة بل التقاط لقمته فحسب؟

تأمّلاتي الأولى حول الحرِّيَّة تشكَّلت وأنا أتأمَّل الحمام.

كبعض البشر، الحمام يلحق كلّ من يُطعمه. لذا يمكن الإمساك به دون عناء. أذكر من كان يقول «وُجد الفم للأكل أو للكلام ولا يمكنك أن تتكلّم ما دمت تأكل». الحمام طائر لا صوت له، اختار أن يأكل. ولأنَّه بالفطرة جبان لم يشارك يومًا في معركة، ولم يأخذ موقفًا من أيّ خلاف. هو متفرِّجٌ محايد، لا يعنيه أن يفهم ما يحدث،

وأقصى غايته أن يتابع تحرُّكات الجميع، ليضمن النَّجاة بريشه قبل وقوع الحدث.

أن يكون له جناحان لا يعني أنَّه حرٌّ، وأن يستحوذ على إقامةٍ دائمةٍ غير بعيد عن قصر الحكومة لا يعني أنَّ له سلطة ما. كلُّ ما هنالك أنَّه أسير قفصٍ غير مرئيٍّ يحوم داخله دون توقف، متوهّمًا بأن اقترابه من سدَّة الحكم تمنحه حماية ما. في الواقع، ذلك لا يمنعه من أن يكون في متناول الصغار، الذين يتسلّون بتنغيص حياته ومطاردته بالحجارة.

***

«جيئيني بكتابٍ نهايته سعيدة».

ناظم حكمت

قبل كلِّ زيارةٍ إليك، كنت أتوه في مكتبتك تلك، بحثًا عن كتابٍ يمكن أن يُدخل السَّعادة إلى قلبك، فوحدها الكتب كانت مسموحةً لك.

لصغر سنِّي، ولكونها بالفرنسيَّة، لم أكن أفهم تمامًا عناوينها المبهمة، فكنت أختار لك الكتب بحسب جاذبيَّة أغلفتها. كيف كان لي أن أعرف أنَّه، كما الأشخاص الذين يخفون خلف ابتسامتهم حزنًا كبيرًا، بإمكان الكتب أن تكذب، وتخفي خلف أغلفتها الجميلة قصصًا حزينة، وأنَّ الكتب التي حملناها في محافظنا المدرسيَّة لا تصلح لمرافقتنا إلى المصحَّات العقليَّة، فربَّما كانت هي السّبب أصلًا في جنوننا!

لا أذكر من القائل: «اكتبْ باختصارٍ كأنَّك ستدفع عن كلِّ كلمةٍ قرشًا».

يا إلهي! كلُّ تلك الكتب التي قاسمتنا بيتنا، أتكون حيواتٍ مهدورةً مصفوفةً على رفوف مكتبة؟

كم كان عليهم إذن أن يدفعوا، كلُّ الذين كتبوا هذه الكتب التي اجتمعت في مكتبتك؟ ليست كلُّها ضخمةً، ولا كلُّها فخمة، ولكنَّها بلا شكٍّ مكلفةٌ، بمقياس الوقت الذي أنفقه أصحابها في كتابتها ومراجعتها وتنقيحها، لتنتهي هنا في مكتبةٍ، مُهمَلَةً لم يفتح دفَّتيها أحدٌ منذ ثلاثة عقود.

هل كنتَ لتتوقَّع إلى أيِّ مآلٍ ستؤول كتبك التي اشتريتَها في فورة كرامة، دافعًا مقابلها عن تحدٍّ ما كنَّا نحتاجه لحياةٍ كريمة؟

مشاعر متناقضةٌ تنتابني كلَّما عدت إلى بيتنا من بعدك ورأيتها.

يا لتلك المكتبة!

ما تزال تضمُّ كتبًا عجيبةً في أحجامها وتنوُّعها، بدءًا بسلسلة قواميس تعود إلى ثلاثينيات القرن الماضي، بغلافها الأخضر الزَّيتيِّ المهيب، تستفرد بالرَّفِّ السفليّ الذي يناسب حجمها، فقد كانت قواميس تلك الأيَّام ذات أحجام ضخمة، كلُّ مجلَّدٍ منها مخصَّصٌ لحرفين أو ثلاثة أحرفٍ فحسب، مرسومةٍ على الغلاف بأحرفٍ لاتينيَّةٍ مذهَّبة، ويحتاج إلى ذراعين قويَّتين لحمله وإلى طاولةٍ لفرده.

كان للكلمة وزن، وللكتب هيبةٌ. بالرَّغم من شيخوختها وعمرها الذي يقارب القرن، ما زالت تلك المجلدات في مكتبتنا، فهي تضع بينك وبينها مسافة احترام، تمنعك من التَّخلُّص منها.

لا شكَّ في أنَّها كانت تعني لك الكثير، كي تحملها سنة 1947 من قسنطينة إلى تونس على حساب ضروريَّاتك، في رحلة منفاك الاختياريِّ، هربًا من ملاحقات السُّلطات الفرنسيَّة، ثمَّ تعود بها سنة

1962 غداة الاستقلال من تونس إلى العاصمة. كان مجرَّد اجتياز الحدود آنذاك مغامرةً كبرى، أمَّا نقل مجلَّداتٍ وقواميس فكان ضربًا من الجنون.

حدث ذلك من قبل، في زمن الأمير عبد القادر، الذي كان منذ شبابه يسافر إلى الحجّ متبوعًا بقافلة محمَّلةٍ بمكتبته، ولا يقصد أرض المعركة إلّا مصحوبًا بكتبه، وحين أُرغم على الهجرة، حمل مكتبته بحرًا وبرًّا من الجزائر إلى فرنسا ومن فرنسا إلى الشَّام. أمَّا على أيَّامك، فما كان النَّاس يحملون في هروبهم سوى أرواحهم.

لا أدري كيف استطعتَ إقناع جدَّتي باستقبال ثمانية مجلَّداتٍ ما كان البيت ولا الظَّرف مهيَّأين لاستقبالها في زمن الأوبئة والمجاعة. ربّما تقبَّلت الأمر لأجلك، فقد كنتَ كلَّ ما استطاعت إنقاذه من براثن الحروب والأمراض، بعد أن فتك الموت برجال العائلة التِّسعة، من إخوةٍ لها وأبناء.

في الواقع، لم ينس أبناء قسنطينة أنَّ فرنسا، عندما دخلت مدينتهم سنة 1837، بعد وقوفها طويلًا عاجزةً عند أبوابها، اقتحمت بيوت أعيانها وأفرغتها من مكتباتها المتوارثة. على مدى سنواتٍ ثلاثٍ، ألوف الكتب أُحصيَت في سجلَّاتٍ ونُقلت إلى فرنسا لتجريد قسنطينة من ذاكرتها والسَّطو على كنوزها، حتّى إنَّ عائلاتٍ قسنطينيَّةً كثيرةً لم تخلع إلى اليوم ثياب الحِداد على مكتبات أجدادها، وما تنفكُّ تسعى إلى استعادتها. فقد روى الأجداد للأحفاد مشهد تلك الكتب التي غادرت بيوتهم في القفف، أغلبها كان مخطوطًا أبًا عن جد، وما استطاعوا الدفاع عنها.

أتُراك اكتسبتَ عادة اقتناء الكتب عن تحدٍّ وكبرياء؟

كان شراء الكتب ترفٌ في تلك الأيَّام، غير أنَّ أحدهم عرض عليك بسعرٍ زهيدٍ تلك المجلَّدات التي مات صاحبها في الحرب، فدبَّت فيك الحماسة لاقتنائها، لتثبت لمن تصادف من الفرنسيِّين أنَّ بإمكان الجزائريِّ أن يضاهيهم ثقافةً، فقد كان تحدِّي جيلك، آنذاك، إتقانُ الثَّقافة الفرنسيَّة أكثر من أصحابها.

***

«بقاؤك منتصب القامة في معارك تخوضها بكرامتك،
يجعلك لا ترى إلّا متأخِّرًا ما سقط أرضًا من جيبك!».

مقولة رولان بارت «على المرء أن يخفي عن الآخرين صيدليَّة بيته ومكتبته» التي تعجبني بقدر ما تُضحكني، كانت نصيحةً غير مجديةٍ فيما يخصُّ مكتبتك، التي تضمُّ من الكتب ما يثير العجب. محتواها لا يشي بذوقك أو توجُّهاتك، بل بشخصيَّتك، وبما يمكن أن تقوم به في لحظة غضب. فلا أحد يتوقَّع أن يشتري أحدٌ مكتبةً بكاملها تحدِّيًا لمكتبيٍّ!

حدث ذلك بعد الاستقلال في نهاية السِّتِّينيَّات. دخلتَ مكتبةً في شارع بن مهيدي، الذي كان حتّى ذلك الحين معروفًا باسمه الكولونياليِّ (شارع ديزلي)، ورحتَ تتصفَّح الكتب. سألت صاحبَ المكتبة عن كتاب، ثمَّ عن ثانٍ، ثمَّ عن ثالث. وبما يُعرَف عن الجزائريِّين آنذاك من حدَّةٍ وسرعة انفعالٍ، وعدم تعوُّدهم مسايرة الزَّبون، قال لك بتذمُّر: «هل تنوي شراء الكتب أو أنت هنا لتضيِّع وقتي فقط؟».

لم تتقبَّل النَّبرة التي توجَّه بها إليك، فأجبته غاضبًا:

«كيف تتحدَّث إليَّ هكذا؟!.. يمكنني شراء مكتبتك هذه كلّها!».

وأمام ما بدا على المكتبيِّ من استخفافٍ بكلامك، واصلتَ بلهجةٍ آمرة: «أريد جردًا بكلِّ الكتب الموجودة. أنا ذاهبٌ لأُحضر دفتر شيكاتي وأعود!».

لم تكن تقود السَّيَّارة، ولم يعد لديك سائقٌ مذ فقدت وظيفتك، فقطعتَ شارع بن مهيدي، وصعدتَ ذلك الدَّرج الشَّاهق المؤدِّي إلى حيِّنا بجوار قصر الحكومة، حيث كنت تعمل في الماضي، ثمَّ صعدت طوابق البناية الخمسة، لأنَّ المصعد كان معطَّلًا كالعادة، ورأيتك تدخل البيت مُنهَكًا لاهثًا، ومن دون أن تقول شيئًا قصدت غرفتك، ثمَّ خرجت منها وغادرت البيت.

في آخر النَّهار توقَّفت شاحنةٌ أسفل بنايتنا، وراح عاملان يحملان إلينا الصَّناديق، واحدًا تلو الآخر، حتّى الطَّابق الخامس، دون أن نفهم ما الذي يحدث.

ما إن غادرا حتّى جئتني إلى غرفتي وقلتَ مبتهجًا:

– حبيبتي تعالي انظري، لقد اشتريت لك مكتبة.

(طبعًا قلتها بالفرنسيَّة).

أمام فرحتك العارمة، أخفيتُ عنك ذهولي وأنت تفتح الصَّناديق وتطلعني على كتبٍ كنتُ أصغر من أن أفهم محتوى معظمها، أو حتّى معنى عناوينها، ولكن لم أشأ إفساد بهجتك. قبَّلتك وقلت ممتنَّةً:

– Merci papa.

لعلَّك أردت أن تبرِّر لي أنا بالذَّات تصرُّفك، وتدعوني لرؤية ما قلتَ إنَّه «هديَّتي» لأنَّني كنت أكبر أبنائك وأقربهم إليك، فأشاركك زهوك بما رآه غيري ضربًا من الجنون.

كنتَ قد فقدت منصبك ومصدر دخلك الوحيد، ولكنَّك لم تفقد عنفوانك. عبثًا شرح خالي لصاحب المكتبة أنَّنا لا ندري ماذا نفعل بكتبٍ في الطَّبخ، وأخرى في البستنة، وأخرى عن كوبا وماوتسي تونغ وكفاح الشُّعوب ضدَّ الإمبرياليَّة، وأنَّك أبٌ لأربعة أولادٍ دفعت في شراء مكتبته كلَّ مدَّخراتك.

تكرَّم علينا الرجل باستعادة كمِّيَّةٍ صغيرةٍ من الكتب، وتركنا أمام عشرات الكراتين، فلسوء حظِّنا كانت «مكتبة العالم الثَّالث» المكتبة الأكبر في العاصمة آنذاك وربَّما الوحيدة. كادت أمّي تفقد صوابها، ففوق الوضع المادِّيِّ الذي تركتَنا عليه، كان عليها، هي التي لا تتقن القراءة، أن تتقاسم شقَّتها مع مئات الكتب.

لعلَّ عزاءها الوحيد هو أنَّك جئتها بمكتبة، لا بضرَّة، كمعظم معارفك من رجال الثَّورة الذين كانوا يتردَّدون إلى بيتنا، ووجدوا في استقلال الجزائر فرصةً ليستقلُّوا بدورهم من التزاماتهم الزَّوجيَّة السَّابقة، ويبدؤوا حياةً جديدةً مع صبيَّةٍ تليق بمباهج الجزائر الفتيَّة. هي مكافأةٌ شرَّعوها لأنفسهم، فقد التحقوا بالثَّورة جاهزين لعقد قرانهم على الموت، أمَّا وقد انتصروا فمن حقِّهم أن يتَّخذوا الحياة أولى سباياهم وغنائمهم.

هي تدرك أنَّ رجلًا يحبُّ الكتب ليس بريئًا تمامًا، بالمقارنة مع رجلٍ يحبُّ النِّساء، ولكنَّها توقَّعت ألّا يترك لك ولعك بالكتب من وقتٍ لـ«مطالعة» غيرها.

كان لأمِّي ذكاءٌ خارقٌ، ومعرفةٌ بخفايا البشر ونواياهم تتجاوز كلَّ ما تحتويه مجلَّداتك وقواميسك. كانت تعي أنَّ الخطر الأكبر على سعادتها كان يأتي من الحبر أوَّلًا، ومن كلِّ ما كنت تحتفظ به في مكتبتك من قصائد حبٍّ لن تعرف يومًا محتواها، ولا لمن نظمتَها. أمَّا

خُطبك عن التَّسيير الذَّاتيّ والثَّورة الزِّراعيَّة التي كتبتها لمناسباتٍ رسميَّةٍ، فلم تكن تعنيها ولم تكلِّف نفسها حتّى عناء الاستماع إليها في الإذاعة. كانت تعي تمامًا أنّ سطوتك كانت تكمن في ثقافتك، وفي ذلك السِّحر الذي كنت تمارسه دون جهدٍ على من تجالس. في الواقع، كان يزعجها أن يكون لك من الصّفات ما يجذب إليك بعض الإناث.

ربَّما تمنَّت لو كنتَ أمِّيًّا، فكما كانت قوَّة شمشون في شَعره، كانت قوَّتك في فصاحتك وشِعرك. لذا، رأت في اجتياح الكتب بيتنا سلطةً إضافيَّةً ضُمَّت إلى مملكتك، وتاجًا سيوضع على رأسك وحدك.

بعد بضع سنوات، حين تحسَّنت أحوالنا بفضل عملي، كان أوَّل قرارٍ اتَّخذته أمّي تغيير أثاث المكتبة. لم تستشرك، فقد كانت أمور البيت من شأنها. أوصت نجّارًا بصنع مكتبةٍ فخمةٍ رسمت بنفسها تصميمها وتفاصيل زخرفتها بقلم رصاصٍ على ورقٍ كبيرٍ شفَّافٍ أخذته من لوازم صوفيا التي كانت تدرس الفنون الجميلة. كانت أمّي موهوبةً في الرَّسم، تُجيد رسم المنمنمات إلى حدٍّ أدهش النَّجَّار الذي استغرق منه إنجاز ما طلبته أكثر من سنة، وكنَّا في أثناء عمله عليها نؤدِّي إليه أجره بالتَّقسيط. لكن، حين غدت المكتبة جاهزةً، رفض النَّجَّار أن يسلِّمها لنا، فلجمالها ما مرَّ أحدٌ بمحلِّه إلّا وعرض عليه شراءها. لكنَّ أمّي لم تستسلم، لا حبًّا في الكتب، بل في ما لتلك المكتبة من أبَّهة. فما كان منها إلّا أن خاضت ببسالةٍ وإصرارٍ «معركة المكتبة» التي انتهت في المحكمة!

بعد ثلاث سنواتٍ من الانتظار، فزنا بها تزامنًا مع فوز عبد النَّاصر ببناء السَّدِّ العالي.

حين كبرت أدركـت أنَّـه كما أنَّ الـذيـن يتفنَّنون فـي تزيين غرف نومهم لا يمارسون الحبَّ فيها، كذلك الذين يهتمُّون بفخامة مكتباتهم، لا يقرؤون ما فيها من كتب.

***

يا أولادي
أوصيكم أن تلعبوا بالنَّار
ولا تلعبوا بالحبر
أن تحرقوا مكتبتي
وتصونوا أحذيتي

عبد الكريم الرَّازحي (الضَّحك في زمن البكاء)

أخذت المكتبة مكانها أخيرًا في غرفة الجلوس، محتلَّةً حائطًا بأكمله، فارضةً هيبتها بخشبها الفاخر وزخرفتها النَّافرة. أوصت أمّي نجَّارًا آخر بإنجاز مجلسٍ عربيٍّ بالزَّخرفة نفسها، غطَّت أرائكه ووسائده بقطيفةٍ نبيذيَّة اللَّون، ووضعت مرآةً كبيرةً بإطارٍ مشابهٍ على المدفأة الرُّخاميَّة الجداريَّة التي كانت موجودةً في معظم الشُّقق الكولونياليَّة آنذاك، ثمَّ بحثتْ طويلًا عن ثريًّا نحاسيَّةٍ بمصابيح ملوَّنةٍ من الزُّجاج المعشَّق، كما حالفها الحظُّ في العثور صدفةً، بين أثاث الفرنسيِّين المعروض للبيع، على طاولةٍ منخفضةٍ جميلةٍ بقوائم منحوتةٍ على شكل تماثيل إغريقيَّةٍ تحمل لوحًا رخاميًّا. هكذا، أصبح لنا مجلسٌ فخمٌ يتحوَّل ليلًا إلى غرفة نومٍ لإخوتي الفتيان. أمَّا نهارًا، فما زارنا أحدٌ إلّا وانشغل عن تأمُّل كتبك بسؤال أمّي من أين جاءت بهذا الأثاث.

لم تكن المنافسة عـادلـةً، فقد كانت أمّـي تتمتَّـع بـذوقٍ راقٍ وفريد، ذوقٍ أرستقراطيٍّ لا أدري من أين جـاءت بـه. كان بإمكانها

بالقليل أن تحوِّل أيَّ مكانٍ تسكنه إلى مسكنٍ فخم. أمَّا كتبك خلف الزُّجاج، ومع كلِّ ما أنفقتَ عليها، فلم تكن تلفت انتباه الضُّيوف، إلّا عندما كنت تأتي على ذكر كتاب، أو تُحضره من المكتبة لتُطلع عليه من يبدو مهتمًّا.

تلك المكتبة تختصر شخصيَّة عائلتنا فردًا فردًا، كما تختصر ما آلت إليه الجزائر جيلًا بعد جيل.

كنتَ تحبُّ الكتب كما رجال زمنك، وكانت أمّي تحبُّ المظاهر كما هو المجتمع اليوم، أمَّا أنا فكنت أحبُّك، كما كلّ البنات المفتونات بآبائهنَّ. في تلك المعادلة، كان عنفوانك من نصيبي، فقد أورثتني جينات جنونك. ولأنَّ أخي مراد يحبُّ حراسة الذَّاكرة، ويشبهك في اهتماماتك وخيارات حياتك وكأنّه نسخة أخرى عنك، غدت المكتبة بعد عشرين سنةً غنيمته، وزاد عليها ما اشترى من كتبٍ في أسفاره، هو الذي لم يجمع طوال حياته غير الكتب التي كان يشتري منها سلاسل كاملةً، ويُدخلها إلى البيت خفيةً عن أمِّي، كما كنتَ تفعل، ويخبِّئها خلف الكتب المعروضة حتى لا تلفت انتباهها. ولكن اليوم، بعد ثلاثين سنةً من فوزه بالمكتبة، غدا فريسةً لسؤالٍ مؤرِّقٍ لا يجد له جوابًا: ما مصير هذه الكتب التي لا تعني أحدًا من أولاده، ولن يتصفَّحها أحدهم يومًا؟

جيلًا بعد جيلٍ تدهور التَّعليم، وتقزَّمت الأمنيات، وما عاد الحلم امتلاكَ مكتبةٍ تبهر بها عدوَّك، بل تأشيرة لجوءٍ إلى بلاد مَن كنت تسعى إلى إبهاره بها.

يوم غادرتُ الجزائر إلى باريس للدِّراسة، تمنَّيتَ لو حمّلتني مكتبتك، استعرضتَ بعض الكتب معي لإقناعي بأنّني قد أحتاجها،

لكنّي أخذت بضعة كتبٍ لإسعادك فحسب، بذريعة أنَّ الزِّيادة في الوزن مكلفة.

في الواقع، على مدى عمر، كلَّفتْني مكتبتُك ثمنًا يفوق ما دفعته أنت عند شرائها، فقد تعلَّمتُ في الرَّابعة عشرة، وتلك الصَّناديق تقاسمنا بيتنا، أنَّ هناك شيئًا غير مرئيٍّ، أغلى من المال، يدعى الكرامة، قد يجعلك تخسر لأجله كلَّ ما تملك. ذلك لأنَّ الإنسان عندما انتهى من إعطاء اسمٍ لكلِّ شيءٍ يراه، خطر بباله أن يسمِّيَ أشياء لا تُرى، وهكذا ابتدع أسماءً كالضَّمير والكرامة وعزَّة النَّفس، وبسببها خسر الكثير ممَّا يملك، لأجل شيءٍ لا يعلمه سواه.

بسبب تلك المكتبة، وقعتُ في حبِّ الخسارات الجميلة، الخسارات الكبيرة الباهظة التي لا شاهد عليها سواي، والتي اعتدت أن أحتفي بها إكرامًا لفرحتك أمام صناديق كتبٍ لم يقرأها أحد، وتسبَّبتْ في إفلاسك.

أقنعتُ نفسي بأنَّنا نكبر بالخسارات الكبيرة، وبأنَّ الخسارات الصَّغيرة تقزِّمنا.

أصبحتُ أمعن في جرائم الهدر، إكرامًا للحظة زهو لا أُشهد عليها سوى ضحكتي. بعض الضحك عند الخسارة، ضرب من الكرامة.

خسرت كثيرًا. لو تدري كم خسرت، لأنّي واصلت الضّحك بعدك، على ما ينحني الحمام لتلقّفه عند أقدام الموائد.

أكان جنونًا أن أقاسمك عنفوان الخاسرين؟

كنتَ زوربا على طريقتك. لو أنَّك قرأتَ زوربا لكنت فردت ذراعيك مثله يومذاك، ودعوتني لمشاركتك تلك الرَّقصة، حول صناديق الكتب التي ملأت بيتنا في صفقةٍ مجنونةٍ أبرمتَها مع عزّة النفس. كنا رقصنا معًا زهوًا بحماقاتك، كما حول النّار يرقص الغجر. وللقّنتني

على لسان زوربا درسك الأهمّ: «إن لكلّ إنسان حماقاته، لكنّ الحماقة الكبرى هي ألّا يكون للإنسان حماقات».

***

«ما الحبُّ إلّا للكتاب الأوَّل».

علاقتنا بالكتب تشبه علاقتنا بالبشر. تصادف كثيرين وتقع في حبّ واحد، لأنَّك كنت جاهزًا للتَّعلُّق، ولأنَّه وُجد هنا، عندما كنت في مرحلةٍ من حياتك في حاجةٍ إليه دون سواه، لأنَّ له نبرة الحكمة التي تنقصك، ومنطقًا مجنونًا يروقك، ولأنَّه الوحيد الذي يتحدَّث إليك بالعربيَّة، وسط عشرات الكتب الغريبة عنك.

هكذا وقعتُ يومًا في مكتبتك تلك، وسط لفيف الكتب الفرنسيَّة، على نسخةٍ من رواية «زوربا» باللّغة العربيَّة.

ما توقَّعت أبدًا وأنا أطالعه عن فضولٍ أثاره عندي عنوانه الموسيقيُّ، أن يمسك بتلابيبي ويرافقني إلى عناوين بيوتي، وإلى كلِّ فصول حياتي.

الكتاب الأوَّل، كالحبِّ الأوَّل، لا يُنسى. إنَّه يشكِّل وجدانك، وستظلُّ تبحث عنه بقيَّة عمرك في كلِّ ما تقرأ من كتب.

القراءة حالة حُبٍّ، تبدأ بنظرةٍ، فلهفةٍ، فمواعَدة. بعض النَّاس يستعجل لُقيا الكتاب، فيطالعه في الحافلة، أو في حديقة، أو في قاعة انتظار. أنا أطالع الكتب التي أحبُّ في سريري. وفي سرير صباي استقبلت زوربا، لاعتقادي أنَّ الكتب التي تشبهني لا يمكن أن ألتقيها خارج البيت كما الغرباء، ولا أن أجالسها في الصَّالون كما الضُّيوف، بل عليَّ أن أخلو بها مساءً. ما بيننا يقال وشوشةً، فثمَّة سرٌّ ما ستبوح لي به... لعلَّه يشبه أسراري.

وُجد الصَّالون للكتب الوقورة، ذات الأحرف المذهَّبة المصطفَّة في مكتبة، كتلك القواميس التي اشتريتَها. ولكنَّني لا أحبُّ ما يلمع، ولا تغريني تلك الكتب المهذّبة، ذات الأحرف المذهَّبة. هي أكثر رصانةً من أن تدعوك إلى قصَّة حبٍّ مجنونة. الحبُّ قد يأتيك في كتاب صغير الأحرف، رخيص الورق، تدسُّه المصادفة في جيبك، ذلك لأنَّ من شروط الحبِّ أن يخالف توقّعاتك.

مذ الصَّفحة الأولى استدرجني زوربا إلى حلبة الحياة... وما برحتُ في كلِّ كتابٍ أراقصه، وفي كلِّ فصلٍ من حياتي أضع يدي على كتفه، وأقول:

«هيَّا زوربا، راقصني... لا شيء يستحقُّ الحزن يا صديقي».

بابا.. هل تدري أنَّه كان لي أبٌ سواك يدعى «زوربا»، يونانيّ أُميّ، أنت من جئت به إلى بيتنا؟ هل كنت ستغار لو عرفت أنّني بعدك اعتدت أن أستشيره؟

هناك أبطالٌ خالدون يصعب نسيانهم، يخرجون إلينا بين الفينة والأخرى من بين الورق، يمسحون دموعنا، يربِّتون على أكتافنا، يبادلوننا البوح والوشوشات... يعرفون عنَّا أكثر ممَّا نظنُّ!

مثلما هناك جيلٌ وُلد من «أحزان فورتر» لغوته، وجيلٌ من «صباح الخير أيّها الحزن» لساغان، وجيلٌ من «الغريب» لكامو، هناك جيل تشكّل وجدانه بقلم نيكوس كازانتزاكيس، أنجبه «زوربا»، اليونانيُّ الذي جاءنا من أرض الفلاسفة، بحكمة البسطاء، بعد موت ملايين البشر في حروبٍ عبثيَّة، ما عاد فيها الإنسان يصارع الآلهة كما هوميروس، بل غدا يصارع سلطة المسلَّمات التي جعلت منه عبدًا لإرادة الآخرين ونظرتهم إليه.

لقد قرَّر زوربا أن يكون حرًّا، وألَّا يُقدِّم حسابًا لأحد. لذا، أصبح في إمكانه، وهو المُسنُّ الأمِّيُّ الذي تخرَّج في مدرسة الحياة، أن يكون حكيمًا على طريقته، ويدير قدر شابٍّ خرّيج الجامعات.

هو المتكلِّم بسلطة الخسارات، الذي اقترف نيابةً عنَّا كلَّ الجرائم وكلَّ الخطايا، لبلوغ تلك الحكمة. خاض حروبًا خاسرةً، دافع عن قضايا مفلسةٍ، أحبَّ نساءً بلا أمل، موفِّرًا علينا الكثير من الخيبات.

أحببناه لأنَّه قال ما لم نجرؤ على قوله، فقد كُنَّا نقرأه ونحن نُمسك الكتاب بأيدٍ مكبَّلَةٍ بالأصفاد، وأعيننا تراقب مرعوبةً نظرات الآخرين إلينا. فعلَ ما تمنَّينا فِعله ولم نفعله لأنَّنا جبناء. دافع عن شرف الأرامل في مواجهة مجتمعٍ منافقٍ وحقير. رقص أمام جثَّة ابنه لأنَّه لم يجد دمعًا ليبكيه. أكل من الكرز حتى تقيَّأ، علَّه يُشفَى من دوام رغبته فيه. تزوَّج بامرأةٍ على وشك الرَّحيل، كي يهديها فرحة مغادرة الحياة في ثوب الزِّفاف.

زوربا العجوز الذي وصل إلينا من الأولمب منهك القوى، حاملًا شعلةً في قلبه لا بيده، لا كالأبطال الأسطوريين، ولكن كإنسانٍ بسيطٍ، كيف حرّضت شعلته الأجيال على كسر أصفاد النِّفاق.

علَّمنا العجوز أنَّ بإمكان المرء أن يقول كلَّ شيءٍ رقصًا. فالرَّقص بكاءٌ، والرَّقص صلاةٌ، والرَّقص امتنانٌ، والرَّقص وفاء. الرَّقص نسيانٌ، والرَّقص إغراء واستخفاف بما أضعته عن غباء. الرَّقص احتضان لهدايا الحياة، ووداع لكلّ ما لم يمهلنا الوقت لنضمّه قبل المغادرة. لم يترك لنا زوربا من نصيحةٍ سوى أن لا نغادر حلبة الرَّقص.

أبي.. رأيتك تبكي، ورأيتك تكتب، وتخطب، وتغضب، وتطرب، وما رأيتك يومًا ترقص، وإن كان رقصة أبناء قسنطينة أو رجال «عيساوة». لماذا حتّى في جنونك لم تجرؤ على الرقص؟ من كبّلك؟

ربّما كنت ستشفى لو أدركت بأنّ لا شيء يستحق. كنت نفضت عنك غبار المبادئ التي أنهكتك، والعيون التي ترصّدتك، وخاصرت أنثاك الحياة وراقصتها في فالس مجنون لشتراوس، مستخفًّا بتلك القوارض البشرية التي التهمت حريّتك وأفراحك الصغيرة.

لأنّي ما رأيتك يومًا ترقص. لم أعرف في الحياة كيف أرقص إلّا على استحياء. اكتشفت أنّك أطلقت يَديّ لكنّك كبّلت قدمَيّ، ولم تُبق لي إلّا خيار «الرَّقص بالكلمات» لهذا رقصتُ في كلّ كتبي، وراقصت كلّ أبطالي. خالد، زياد، طلال، حياة، هالة، كلّهم كانوا أنا.

الفصل الرابع

«في الماضي حتّى المستقبل كان أجمل».

كارل فالونتان

يحزنني أنَّك لم تطالع نفسك في تلك الرِّواية التي يتصرَّف فيها البطل بعكس ما يتوقَّع منه الآخرون.

ولكن ما حاجتك إلى «زوربا» ليعلِّمك الحياة؟ كنت بطلًا خارج الرِّوايات، كشاعرٍ يختار لقافيته كلماتٍ غير تلك المتوقَّعة. في كلِّ ما فعلته كنتَ مباغِتًا وفريدًا، كما عندما لم يصدِّق المكتبيُّ أنَّك ستعود حقًّا لتشتري كلَّ مكتبته، ولكنَّك عدت. ذلك لأنَّ خروج الكلمة لديك يعادل خروج الرُّوح، ولا عودة عن كلمةٍ قلتَها.

لم يكن من أحدٍ في المكتبة حين تحدَّيته بشراء مكتبته كاملةً، وكان لديك من الوقت الذي قضيته في الطَّريق ما يكفي لتتراجع عن رأيك وتُصغي إلى صوت عقلك، ولكن لم يكن يعنيك أنَّ البائع رجل بسيط ولا أنّـه لا يعرف من تكون. لم يكن استحياؤك منه بل من نفسك. كرجال جيلك، كانت كلمتك تساوي شرفك. ماذا كنت ستقول لو تابعت اليوم نشرات الأخبار العربية، ورأيت الذين لهم كلَّ يومٍ

قول في التلفزيون، ويكذبون أمام الملايين ولا يستحون، ويعِدون ولا يفون؟!

تمامًا كيوم وعدتَ أمّي بأن تخلع الحايك، أو «السَّفساري» كما يسمّونه في تونس، عند استقلال الجزائر. كنت مناضلًا في حزب بورقيبة، وكان من طبعك أن تطبِّق ما تنادي به، كإعطاء المرأة حقوقها.

لم تكن أمّي آنذاك لتجرؤ على طلب ذلك، هي التي لم تستطع أن تناديك يومًا باسمك، أو تلفظه أمام أحد. كان اسمك «هو» وكان الآخرون يعلمون أنَّ «هو» يعني: الشَّريف.

أنت من قلت أمام الأصدقاء، في حضور نسائهم السَّافرات، إنَّ «حوريَّة ستخلع الحايك يوم استقلال الجزائر». ربّما لم تكن متحمِّسًا كثيرًا للأمر وكنت تماطل متذرِّعًا بالثَّورة، ولكن...

غداة الاستقلال، كنتَ قد سبقتنا إلى الجزائر لتؤمِّن لنا شروط الانتقال للإقامة في العاصمة. التحقنا بك بالسَّيَّارة التي كان يقودها سيدي عزّ الدِّين، العائد لتوِّه آنذاك من روسيا ضابطًا في الطَّيران العسكريِّ. كانت الحكومة المؤقَّتة، ببعد نظرٍ سياسيٍّ، ارتأت في السّنوات الأخيرة للثّورة، تحويل الجرحى من المجاهدين المتعلّمين، إلى ساحة أخرى للمعركة، استعدادًا لما بعد الاستقلال. فأمّنت لهم عدَّة منحٍ لبعثاتٍ دراسيَّةٍ في كلِّ المجالات في الخارج، وفق مستواهم الدِّراسيِّ واهتماماتهم، بما في ذلك في مجال البترول أو الذرّة. حتّى إنَّ خالتي بديعة، بعد سنتين من التحاقها بالثَّورة، أرسلَتها الجبهة إلى أمريكا للدِّراسة ضمن بعثة تونسية. ما كان الأمر يومها يحتاج إلى واسطة، كانت الغيرة على مستقبل الجزائر تقود قرارات الجميع.

أذكر أنّ سيدي عزّ الدّين قال لأمّي: «اخلعي الآن الحايك... إنْ دخلتِ به البيت لن تخلعيه أبدًا».

فاجأها قوله. تردَّدت في خلع الحايك الحريريِّ الأبيض الذي كانت تلفُّ به نفسها منذ خمس عشرة سنة. ناقشته لبعض الوقت، ولكنَّه أقنعها حين ذكَّرها بأنَّ بديعة سافرة، وأنَّك وجدت هذا طبيعيًّا.

رأيتُ أمّي تنهض بعض الشَّيء عن مقعدها، وتسحب الحايك من تحتها، وتقوم بثنيه عدَّة مرَّات ووضعه في حجرها.

كنَّا، أنا وإخوتي الثَّلاثة نجلس في الخلف مبتهجين، لا نعي تمامًا أنَّنا ندخل بلادًا هي وطننا، ومدينةً ستغدو مدينتنا، سنقضي فيها صبانا وشبابنا. وكانت أمّي تجلس بجانب خالي، ممسكةً بالحايك، وقد صمتت فجأةً بعد أن كانت تتبادل معه أطراف الحديث طوال ساعات الطَّريق. لعلَّها كانت تفكِّر في هذا القرار المفاجئ الذي أقدمت عليه. لقد كانت في قسنطينة تضع الملاية السَّوداء، وفي تونس خلعت الأسود لترتدي الحايك الأبيض على الطَّريقة التُّونسيَّة الأنيقة، وها هي تدخل الجزائر دون اللَّونين، بثيابها العصريَّة التي كانت ترتديها تحت الحايك.

تأقلمت أمّي تدريجيًّا مع مظهرها الجديد، مستجيرةً بملايين النِّساء اللواتي كنَّ في القاهرة وبغداد وبيروت والشَّام وتونس وكلِّ العواصم العربية يرتدين ثيابًا عصريَّةً لمزاولة وظائفهنَّ أو لمتابعة دراستهنَّ، وكنَّا نشاهدهنّ على التِّلفاز يحضرن حفلات أمِّ كلثوم، ويتابعن خطب عبد الناصر، ويخرجن لاستقبال بورقيبة في مظهرٍ لا يقلُّ أناقةً عن مظهر زوجته وسيلة.

أمَّا أنتَ، فظنِّي أنَّك احتجتَ إلى أيَّامٍ لتستوعب عادة أن تراها تغادر البيت إلى السُّوق سافرة، ولكنَّك تقبَّلتَ الأمر، من باب احترام

كلمتك، وإيهام نفسك أنَّك لست من خلع عنها الحايك، بل الثَّورة. كانت عشرات المجاهدات اللواتي تركن دراستهنَّ والتحقن بالثَّورة قد نزلن من الجبال في زيِّهنَّ العسكريِّ، وخلعنه ليرتدين ككلِّ الفتيات آنذاك، زيًّا عصريًّا. فلم يكن الحجاب قد ظهر في أيِّ بلدٍ عربيٍّ بعد.

إحداهنَّ خالتي بديعة التي اختارت أن تلتحق بالجبهة بدلًا من الجامعة. كانت لها صورةٌ شهيرةٌ تظهر بها في البرامج الوثائقيَّة في زيٍّ عسكريٍّ حاملةً بندقيَّة. وبينما كانت أمّي مقمَّطةً في حايكها الأبيض، كانت هي وصبايا جيلها، كجميلة بوحيرد وجميلة بوباشا وجميلة بوعزَّة، يتنقَّلن في زيِّهنَّ العصريِّ بأناقةٍ تجعلهنَّ يبدون أوروبيَّات، حتى إنَّ منهنَّ من وُظِّفَت لخداع العدو ونقل المتفجِّرات.

أذكر أيضًا جارتنا شريفة في الشُّقَّة المقابلة لنا، وهي سيِّدةٌ خدومٌ، ذات شخصيَّةٍ قويَّةٍ بهيئةٍ عصريَّةٍ وشعرٍ أشقر مصبوغ، كانت تعمل ممرِّضةً تعالج المجاهدين في الجبال، وتزوَّجت بعد الاستقلال بأحدهم، ولكنَّها لم توفَّق في خيارها إذ تحوَّل البطل الوسيم إلى سكِّيرٍ، تهتزُّ على وقع شتائمه البناية، ويسبقه صراخه في الشَّارع كلَّما عاد ليلًا، فتنزل المسكينة بثياب البيت مسرعةً لتُصعِدَه إلى الشُّقَّة طابقًا طابقًا وهما يواصلان الشِّجار بلهجةٍ شاويَّةٍ لا يفهمها سواهما.

كنتَ مدينًا لجارتنا تلك بإنقاذك من محاولة اغتيال. فهي التي طاردت الرَّجل المسلَّح الذي كان يترصَّد عودتك من العمل ليلًا.. كان ينتظر عند باب السَّطح ليطلق عليك النَّار لحظة خروجك من المصعد. لكن حدث أن انطفأ عدَّاد الكهرباء حال وصول المصعد إلى طابقنا، وكانت هي من خرج منه، فوجد نفسه أمام مجاهدةٍ أكثر احترافيَّةً منه، ففرَّ قفزًا على الـدَّرج، وما كان منها إلّا أن لاحقته من الشُّرفة بصفَّارةٍ كانت معها، لتنبِّه البوليس والمارَّة إليه... ولكنَّه نجا!

ما آلمك في تلك الحادثة، هو أن يتحوَّل خوفُ جارتنا مدام كوزيت التي لم تغادر شُقّتها ليومين، لاعتقادها بأنَّها المستهدفة، لكونها زوجة ضابط فرنسيّ سابق، إلى تهكُّمٍ وشماتة حين علمت أنَّ الأمر اقتتالٌ بين الجزائريِّين، وأنَّ القاتل كان يريد رأسك أنت. شماتة العدوّ كانت بالنسبة إليك أكثر فتكًا من رصاص الجزائري.

***

«كنا أثرياء بدهشتنا، والمصعد يحملنا إلى فوق...
حيث لم يصل أترابنا».

لم نكن نعرف بعد ما كانت تخبِّئه لنا تلك البناية من قصصٍ ومفاجآت. كانت أوَّل عهدنا بالمباني العالية، فقد كان بيتنا في تونس فيلًا صغيرةً من طابقٍ واحدٍ وحديقة.

حططنا الرِّحال ببهجة الأطفال وفضولهم. وجدناك في انتظارنا. كان أوَّل ما لفت نظرك منظر أمّي سافرة.

قال خالي على استحياءٍ ممازحًا:

– عرفتها؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

وقبل أن تجيبه علَّقتْ أمّي مبرِّئةً نفسها:

– ألم تقل لمّا تستقل الجزائر نحِّي الحايك؟!

أجبتَها وأنت تحمل بعض متاعنا:

– عُمْرَكْ ما نسِيتي حاجة سمعْتيها!

استقبلَنا مصعدٌ مهيبٌ مسيَّجٌ بالحديد الأسود وكأنَّه مقامٌ لحاكمٍ أو لوليٍّ صالح. كانت رؤية ذلك القفص الخشبيِّ الضَّخم، ذي الباب الحديدِيّ، الذي يُسحَب باليد كما آلة الأكورديون، حدثًا مشهديًّا في خيالنا الطُّفوليِّ، وقبل أن نتسابق لدخوله، خرجت سيِّدةٌ

من بابٍ غير بعيدٍ عن المصعد، وتحدَّثت إلينا بالفرنسيَّة. استنتجنا من نبرتها غير الودِّيَّة أنَّها كانت تعطينا تعليمات. كانت تسأل إن كنَّا نحسن استعمال المصعد.

أجبتَها بنبرةٍ صارمة:

– أنا أعمل في قصر الحكومة وأستعمله يوميًّا.

كانت تلك طريقتك في إخبارها بأنَّ الأمور قد تغيَّرت، وبأنَّه ليست البناية وحدها ما عاد إلى الجزائريِّين، بل قصر الحكومة أيضًا.

ارتبكت السَّيِّدة بعض الشَّيء، وظلَّت منتصبةً في انتظار صعودنا، كما لو أنَّها كانت تتوقَّع حدوث أمرٍ ما. لاحقًا عرفتُ أنَّها حارسة البناية، إذ لم أكن أتصوَّر أنَّ البنايات تحتاج إلى حرَّاس.

كانت أوَّل أوروبِّيَّةٍ نصادفها بعد وصولنا، وبدايةَ أوَّل سوء فهمٍ وتفاهمٍ سيدوم طويلًا، وسيدور غالبًا حول «مولانا المصعد»، المنحدر من سلالة Otis، أوّل شركة عالمية أنتجت مصعدًا في القرن التاسع عشر.

انطلق المصعد، حاملًا الدُّفعة الأولى من عائلتنا ومتاعنا، إذ لم يكن يتَّسع لنا جميعًا، وانتظرتُ مع أمّي وأختي عودته، لنصعد بدورنا محمَّلاتٍ بأغراضنا.

كانت له سلاسل حديديَّةٌ سوداء ضخمةٌ، تسحبه إلى أعلى فيصعد، ثمَّ تسبقه إلى أسفل فينزل، ويحطُّ في الطَّابق الأرضيِّ. وكان عليك أن تغلق بابه الخشبي لينطلق، وألَّا تستعجل فتحه فيتوقَّف بك، أو تحمِّله أكثر من الحمولة المسموح بها فيتعطَّل.

كان المصعد دهشتي الأولى، وهو يصعد بنا لأوَّل مرَّةٍ طابقًا بعد آخر، إلى الطَّابق الخامس نحو حياتنا الجديدة.

ثمَّ... سنةً بعد أخرى، وأنا أكبر، غدا المصعد المرصدَ لوطنٍ كثيرًا ما توقَّف به التَّاريخ بين طابقين.

***

«على الكاتب واجب أن يتحدَّث عن الذي سيختفي معه».

أوليفييه رولان

كان الحمام في انتظارنا، خلف النَّوافذ المغلقة، ولكنَّه طار مذعورًا من أصواتنا. لم يفهم ما كان يحدث، فلأوَّل مرَّةٍ كانت «الجدران بتتكلم عربي».

ربَّما احتلَّ الشُّرفة مطمئنًّا لخلوّ الشَّقَّة، كحال الكثير من الشُّقق التي غادرها أصحابها آنذاك على عجلٍ إلى فرنسا، تاركين خلفهم ما ثقلَ وزنُه.

رآنا ندخل البيت ببهجة الفاتحين، نستكشف عالمنا الجديد فرحين، نتنقَّل بين الغرف، نتقاسم الفضاء، نحدِّد مواقعنا، نعلِّق على ما تقع عليه أعيننا ضاحكين أو متعجِّبين، نتأمَّل أشياء يشي الإهمال والغبار بيتمها، أشياء تبوح بحياةٍ سابقة، بذكرياتٍ تأخَّرت في المغادرة.

أبــواب تـفـتـح دون عـنـاء، جـاهـزة لاسـتـقـبـال غـربـاء سيغدون أصحابها.

غرفٌ عالية السقوف، في شقّة بمقاسات مقام من سكنوها.

أذكر، كان في غرفة الجلوس مدفأة جداريّة من رخام، ما زال فيها حطب

ومشاعر خمدت.

سبقَنا الغبار. هو أوَّل من استولى على ذاكرة من غادروا، أوَّل من وضع يده على ما كان لهم، وكفَّن بطبقةٍ رماديَّةٍ ما كان يصنع سعادتهم، وتمنَّوا لو أنَّهم ما تركوه لنا، بل له. فالغبار لا يغيِّر أماكن الأشياء، ولا يشمت بأصحابها، ولا يهين حاجات الغائبين أو يبيعها. الغبار حارسٌ أمينٌ، يحرس الرَّخيص والثَّمين من الأشياء، في انتظار أن يأتي من يمسحه عنها ويمتلكها.

كان من سكن الشَّقَّة قبلنا مهندسًا عسكريًّا، ترك خزائن بجوارير صغيرةٍ كثيرةٍ تضمُّ خرائط وأوراقًا هندسيَّةً ومنظارًا وأجهزة قياس، وترك أيضًا خيمةً عسكريَّةً وأحذية ميدان. تخلَّصنا من أشياء كثيرةٍ، أبى أبي أن يحتفظ بها أو يدقِّق فيها. أمَّا أمّي ففازت بماكينة «سنجر» للخياطة وبمكواةٍ وبزادٍ من الخيطان، وبمجموعةٍ كبيرةٍ من مجلَّاتٍ نسائيَّةٍ مرفقةٍ بموديلاتٍ ورقيَّةٍ جاهزةٍ لتفصيل فساتين وثيابٍ حسب المقاييس والموضة. منذ تلك اللحظة أصبحت تنتظر صدور Mode et Travaux أوَّل كلِّ شهر.

كان واضحًا أنَّ المرأة التي سكنت تلك الشُّقَّة كانت أنيقةً ومولعةً بالموضة. تمنَّت أمّي لو عثرت لها على صورة، ولكنَّ الصُّور هي أوَّل ما يضعه المغادرون في حقائبهم.

في غمرة فوضى تقسيم الغنائم، فزت بغرفةٍ صغيرةٍ لي وحدي، بصفتي كبرى إخوتي. شعرت أنّ استقلالي كان مزامنًا لاستقلال الجزائر. كانت الغرفة بسقفها العالي تبدو مضيئةً، وأكبر ممَّا هي عليه، وفي كلِّ الحالات، كانت تمامًا ما سأحتاج إليه لاحقًا للهروب إلى نفسي.

أبهرني الفضاء الشَّاسع وأنا أفتح النَّافذة بلهفة الفضول، واجهتني حديقةٌ بديعة التَّنسيق، تحفُّها من الجانبين أشجارٌ باسقة،

وتبدو من الأعلى وكأنَّها مرسومةٌ باليد بفضل التَّنسيق الجميل لأزهارها الزَّاهية، يتوسَّطها نصبٌ حجريٌّ ضخم. كانت الشُّرفة تمتدُّ على واجهتين للبناية، مطوِّقةً كلَّ النَّوافذ على طول الشَّقَّة. على اليمين، لمحت مبنًى ضخمًا مهيبًا سأعلم لاحقًا أنَّه قصر الحكومة، وعلى أقصى الطَّرف الآخر للشُّرفة، رأيت بواخر ضخمةً راسيةً في حضن البحر.

لم أُطل النَّظر، فقد فاجأني الدُّوار. كنت أصغر من أن أدرك أنَّني أقف على شرفةٍ تطلُّ على مسرح التَّاريخ، وأنَّ التَّاريخ سيغدو جاري، أو على الأصحِّ، رجلَ حياتي، يرافقني في كلِّ المراحل. سأعرف ذلك متأخِّرةً، فالتَّاريخ حدثٌ متأخِّر، لا يعلن عن نفسه إلّا بعد أن يكتسي هالةَ الماضي.

كان وجودنا هناك في عصمة التَّاريخ محض مصادفة. لم يكن لديك من الوقت ما يكفي لتزور شققًا وتفاضل بينها. اخترت هذه الشَّقَّة التي دلَّك عليها صديقك إبراهيم حشاني لتكون قريبًا منه ومن مقرِّ عملك في قصر الحكومة. كان يكفي أن تعبر الشَّارع إلى الرَّصيف المقابل لتصل إلى مكتبك. وهكذا، ما كانت لك حاجةٌ إلى أن تحجز السَّائق إلى حين مغادرتك المكتب في ساعةٍ متأخِّرةٍ غالبًا.

بطبعك كنت ترأف بمن مهنتهم الانتظار، احترامًا لهم وللوقت، وترى أنَّ وضع أحدٍ في حالة ترقُّبٍ لساعاتٍ داخل سيارة، ضربٌ من الإهانة، وهو طبعٌ أورثتنيه دون علمك، ومنعني حتى اليوم من الاستعانة بسائق، مع أنَّني أجهل القيادة.

لم تفكِّر البتَّة في تفاصيل الشُّقَّة، ولا في ما قد يعجب أمّي أو يزعجها فيها. لا مشكلة إن كانت في الطَّابق الخامس ما دام ثمَّة مصعد، ولا إن ضاقت بنا وبضيوفٍ سيتردَّدون إلينا مضطرِّيننا، نحن

الصِّغار، إلى النَّوم أرضًا، ولا إن كانت بعيدةً بعض الشَّيء عن المدارس ما دامت الطُّرقات آمنةً والشَّوارع المحيطة فارغةً تقريبًا من المارَّة.

***

«قد يأتي الحبُّ كرفيقِ مصادفة، مستدلًّا عليك وسط الزِّحام،
ذلك لأنَّه يصل عندما تكون مزدحمًا بكلِّ ما عداه».

كان المشوار إلى المدرسة ممتعًا. اعتدت أن أستيقظ بحماسٍ وسعادة. كنت أعجب كيف أنَّ الشَّوارع الشَّاسعة فائقة النَّظافة، ومبلَّلةٌ أيًّا كان الفصل، ولا أفهم متى أمطرت، إلى أن شاهدت ليلًا من الشُّرفة شاحنةً ضخمةً تحمل خزَّان مياه، تعبر مزوَّدةً بمضخَّاتٍ أماميَّةٍ وأخرى جانبيَّةٍ، تقوم بغسل الطُّرقات. عجبت حين أخبرتَني أنَّهم يغسلون ليلًا الشَّوارع بمياهٍ يأتون بها من البحر.

كان ذلك يوم رافقتني باكرًا في أوَّل دخولٍ مدرسيٍّ، لتلتقي معلِّمتي التي طلبت حضور أهالي التَّلاميذ.

كنتُ مزهوَّةً برفقتك، مهيبًا بقامتك الفارعة، وبدلتك الرَّسميَّة التي لم أرك إلّا بها، ومشيتك الحازمة، فقد كانت الحياة داخلك جارفة، وكانت لك طلَّةُ أبناء العزِّ القسنطينيِّ، وملامح واثقة ومُطمئِنة، وبشاشة تغطِّي جدِّيَّةَ جبينك العالي.

لعلَّك أكثر من ناقش «مادموازيل نارديني» في تفاصيل المنهج الدِّراسيِّ. بل أظنُّك الوحيد الذي حضر من الآباء. فلم يكن هناك سوانا ذلك الصَّباح. لذا طال الحديث وتشعَّب بينكما. رأيتك متحمِّسًا وسعيدًا، وكانت هي مهتمَّةً ولم تبدُ على عجل.

أمام إعجابها بطلاقة لسانك الفرنسيِّ، أخبرتها أنَّك كنت مدرِّسًا للّغة الفرنسيَّة في تونس. سألتكَ إن كنت ما تزال تمارس التَّعليم،

أجبتَها أنَّك الآن مكلّفٌ بمهمّة في رئاسة الجمهورية. أبدت اهتمامًا خاصًّا بي بعد ذلك، خاصَّةً بعد أن أرسلتَ إليها كتابًا هديَّةً معي.

لم أعرف ما هو، فقد وضعتَه في ظرفٍ، ربَّما كعادتك الإداريَّة في وضع كلِّ ما يخصُّك في أظرفةٍ، وربَّما كان هناك ما لم تُرِدْ أن أقرأه.

ازدادت لطفًا معي، وصارت تسألني عن تفاصيل عطلتي، وعن عدد إخوتي، وكيف أقضي وقتي، وفي الدَّرس تجلس بثوبها الأنيق الفضفاض على طرف طاولتي، وهي تملي علينا نصًّا أو تقرأ لنا قصيدة، فأشعر بزهو إيثارها لي، وأنتشي بعبق عطرٍ أوروبيٍّ يتشبَّث شذاه بي.

تعلَّقتُ بتلك المعلِّمة ذات الشعر الأشقر المنساب. كانت بشوشةً ولطيفةً، وكنت أتخيَّلها فراشةً تتنقَّل وسط مروج الزُّهور بين مقاعدنا. ظننتها فرنسيَّةً، لاعتقادي أنَّ كلَّ الشَّقراوات فرنسيَّات، ولكن علمت لاحقًا أنَّها بلجيكيَّة. لم أكن أعرف الفرق، ولا حتّى أين تقع بلجيكا أو فرنسا.

في الواقع، وجدت الجزائر نفسها غداة الاستقلال أمام تحدٍّ لم يعرفه أيُّ بلدٍ في التَّاريخ، فغداة 5 جويلية سحبت فرنسا 17000 مدرِّسٍ وهي تغادر، تاركةً حفنةً من المدرِّسين فحسب. ولم يكن أمام الجزائريِّين سوى شهرين لتأمين الدُّخول المدرسيِّ في سبتمبر. هكذا، نزل الجزائريُّون من الجبال وانطلقوا يجوبون البلدان، متوسِّلين العالَم أن يُنجدهم بمدرِّسين.

قصد فريقٌ يترأَّسه عبد الحميد مهري الشَّرق، وعاد بمدرِّسين من مصر وسوريا والعراق والأردن، بعضهم لم يزاول التَّدريس قَطُّ، إذ لم نكن متطلِّبين ولا صارمين في شروطنا، والجميع جاء بحماسٍ كبيرٍ حبًّا بالجزائر، بعد إعلان بن بلَّة في خطابٍ تاريخيٍّ قرار تعليم اللغة العربيَّة لأوَّل مرَّةٍ ضمن المنهاج الدِّراسيِّ. لغةٌ مُنع الجزائريُّون لأكثر

من قرنٍ من تعلُّمها، بعدما سنَّت فرنسا قوانين جائرةً لإبادة العربيَّة واستئصالها من وجدان الجزائريِّين وحياتهم اليوميَّة. بينما قدَّم فريقٌ آخر ضماناتٍ لفرنسا وكندا وبلجيكا، وعاد بمدرِّسين فرنكوفونيِّين.

بعد عامٍ من الاستقلال، انطلق أخيرًا قطار التَّعليم الذي تولَّاه مدرِّسون تقاطروا من كلِّ حدبٍ وصوب... ليقودوه في كلِّ اتِّجاه!

***

«دافعْ عن أبطال قصص طفولتك، لأنَّهم لن يتخلَّوا عنك حين تكبر».

بفضل مدموازيل نارديني، وقعت في حبِّ اللغة الفرنسيَّة. حفظت عن ظهر قلبٍ كلَّ الأشعار والأغاني المدرسيَّة، وعشقت كلَّ قصص الكتب الزاهية الصّور التي كانت تعيرني إيَّاها من مكتبة المدرسة، وكنت أقضي سهراتي في تأمُّل صور أبطالها بانبهار، مقتنعةً بأنَّهم حقيقيُّون.

القصص التي نقرأها أطفالًا قبل النَّوم، لا تفارقنا كبارًا. إنَّها تغفو في لاشعورنا، وتستيقظ مع العمر عند منعطفات الحياة.

بسبب «سندريلا» أصبحت أختار أحذيتي بنوايا عاطفيَّة، تاركةً للحبِّ أن يشقى قليلًا في البحث عنِّي. لم أحزن على قدَر «الجميلة النَّائمة في الغابة» بشعرها الأشقر المنساب على العشب، بل آمنت بمعجزة القُبَل في بعث الحياة، وبالمصادفات الصَّغيرة التي تبدِّل أقدارنا الكبيرة. وبدلًا من أن أحارب السَّاحرات الشِّرِّيرات اللّواتي سيحطن بي طوال مساري الأدبيّ، تركتهنَّ لكيدهنَّ، إذ تعلّمتُ من قصص طفولتي أنّه لم يحدث للأشرار أن فازوا في نهاية القصَّة.

ولكن في نهاية السَّنة، استيقظتُ من أحلامي الورديَّة، لا بقبلةٍ سحريَّةٍ، بل بقرارٍ منك يقضي بنقلي إلى أوَّل مدرسةٍ ابتدائيَّةٍ بالعربيّة افتتحت للبنات.

طلبت المدرِّسة لقاءك لمناقشتك في قرارك الذي فاجأها ولم تر له منطقًا، فقد كنت متفوِّقةً في اللغة الفرنسيَّة، وسيكون من الخسارةِ أن أتركها. لم تفهم وقد تحدثتَ إليها بفصاحة ملفتة، كمن درس الفرنسية ودرّسها، أن تنحاز للغة أخرى. لم تخبرها بأنّك حُرمتَ طوال حياتك من تعلُّم العربية، وتريدني أن آخذ بثأرك اللُّغويِّ... أنا نفسي لم أكن أدري بهذا!

كان اسم المدرسة «الثّعالبية». عرفتُ أنّها سمّيتْ كذلك نسبةً لسيدي عبد الرحمن الثعالبي، عالم زمانه وأحد أقطاب التّصوف الذي جعل من مدينة الجزائر مركزًا للإشعاع العلمي، حتّى أنّ العاصمة اقترنت باسمه إذ تُسمّى «مدينة سيدي عبد الرحمن». كانت المدرسة ملاصقةً لزاويته حيث يوجد ضريحه، كانت تحفة معمارية متفرّدة تفنن المعماريون في تنسيق ردهاتها وأعمدتها وأسقفها بزخرفٍ عربيّ أندلسيّ راقٍ، ولم نكن سوى قلّة في صفوفها.

لم أتحمَّس لانتقالي إليها لبُعدها، ولا أردت الانتقال إلى لغةٍ لم أكن قد تعلَّمت منها شيئًا على الإطلاق. ثمَّ إنَّني كنت متعلِّقةً بمادوموازيل نارديني ولم أُرد أن أفارقها، فقد كانت تحبُّني، وربَّما كانت تحبُّك أيضًا. هذا ما شعرتُ به وهي تتحدَّث إليك بارتباكٍ جميل في أشياء لم أفهمها. ولعلَّك بدأت بدورك تميل إليها. أتُراك قرَّرتَ بعد مغادرتي المدرسة إيقاظ الجميلة النَّائمة في الغابة؟ لا أظنُّك ذهبتَ إليها يومذاك لتناقشها في قرارك، أنت الذي لا رجعة في قراراتك.

بعد فترة، قلتَ إنَّ معلِّمتي السَّابقة تريد أن تطمئنّ عليَّ، وإنَّه بسبب تطابق أوقات دوامينا المدرسي، لا مجال للقائي بها إلّا يوم عطلةٍ في البيت. لم أجرؤ على سؤالك كيف ما زلت على تواصل معها؟

ذات أحدٍ، زارتنا «الأميرة النَّائمة في الغابة». لا أدري إن كنتَ من أيقظها، ولكنَّ الأكيد أنَّك أيقظتَ شكوك أمّي بإتيانك بها.

استقبلتها أمّي بكلِّ أناقتها، وبفيض حفاوةٍ كردٍّ فعلٍ عكسيٍّ، مع أنَّها اشتمَّت فيها رائحةً لا يمكن لأنفها أن يخطئها، ثمَّ انسحبت وتركتكما. سعدتُ كثيرًا برؤية مادوموازيل نارديني. بدت لي مختلفةً عن تلك التي كنت أراها في المدرسة، بدت أجمل. جاءتني بكتابٍ جميل، في طبعةٍ فخمةٍ وصورٍ كبيرةٍ شغلت خيالي طويلًا. تلك القصَّة ستصنع أسئلتي، وربَّما تعاستي حين أكبر.

ذلك لأنَّني لن أفهم يومًا سرَّ ذهاب العشَّاق إلى الحبِّ حُفاةً، تاركين عقولهم مع أحذيتهم عند عتبة الجنون، وكأنَّهم ذاهبون إلى حيث لا رجعة، ولا لماذا ارتبط الحبُّ بالحفاء، والأقدام المشقَّقة، والخطى التَّائهة.

قصَّة «سندريلا» التي جاءتني بها مادوموازيل نارديني هديَّةً مع علبة شوكولا، شغلتني أسئلتها بقدر ما شغلت أمّي تساؤلاتها عن «الجميلة النَّائمة في الغابة» التي جئت بها إلى البيت. ولكنَّها لم تُبد استياءها إلّا أمامي.

– لماذا جاء بهذه ما دامت لم تعد تدرِّسك؟!

أجبت بأوَّل فكرةٍ خطرت في بالي:

– بابا يحبُّ استقبال النَّاس... ثمَّ إنَّه فرِحٌ بالصَّالون الذي اشتراه...

هنا انفتحت شهيَّة أمّي على موضوع الصَّالون.

– هل رأيتِ أحدًا فعل ما فعله أبوكِ؟ باع بيتًا ليشتري بثمنه صالونًا...

ذكَّرتها بما سبق أن قالته، بأنَّ الجزائريِّين اضطرُّوا غداة الاستقلال إلى بيع ممتلكاتهم في تونس بأسعارٍ زهيدةٍ وهم يغادرون، فضلًا عن أنَّه كان بيتًا صغيرًا، اشتراه أبي بعد أن أقمنا لسنواتٍ في دار الباي بحمَّام الأنف، كلفتة طيِّبةٍ من الحزب الحرِّ الدُّستوريِّ البورقيبيِّ الذي كان أبي مناضلًا فيه. قلت:

– هذا كلُّ ما اشتراه أبي لأنَّه في حاجةٍ إلى صالونٍ لاستقبال أصدقائه وزملائه، ولو أنَّه اشترى صالونًا بائسًا هل كنت لتقبلين بذلك؟!

ربَّما منذ ذلك الحين بدأتُ مهمَّة الدِّفاع عنك أمام انتقادات أمِّي، التي لم تكن تجرؤ على مواجهتك بها، فكانت تستفرد بي وتتلوها عليَّ.

في سنِّ الحادية عشرة غدوتُ محاميتك. تمامًا كما كنتَ أنت تُحامي عنِّي، كلَّما صادفتَني في دور سندريلّا، منكبَّةً على مسح الأرض أو غسل الثِّياب على لوح في مغطس الحمَّام، فتقول لأمِّي بنبرةٍ آمرةٍ: «هذه لم تُخلَق لهذا»، فأسارع إلى غسل يديَّ والمضيِّ سعيدةً منتصرةً إلى غرفتي.

كان لأمِّي من يساعدها، لكنَّها كانت تريد أن تُعدَّني لأكون «ستَّ بيت»، أمَّا أنت فكنتَ تعدُّني لقدَرٍ آخر، ولا تريد أن أفعل بيديَّ شيئًا غير الكتابة.

أردتني امرأةً لغير الأشغال المنزلية، حتى لا تخدش يداي. أخطأتَ، لا شيء يدمي كقلمٍ في يد امرأة. شيئًا فشيئًا، أصبحتَ السَّاحرة التي أنقذت سندريلّا من أشغالها الشَّاقَّة، وأهدتها عربةً ذهبيَّةً تجرُّها الخيول، لتنطلق إلى موعدها مع القدَر. أعني مع الحبر.

عند أوَّل ضربةٍ بعصاك السِّحريَّة، استبدلت لي بستَّةٍ وعشرين حرفًا لاتينيًّا، ثمانيةً وعشرين حصانًا عربيًّا، لا لتُكسبني حرفين إضافيَّين، ولكن لأتعلَّم باكرًا الصَّهيل بأبجديَّةٍ عربيَّة.

لم أدرك إلّا لاحقًا أنَّك اخترت لقلبي لغته، وأنَّك بفارق حرفين هيَّأتَ لي قدري، فالأقدار الكبيرة تصنعها الأحرف الصَّغيرة. كأن تقول «لا» بدل «نعم» فيغيّر حرفان قدرَك.

في طفولتنا تتحكّم المصادفات الصّغيرة في ما سنكون عليه كبارًا، أعي الآن أيّ أثر كان على وجداني وجود مدرستي تلك بمحاذاة مسجد ووليّ صالح. فلقد اعتادت جدّتي لسنوات مرافقتي واصطحابي للصلاة معها، محمّلتين أحيانًا بسجاد أو هبات للمسجد، حسب التقاليد آنذاك، بعد أن عثرتُ في ذلك العنوان على مبتغاها. كلّ تربيتي الدينية كانت على يدها. وكلّ القصص العجيبة سمعتها منها، وكنت أظنّها لغرابة أسمائها خرافات حدثت في قلعة تدعى (آث عباس). حصنٌ منيع أقدامه في البحر ذو تضاريس مرتفعة، رجاله أشداء، اشتهروا بتطريز السّروج للفرسان، تناوب عليهم الغزاة لأنّ خليجهم كان ملاذًا للسفن، قاوموا غزو الأسطول الإسباني، ثم جاء المقراني الذي قاد ثورة شهيرة ضدالغزو الفرنسي. فعوقب السكان خلال القرن التاسع عشر بالتهجير القسري إلى كاليدونيا الجديدة في المحيط الهادي. إذ تمّ نقلهم على ظهر بواخر في رحلات شبيهة بتجارة الرقيق من السود إلى أميركا في القرنين الـ17 والـ18، وتوفي المئات منهم وهم في الطريق إلى المنفى، بسبب الظروف القاسية التي واجهوها في السفن الفرنسية، خلال الرحلات التي كانت تدوم شهورًا. ما زالوا إلى اليوم يعيشون في جزر على بعد 22 ألف كيلومتر

من وطنهم الأمّ. أمّا بعض من بقي، فثورة بعد أخرى توزّعوا داخل الجزائر وخارجها. وهكذا وصلت «امَّا الزّهْرَة» إلى قسنطينة.

أدركت حين كبرت أنّ جدتي كانت أمازيغية وأنّ «آث عباس» تعني بالقبائلية «بني عباس» وهي قبيلة من قبائل منطقة في بجاية المدينة التي كانت يومًا عاصمة الدولة الحمادية.

في الرابعة عشرة من العمر، عشت أصعب صدمة في طفولتي. ذات ليلة حنّت جدتي يديها، ونامت بجواري في مواجهة النافذة لتتحرّى هلال العيد الذي كانت تنتظره بترقّب غير عادي. حين استيقظتُ وجدتها قد رحلت.

بكيت كثيرًا، فقد احتضنت الموت طوال الليل من دون أن أدري.

أوّل ما كتبته، كان عنها. قيل لي لمواساتي إنّها كانت سيّدة خيّرة، تكفّلت بأيتام العائلة، وأنّ الله يحبّها لذا رحلت دون أن تتعذب، وهي حتمًا في الجنة.

الفصل الخامس

«كلَّما اشتدَّ بغضُنا صرنا أدنى ممَّن نبغضهم».

لاروشفوكو

في العام الثالث والثَّلاثين بعد المِائة، التقيتما.

بعد 132 عامًا على دخول البوارج الفرنسيَّة إلى الجزائر، وعامٍ بعدُ على خروجها منها مهزومةً، ها أنتما في أوَّل سنة استقلالٍ تدخلان صفَّ السَّلام معًا، لا على المقاعد الدِّراسيَّة، بل على الدَّرج.

ما من كلامٍ يمكن أن تتبادلاه عند اللِّقاء دون إشهار العداء. أمصادفةً طويتما الأدراج نفسها في وجهتين متعاكستين، وتقابلتما وجهًا لوجهٍ، أنت نزولًا وهي صعودًا، بعد أن انتهى كلُّ شيء؟

لكأنِّي بك فكّرتَ حينها في أنَّ التَّاريخ والجغرافيا تواطآ على حشركما معًا في مساحةٍ مشتركةٍ، وأنَّ طرقكما ستظلُّ أبدًا تتقاطع.

قلتَ بما اعتدت من أدبٍ وأنت تفسح لها الطَّريق:

– Bonjour madame.

أشاحت بوجهها عنك، ثمَّ بعد هُنيهةٍ من التَّردُّد هزمتْها تحيَّتك الفرنسيَّة، لأنَّه لا أحد حيَّاها في البناية سواك، فردَّت بنبرةٍ قاطعةٍ وكأنَّها تلقي عليك السَّلام من رشَّاش:

– Bonjour.

إنَّها زوجة ضابطٍ سامٍ في الجيش الفرنسيِّ خسر الحرب.

كانت مدام كوزيت جارتنا، تقيم في الطَّابق الرَّابع تحت شقَّتنا تمامًا. في الواقع، ليست كلمة «جارة» بالتَّسمية المناسبة، فكمُّ العداوة التي كانت تتطاير منها، كانت توحي بأنَّنا اقتحمنا بيتها وحوَّلناه إلى ثكنة.

لم تتقبَّل فكرة وجودنا في تلك البناية، التي كان يقيم فيها قبلنا ضبَّاطٌ وموظَّفون فرنسيُّون سامُون، يعملون في قصر الحكومة، فما بالك ونحن نقيم «فوقها»، في شُقَّةٍ كانت لأصدقاء غادروا على عجلٍ، تاركين إيَّاها لقدرها في مواجهة وجوهٍ عدائيَّةٍ ونظراتٍ لا تبرح تذكِّرها بأنَّها شخصٌ غير مرغوبٍ فيه!

السَّيِّدة السِّتِّينيَّة ذات القوام الممشوق، المتأنِّقة، المتعطِّرة دومًا، لا تحبُّ تقاسم المصعد مع «عربيٍّ». كلَّما وجدت أحدهم في انتظاره، فضَّلت أن تصعد أربعة طوابق على أن تقاسمه المصعد، خشية أن ينفرد بها. ولكنَّها بدأت تصادف هؤلاء «العرب» في كلِّ مكانٍ، حتى على الدَّرج.

استوقفتكَ نبرتها غير المهذَّبة، ولم يفتكَ أنَّ هناك كلمةً ناقصةً في ردِّها على تحيَّتك. كان يجب أن تقول «بونجور مسيو» كما تقتضي الأعراف، ولكنَّها احتفظت بكلمة «مسيو»، استكثرتها عليك. كيف لها أن تردّ بـ«سيِّدي» وهي لا تعترف لك ولا لبلادك بالسِّيادة؟ مع ذلك، ترفَّعتَ على الرَّدِّ عليها بما يضاهي عدائيَّتها وقلَّة ذوقها.

تعلَّمتَ من الأدب الفرنسيِّ الكياسة، ومن جرائم الاستعمار الشَّراسة، فقرَّرتَ أن تكظم غضبك، وتعدَّ لها ردًّا أكثر أذًى من الكلمات.

لن تسمع منك كلمةً بعد الآن. في الصَّمت إهانةٌ تفوق كلَّ ما يمكن أن يُقال، فالصَّمت أعلى درجات الاحتقار.

ألم يقل ديغول «وحده الصَّمت كبير»؟

ستعلن عليها حربًا بلا كلمات. خطرت ببالك رواية «صمت البحر» التي ضجَّت بها فرنسا حين صدورها، إذ خرجت كمنشورٍ سرِّيٍّ في زمن النَّازيَّة، عندما كان الألمان يرغمون الأُسَر الفرنسيَّة على استقبال جنودهم وضبَّاطهم ليقيموا لديهم، لعدم توفُّر أماكن للإقامة في بعض المدن والقرى. لكنّ إحدى العائلات قرَّرت أن تواجه الضَّابط النَّزيل لديها، لا بالرَّصاص ولا بالدَّم، بل بالصَّمت التَّامِّ، الصَّمت المُهين، بحيث تصبح أمنيته سماع كلمةٍ من أحد أفراد العائلة خلال إقامته، ولن يحصل عليها.

واصلت صعودها الدَّرج بشيءٍ من النَّشوة التي وجدت فيها عزاءها، فما زال بإمكانها أن تُشهر رَفْضَها وتقول ما تشاء. ما كان يشغل تفكيرها حقًّا، هو الشُّقق التي تفرغ من سكَّانها الفرنسيِّين، الذين كانوا جيرانها لسنوات، ليحلَّ محلَّهم جزائريُّون، مع أطفالٍ كثيرين يملؤون البناية ضجيجًا في أثناء دخولهم وخروجهم المتواصلَين، للَّعب في الشَّارع. كانت ترى في وجودهم انتهاكًا للمكان لا ينفكُّ يزيدها عزلة.

لم يبق في البناية سوى مدام تكسيه في الشُّقَّة المقابلة لها، وهي سيِّدةٌ مسنَّةٌ تعيش بمفردها، أُحيلت أخيرًا إلى التَّقاعد من وظيفتها كمسؤولةٍ في البريد المركزيِّ. ولكن، على قربها منها في المسافة، كانت بعيدةً عنها في الرُّؤية. فجذور مدام تكسيه لم تكن ضاربةً في أعماق الأرض مثل جذورها. لا قبور لأجدادها في الجزائر،

ولا زوج حارب لتبقى هذه الأرض فرنسيَّة، ولا أبناء تربَّوا ودرسوا هنا. هي جاءت قبل عشرين سنةً فحسب، مع من جاء من فرنسا، لأنَّ الحياة هنا جميلةٌ كما قيل لها، وكلُّ ما تريده الآن هو مواصلة ما بقي من عمرها بأمان، في بلادٍ كانت تفضِّل لو بقيت فرنسيَّة، ولكنَّها تتعلَّم التَّأقلم مع واقعها الجديد، فهي تحبُّها وتثق في خيار ديغول. ما كان من حلٍّ غير «سلام الشُّجعان».

أمَّا بالنِّسبة إلى مدام كوزيت، فإنَّ ديغول إعصارٌ مرَّ من هنا، مقتلعًا بكلمتين لفظهما كلَّ ما كان قائمًا، مدمِّرًا كلَّ ما بنته أجيالٌ من المعمِّرين. لقد خان الضُّبَّاط الذين حاربوا من أجل أن تبقى الجزائر فرنسيَّةً، وغدر بهم معلنًا استقلال الجزائر، وهي، كما زوجها، لن يغفرا له. تمنّت لو أنّه مات في إحدى محاولات الاغتيال التي تعرّض لها من قبل الضبّاط، الذين خيّروه بين أن تبقى الجزائر فرنسيّة، أو أن تنفصل عن فرنسا الأمّ تحت حكمهم.

إلى آخر لحظةٍ، ظلَّت مقتنعةً بأنَّ الجزائريِّين سيختارون عند الاستفتاء البقاء مع فرنسا.

هؤلاء الحمقى فضَّلوا الانفصال. فليعودوا إذن إلى همجيَّتهم.

ظلَّت الجدران تواصل الحرب. جدارٌ ضدَّ جدار. بعضها يحمل شعارات جبهة التَّحرير مطالبًا الشَّعب بأن يصوِّت على الاستفتاء بـ«نعم» للاستقلال «VOTEZ OUI»، وآخر بـ«VOTEZ NON»، وها قد أُضيفت إليها شعاراتٌ جديدةٌ كتبها الفرنسيُّون «الجزائر فرنسيَّةٌ وستبقى كذلك» بتوقيع (منظَّمة الجيش السِّرِّيِّ)، منظَّمةٌ فرنسيَّةٌ إرهابيَّةٌ تتوعَّد الفرنسيِّين الذين لم يغادروا بالقتل. أيُّ جنونٍ هذا! ألا يكفي عدوّ واحد!

مع كلِّ شجاعتها، سكنها الخوف. في الخارج، تخاف قنابل OAS المزروعة في قاعات السِّينما والمقاهي وفي كلِّ مكان، وفي البناية أكثر ما تخاف ذلك الجار السِّكِّير الذي يشهر تجاهها عداءً معلنًا، فهو من «الفلّاقة»، نزل لتوِّه من الجبال، بعد أن قتل ما استطاع من الفرنسيِّين.

ماذا تستطيع ضدَّ جبروت التَّاريخ وتقلُّباته، وهي تزداد سيرًا في حقلٍ مزروعٍ بالبغضاء؟ أكثر ما كان يؤلمها ما كان يتعرَّض له «جان»، ابنها، من سخريةٍ وتنمُّرٍ من قبل أبناء الحيِّ كلَّما نزل إلى الشَّارع. في الثَّلاثين من العمر، لم يكن في وُسعه الدِّفاع عن نفسه، لشيءٍ من التَّخلُّف العقليِّ عنده. لم يكن يغادر البيت بمفرده إلّا لشراء بعض الحاجيات من الحانوت المقابل للبناية، حاملًا قائمةً بما تريده أمُّه. كان هذا مبعث سعادةٍ له في الماضي، لأنَّ صاحب الحانوت كان يلاطفه بصفته ابن الكولونيل، ولكنَّ رجلًا آخر أخذ مكانه الآن، وهو يعاديه للسَّبب نفسه. غدا مشواره عذابًا لا يَفهم له سببًا، فهو كلَّما صادف أبناء الحيِّ متحلِّقين عند الباب، حيَّاهم متودِّدًا، فيسألونه ما الذي هو ذاهبٌ ليشتريه، وحين يطلعهم على الورقة التي كتبت عليها أمّه طلباتها يمزِّقونها، أو يخطفونها من يده ويهربون، ولا يستطيع إدراكهم، فيعود باكيًا ليسأل أمَّه: «لماذا يفعلون بي هذا؟»، فتحتفظ بالحقيقة وتجيبه غاضبةً: «ما كان يجب أن تحكي معهم... إنَّهم جرذان»!.

مع الوقت، أدركتْ أنَّها في حاجةٍ إلى أحدٍ من سكَّان البناية، يكون لها سندًا إن حدث مكروهٌ ما. ولكنَّها كانت قد خسرت الشَّخص الوحيد الذي يحترمه الجميع، والذي كان مؤدَّبًا معها، وأصبح

يتجاهلها ولا يردُّ على «بونجورها»، مع أنَّه ظلَّ ينهر أبناء الحيِّ كلَّما بلغه ما كانوا يفعلونه بابنها.

***

«الأمم تصاب بفقدان الذاكرة، لكنّ ذلك لا يدوم طويلًا».

نجيب محفوظ

ما كان يفصل بينكما ليس مسافة طابقٍ في بناية، ولا بضع درجاتٍ تنزلها أنت أو تصعدها هي، بل مسافةٌ تفوق قرنًا من الذَّاكرة المضادَّة، يحتاج كلاكما إلى فقدانها، كي تلتقيا بسلام. غير أنَّ هذا ليس ممكنًا، فلا هي قادرةٌ على النِّسيان، ولا أنت على الغفران.

فلتصبرا إذن ولينتظر كلٌّ منكما انهيار أحلام الآخر. هي إلى يومِ تراك نادمًا على رحيل فرنسا، وأنت إلى يومِ تراها متقبّلةً هزيمتها، وبأنَّ الزَّمن الذي كانت تفرض فيه أحكامها قد ولَّى، فهي اليوم مجرَّد مستأجرةٍ في بنايةٍ ما عادت لها.

ما كان يفرِّق بينكما ليس المسافة، بل الغاية.

في الطَّابق الخامس، أنت لا تنام، وحتى في نومك تفكِّر في ما عليك إنجازه.

وتحتك تمامًا، في الطَّابق الرَّابع، هي آرقٌ لا تنام، وحتّى في نومها تفكِّر في ما يمكنها إنقاذه.

أنت تعمل دون توقُّفٍ لأجل المستقبل، مستعجلًا بناء وطنٍ استعدته للتَّوِّ، وهي تستعيد الماضي دون توقُّف، لا تدري كيف عليها أن تتصرَّف، أتغادر أم تقاوم نداء البواخر؟ وإلى متى ستستطيع البقاء في «وطنٍ» صار لأعدائها.

كما في علاقةٍ عشقيَّةٍ، كانت مدام كوزيت تزداد حبًّا وكرهًا للمدينة، فتارةً تشعر أنَّها فقدتها فتحبُّها أكثر، وتارةً تكرهها لأنَّها ما عادت لها، وتشيح بنظرها عن كلِّ ما أحبَّت، وعن كلِّ ما عرفت وما عادت تتعرّف عليه.

غدت ملمَّةً بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في الحيِّ، وبكلِّ ما كان يجري في البلاد تقريبًا، هي التي بفضول امرأةٍ مطلَّقةٍ، مسكونةٍ بمتابعة ما آل إليه طليقها، كانت تتحرَّق إلى معرفة ما آلت إليه الجزائر بعد تطليق فرنسا.

ولكن ما كان يعنيها أكثر من سواه، هو أخبار الفرنسيِّين، مَن غادر منهم، ومَن فضَّل البقاء، لأنَّ لا أهل له في فرنسا، ولا يمكنه بناء حياةٍ جديدةٍ في مكانٍ آخر. كمدام سيمون المقيمة في البناية المقابلة لنا، والتي كانت شرفتها مواجهةً تمامًا لشرفتي، لا تفصلني عنها سوى بضعة أمتار، وكان يمكن لمدام كوزيت أيضًا أن تراها.

كانت سيِّدةً مسنَّةً، فقدت زوجها وليس لها مَن يعتني بها أو يخدمها. ولأنَّ مصعد بنايتها كان معطَّلًا أيضًا، وجدت العجوز الحلَّ في ربط قفَّةٍ إلى درابزين شرفتها، بحبلٍ يتدلَّى حتى الشَّارع، تضع فيها قائمةً بطلباتها القليلة، وزجاجة حليبٍ فارغة، فقد كان الحليب في تلك الأيَّام يُباع في زجاجة، ثمَّ تنادي فتًى من الذين تراهم يلعبون الكرة أسفل البناية، ليأخذ القائمة إلى دكَّان الحيِّ ويعود إليها بطلباتها.

كنت أسمعها تنادي: MOULOUD... MOULOUD.

فيأتي أحدهم ويتولَّى «مهمَّة القفَّة» ثمَّ اكتشفتُ أنَّها في الواقع لم تكن تعرف من كانت تنادي، ولكنَّه الاسم الذي سمعَته يتردَّد بين فتيان الحيِّ في أثناء لعبهم الكرة، فصارت تناديهم به.

كنت أخرج إلى الشُّرفة حين سماعها، فتفرح بتجاذب أطراف الحديث معي أو مع أمِّي، في أثناء انتظارها عودة القفَّة.

مع الوقت بدأت أستأنس بمنظر القفَّة المعلَّقة إلى شرفتها، وأضحك لعجوزٍ أطلقت اسم «مولود» على جميع أبناء الحيِّ، فراحوا يتطوَّعون لخدمتها كما لو كان كلُّ واحدٍ منهم «مولود».

كلَّما رأيت خيال قفَّتها مساءً من خلف نافذتي، كانت الأحلام تذهب بي بعيدًا. كما في تلك القصص السّاحرة التي قرأتها صغيرة، حيث كلّ المعجزات تحدث بفضل أمر صغير، فيتحوّل الضفدع بقبلة إلى أمير، وبضربة عصا سحريّة، تتحوّل حبّة يقطين إلى عربة فاخرة تأخذ سندريلّا المسكينة، من المطبخ إلى الحفل الذي يقيمه الأمير.

تمنّيت لو كان بإمكاني كلَّ صباحٍ كتابة أمنياتي على ورقةٍ وإرسالها في تلك القفَّةِ إلى الله، فيعيدها إليَّ ملأى بما أريد. لكن ما كان من جنّية في الأفق، وكان لا بدَّ من أحدٍ غير «مولود» لسحب القفَّة إلى فوق.

لعلّ المهمّة كانت من اختصاص الملائكة، فدعوات الخير هي حبال أمنياتنا المرفوعة إلى السَّماء. ولي منها الكثير، كنت على يقينٍ من أنَّ تلك القُفف التي حملتها عن العجائز، ستأتيني يومًا ما بقفَّةٍ سحريَّة.

أحمد الله اليوم أنَّ تلك القفَّة ما كانت تملك قدرات خارقة، ماذا لو رفعت أمانيَّ الحمقاء إلى السَّماء، كأمنية أن أتزوَّج بالأستاذ المصريِّ الذي كان يدرِّسنا الأدب العربيِّ، وتحقّقت الأمنية!

وَيْلِي! لكنتُ خسرتُ أشياء جميلةً حدثت لي، وأنهيت عمري في عراك مع الأثيوبيِّين، لأنَّهم سطوا على السَّدِّ العالي الذي غنَّيتُ له في شبابي. وبمزاجي الجزائري، كنت خضت معارك لا علاقة لي

بها، دفاعًا عن تلك القضايا إيّاها التي لطالما آمنت بها، وما عاد من المسموح الخوض فيها، إلى أن أختفي ذات يومٍ في ظرف ما، وسيُقال أنَّني ما كنت سويّة، أو أنّني مصادفة «متُّ بسكتةٍ قلبيَّة» كما من ماتوا قبلي بـ«لوثة الوطنية».

«طب وأنا مالي بالأحزان أنا مالي» كفى حماقة يا امرأة. اِنسي موضوع القفّة. على المرء أن يحذر رَفْعَ الأمانيِّ إلى السماء عندما يكون عاشقًا أو مراهقًا.. لأنَّها قد تتحقَّق!

***

«أنا إنسان عادي جدًّا، أنا فقط أحبّ قراءة الكتب».

هاروكي موراكامي

تمنَّى أبي لو عقد قرانه على الحرّيَّة، ولكنَّه تزوَّج امرأةً تدعى حوريَّة، اختارتها له أمُّه، سيِّدة بيت، جميلةٌ... توقَّف تعليمها وهي بعدُ على المقاعد الابتدائيَّة.

حرفٌ زائدٌ أطاح بأحلامه، هو المولود حرًّا، غير المعنيِّ بحوريَّات الجنَّة. أقرب أصدقائه اختارهم بفضل لغةٍ فُرضت عليه. وهو يحارب الاستعمار غدا صديقًا لفولتير، أحد كبار محرِّري الرُّوح البشريَّة، ثمَّ صادق هوغو وروسُّو ولامارتين، فأصبح يتحدَّث مثلهم وكأنَّه يتحدَّث إليهم.

ما كان ينقصه، هو امرأةٌ يصادق عقلها، يتحدَّث إليها عن قراءاته، تتفهَّم أن يكون هؤلاء الكُتَّاب ضمن سجلِّه العائليِّ، ولا تتذمَّر كلَّما أتى على ذكرهم.

تمنَّى لو كان له قدر مالك بن نبي، ابن مدينته قسنطينة، الذي عثر على زوجته بين الكتب، في أثناء تردُّده إلى مكتبةٍ في فرنسا،

فقد كان كلَّما سأل عن كتابٍ قيل له إنَّه معارٌ إلى سيِّدة، ما أثار لديه فضولٌ لمعرفة المرأة التي تشاركه القراءات نفسها. ما توقّع أن يكون على موعدٍ مع قدره، وأنَّ تلك المرأة التي كانت تسبقه إلى كلِّ كتابٍ يعنيه، ستقيم في وجدانه، وتغدو حبَّ حياته. أوَ ليس أجمل حبٍّ ذلك الذي نعثر عليه أثناء بحثنا عن شيءٍ آخر؟

وهكذا، قرَّر الرَّجل الذي سيغدو واحدًا من أعظم المفكِّرين المعاصرين في العالم الإسلامي، أن يعقد قرانه على توأم فكره، تلك الفرنسيّة التي ستقاسمه لاحقًا كلَّ عذاباته ومُلاحقاته، وستعاني طوال فترة الثَّورة من السُّلطات الفرنسيَّة، بسبب زواجها به ومعاداتها الاستعمار.

أمَّا هو فلم يُمنح حظَّ البحث في المكتبات عن امرأةٍ تشبه أفكاره. كانت أمّه هي من تولَّت البحث نيابةً عنه، بما يلائم أفكارها، وكان عليه أن يتقبَّل قدره بما أوتي من شرف.

الأسماء أقدارٌ علينا تقبُّل قسمتها. البعض ليس أهلًا لاسمه، والبعض يعيش مكبَّلًا به.

مع العمر، أسَّس حياته على صفةٍ كان يُنادَى بها. أن تولد «شريفًا» يعني أن تولد بروحٍ حرَّة. ليس بإمكان شيءٍ أو أحدٍ استعبادك. لست معنيًا بحسبٍ أو نسب، بل بشرف أن تعيش نبيلًا، لا تُهادن في كرامتك.

ولكن كيف السَّبيل إلى الجمع بين روحٍ تتوق إلى الحرِّيَّة، وقلبٍ يُستعبَد بعقد «الشَّرعيَّة»؟ الحبُّ أيضًا قضيَّةٌ تستدعي دفاعك عنها.

كان مناضلًا شاملًا: حالمًا، عاشقًا، صادقًا، متحمِّسًا، ملتزمًا في مشاعره العاطفيَّة، كما لو كانت مشاعر وطنيَّة.

بالفرنسيَّة، أيضًا، وافق اسمُه قلبَه. ربَّما كان حبُّ تلك الغريبة ما نبَّهه إلى ذلك، وهي تتوجَّه إليه في الرَّسائل بوضع آخر حرفٍ من اسمه بين قوسين CHERI(F). قلَّمت الحرف الزَّائد في شجرة اسمه، فأزهرت أبجديَّته، واستوطن الرَّبيع قلبه. ذلك كان الزَّمنَ الذي بدا فيه أبي سعيدًا أكثر ممَّا ينبغي.

***

«كلّ الكلمات الملفوظة تبقى مسموعة إلى الأبد».

ميلان كونديرا

انتابني شعورٌ غريبٌ يوم عرفت أنَّ في حياتك امرأةً أخرى. كنتُ قد صادفتُ جارنا، وأمدَّني برسالةٍ قال إنَّ البوَّابة وضعتها خطأً في صندوقه، وإنَّها موجَّهةٌ إليك. خشيت على البوَّابة من غضبك، خاصَّةً أنَّك كنت تعيب عليها إهمالها شؤون البناية منذ فترة، ربَّما بسبب الأطفال الذين كانوا في تزايد، وكانوا يفسدون كلَّ ما تقوم به، ففقدت المسكينة حماسها لتنظيف الدَّرج بانتظامٍ كما كان دأبها سابقًا، وتوقَّفت عن تلميع الامتداد الخشبيِّ الذي يعلو درابزينَه، وعن العناية بالمصعد الذي كانت توليه في البدء اهتمامًا خاصًّا، حين كنَّا لا نراها إلّا رابضةً في بهو البناية، تحرس خطانا أو تحترس منها، وصارت تتمنَّى الآن لو تحوَّلت مكنستها إلى مكنسةٍ سحريَّةٍ، تطير بها إلى الضَّفَّة الأخرى، لتلحق بسكَّان البناية الذين رأتهم يغادرون.

ولكنَّك ما كنت لتتساهل أبدًا مع إهمالها شؤون البريد، فقد كنتَ أكثر من يتلقَّى الرَّسائل في البناية بحكم وظيفتك، أو بالأحرى كنت الوحيد. لذا، أشكُّ في أن تكون قد أخطأتْ في وضع تلك الرِّسالة.

الأرجح أنَّها وضعتها في صندوقنا مع مجلَّة نوفوستي، التي كانت تصلك من روسيا بانتظامٍ، منذ زيارتك إلى الاتِّحاد السُّوفيتي. وهي مجلَّةٌ طويلة القَطع بحيثُ أنَّ أكثر من نصفها كان يظلُّ بارزًا خارج صندوق البريد الخشبيِّ الصَّغير، ما يغري فتيان البناية بسحبها لتصفُّحها دون أيِّ فهمٍ لمحتواها، ثمَّ رميها أو وضعها في أوَّل صندوق بريدٍ يرونه. ربَّما أوقع أحدهم الرِّسالة وهو يسحب المجلَّة من الصُّندوق، ثمَّ وضعها في صندوق جارنا.

وما هَمَّ؟ ألم نكن في زمن الاشتراكيَّة، وكلُّ شيءٍ ينبغي أن يُتقاسَم، حتى البريد؟

عندما أخبرت أمّي بأنَّ جارنا أمدَّني برسالةٍ إليك وصلته خطأً، أخذت الظرف منِّي، تأمَّلته وقلّبته مدقِّقةً، كما يتفحَّص خبيرٌ ورقةً نقديَّةً ليتأكَّد من أنَّها غير مزوَّرة، ثم قالت لي: «لا تخبريه بها». لم أفهم السَّبب، ولكنِّي حزنت لذلك. حدسٌ ما كان يقول لي إنَّ تلك الرِّسالة السّميكة كانت ستسعدك.

كان «كولمبو» قد اشتمَّ رائحة شُبهةٍ ما، ولكنَّه كان أذكى من أن يفتح الرِّسالة فورًا. أخفت أمّي الرِّسالة لعدَّة أيَّام، كي لا تسلِّمها لك إلّا في حال أخبرك جارنا بأمرها. ولكنَّك قلَّما كنت تصادف الجيران، لخروجك باكرًا إلى مكتبك وعودتك منه متأخِّرًا. عندما تأكَّدتْ أنَّك لن تدري بها، فتحَتْها ونادتني لتسألني من أيِّ بلدٍ أُرسِلَت، فهي تميِّز عادةً الرَّسائل التي تأتي من فرنسا من طوابعها، ولكنَّها كانت طوابع غريبةً تراها لأوَّل مرَّة.

أجبتها وأنا أدقِّق في الطَّوابع الكثيرة: «إنَّها من يوغسلافيا».

عن كبرياء لم تطلب منِّي أن أقرأها لها. في الواقع، لم تحتج إليَّ لتعرف ما كُتب فيها، فقد كانت مرفقةً بصورةٍ لم ألمح منها إلّا

طرفها. ثمَّ إنَّه كان بإمكان أمّي قراءة بعض الكلمات بالفرنسيَّة، فقد دخلت في طفولتها المدرسة الابتدائيَّة لأربع سنواتٍ أو خمسة، وكانت متفوِّقةً في القراءة والخطِّ. ظلَّت تحتفظ بدفترٍ لها، خطَّت فيه بالحبر الصِّينيِّ الأبجديَّة اللاتينيَّة بالطَّريقة المميَّزة التي تُكتب بها الأحرف في بداية الجمل، باستداراتٍ متقنةٍ وكأنَّها ترسم، إلى حدٍّ أبهر مدرِّستها وأخاف والدها الذي سمعها يومًا تردِّد النَّشيد الوطنيَّ الفرنسيَّ، فقرَّر رغم بكائها ألّا تعود أبدًا إلى المدرسة. وهكذا، في التَّاسعة من العمر، انقطع بها طريقٌ كان سيوصلها إلى نجاحٍ عظيم.

ولأنّ «البيوت قائمة على صبر النساء»، أخفت أمّي تلك الرِّسالة ومعها طعنتها. ظننتها قد مزَّقتها، ولكنَّها في الواقع احتفظت بها، رغم عجزها عن قراءتها. عثرتُ عليها ذات يومٍ مصادفةً تحت الأقمشة الكثيرة المرتَّبة، التي كانت تحتفظ بها في الخزانة لتخيطها لاحقًا، لثقتها بأنَّ فضولك لن يقودك إليها. هربتُ بالرِّسالة إلى غرفتي ليلًا، وأغلقت الباب بالقفل كي لا يفاجئني أحدكما فتقع الكارثة!

ربَّما كان عليَّ أن أعطيك إيَّاها يومذاك. كانت بالتَّأكيد ستسعدك، وتخفِّف من إجهادك المتزايد. ولكن لو فعلت، لانقلبتما كلاكما في النِّهاية عليَّ، أنت وأمِّي!

أخرجتُ الصُّورة من الظَّرف، وتأمَّلت تلك الصَّبيَّة الثَّلاثينيَّة الشَّقراء بعينَي أمّي وألمها، بحسرتها وغيرتها، بالدُّموع التي بالتَّأكيد ذرفت منها الكثير في سرِّها. كانت الفتاة جميلةً جمالًا بريئًا لا تبرُّج فيه. لم تكن أنوثتها متوهِّجةً بل مطمئنَّة. تقف بثيابٍ شتويَّةٍ أمام مَعْلَمٍ سياحيٍّ. القليل الذي تعلَّمته أمّي من الفرنسيَّة كان كافيًا لتقرأ على الأقلِّ الكلمة الأولى التي توجَّهت بها تلك الفتاة الغريبة إلى زوجها، متصرِّفةً بأحرف اسمه CHERI(F) بحيث يصبح «حبيبي»

بينما لم تجرؤ هي، زوجتك، على مناداتك يومًا باسمك. لأوّل مرَّةٍ شعرت كم عانت أمّي بسببك.

ولكن، ما إن فتحت الرِّسالة، حتى وجدتني أقرؤها بقلبك، بلهفتك وفرحتك التي صادرتها أمِّي. احترت بينكما. من سيعذرك، أنت الذي أوصلك حبُّ الكتب إلى حبِّ الحبِّ، وسرقتْ منك الثَّورة سنوات شبابك ومباهجها، ثمَّ سرق منك الاستقلال كلَّ وقتٍ كان يمكن أن تخصِّصه لنفسك، وفي زحمة مهامِّك وأرقك، تسلَّل الحبُّ إلى قلبك، مع هواء الحرِّيَّة التي كان الفرح قبلها ممنوعًا عليك... من سيعذرك؟

أن تشهر سعادتك في زمن الثَّورة، والنَّاس يموتون من أجل الوطن، ضربٌ من الوقاحة: «وقاحة السَّعادة»!

أمّا أن تقع في الحبّ، فذلك أخطر عليك من أن تنخرط في حزب محظور.

فحتّى مجرَّد التَّدخين كان ترفًا، جرمًا تُنزِل جبهة التَّحرير عقوباتٍ بمن يقترفه، بجدع أنفه، وأحيانًا كان ذلك أو غيره من التَّصرُّفات ذريعةً لتصفية الرِّفاق بتهمة الخيانة. لم تكن في حاجةٍ إلى رادع. بطبعك لم تدخِّن يومًا ولا قربتَ الخمر، لم تُفرِط إلّا في الحلم، ولم تتعاط سرًّا إلّا الحبّ.

كنتَ ثملًا بأحلامك، بينما كان حلم جدّتي أن تزوّجك. استسلمتَ لها.

كنتَ ابنها الوحيد، ولم يحدث أن خالفتَ لها أمرًا لئلَّا تؤلمها.

الزواج شرط اجتماعي، أمّا قصص الحب فلم تكن توجد على أيّامك سوى في الكتب، أو لعلّها تأتي لاحقًا بعد الزواج كضربة حظ.

طلَّقتك جدَّتي من زوجتك الأولى لأنَّها لم تنجب، ثم قالت بسلطة الأمِّ: «ستتزوَّج حوريَّة»!

فتزوجتَ ابنة خالتك التي كانت تناديك «سيدي» لفارق السن، ثم في الثامنة عشرة لم تعد تدري ماذا تناديك وقد أصبحت زوجتك.

بسلطتها، لم تمنح جدّتي أمّي حقَّ التَّردُّد بين «نعم» و«لا»، فانخرطتْ هذه الأخيرة في حزب الزَّوجات، كما انخرطتَ أنت في حزب «نجم شمال إفريقيا» و«حزب الشعب».

بجملةٍ واحدةٍ، صدر حكمٌ في حقِّكما معًا.

بعد ذلك، ستقضي أمّي سنواتٍ في مشاهدة الأفلام المصريَّة، لتكتشف معنى الوقوع في الحبِّ، وتلك الدَّهشة الأولى في حضرة غريبٍ تجعل منه الأقدار حبيبًا، وستدندن وهي تقوم بالأشغال المنزليَّة بأغانٍ لعبد الحليم لم تختبر مباهجها ولا أوجاعها، باكيةً قصصَ حبٍّ لم تعشها، وغابطةً مواعيد لن تذهب إليها. بينما تواصل أنت قراءة دواوين الشِّعر، لتُقاسم الشُّعراء حبيباتهنَّ، فتواعد جولييت دورييه نيابةً عن هوغو، وتهيم مع أراغون بعيون إلزا، وترافق لامارتين إلى ضفاف بحيرة بورجيه، بحثًا عن جوليا التي لن تأتي، تمامًا كحبيبتك التي لن تجيئ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

«كلُّ حبٍّ هو سياسيٌّ».

مالك حدّاد

هل كان في مقدورك النَّجاة من الحبِّ؟

لم يحدث للكرة الأرضيَّة أن كانت عاشقةً كما في ستِّينيَّات القرن الماضي. ذلك لأنَّه كلَّما اشتعلت الحروب وعمَّ الدَّمار، ازدادت حاجة البشريَّة إلى القصص الرُّومانسيَّة التي تتحدَّى الموت.

كان العالم قد خرج من حربه العالميَّة الثَّانية، بعد أن دفن سبعين مليون قتيلٍ على عجل. حقَّقت أممٌ انتصارها، ونالت أخرى استقلالها، واستعاد الحبُّ سطوته وسلطته فوق الخراب والدَّمار. لكن، كان من الوهم الاعتقاد بأنَّ حكَّام العالم وزعماءه سيتركون للشُّعوب حقَّ تقرير مصيرهم العاطفيِّ، فككلِّ سلطةٍ، ما لبثوا أن استحوذوا على الحبِّ، مستغلِّين حاجة الجماهير إلى أصنامٍ عاطفيَّة.

لم يحدث أن اجتمع كبارٌ بهذا العدد في زمنٍ واحد، ليحكموا التَّاريخ بتلك الكاريزما الخرافيَّة: بن بلّة، عبد النَّاصر، بورقيبة، محمَّد الخامس، الملك السنوسي، كاسترو، شي غيفارا، غاندي، نهرو، شيرشل، خروشوف، ماوتسي تونغ، ديغول، تيتو، كينيدي، الإمبراطور هيلاسيلاسي.

يا للعظمة، أيّ زمنٍ خرافيٍّ كان ذاك!

دخل العالم في حالة حبٍّ جماعيَّةٍ لمن أهداه الكرامة والحرِّيَّة. شعوبٌ بأكملها عاشقةٌ لزعمائها، تقيس قامتها بقامتهم، وترى جمالها في وسامتهم، وتتغنَّى بقادتها ومحرِّريها. وبينما كانت مارلين مونرو تغنِّي لكينيدي في عيد ميلاده، وأمُّ كلثوم تمجِّد عبد النَّاصر، والصِّين تؤلِّه ماوتسي تونغ، كانت يوغسلافيا تصدح بأغاني الولاء لزعيمها وموحِّدها تيتو: «نقسم ألّا نبتعد عن طريقك... اسمك هو الحرِّيَّة»، فكيف لك ألّا تقع في حبِّ «الرَّفيقة نتاليا» وقد غدت رمز مبادئك السِّياسيَّة وقناعاتك التي يجسِّدها تيتو أوفى صديقٍ للجزائر وللدُّول العربيَّة؟

كما أحبّ العرب كلّ جزائرية صادفنها، كما لو كانت صورة عن جميلة بوحيرد، لعلّك أحببت دليلك نتاليا كما لو كانت (ليبا راديتش)

وأنت تزور برفقتها مع الضيوف موقع إعدام تلك الصبيّة، حيث يخلّد تمثالها النصفي بطولتها. كان يحلو لك رواية قصّتها بحماس.

في الخامسة عشرة من العمر، وتحت التأثير القوي للانتماء النّضالي لعائلتها، انضمّت ليبا إلى حزب أنصار يوغسلافيا للقتال ضد النّازيين الذين احتلوا بلادها. ولشجاعتها اختارت بعد سنتين الانضمام إلى المقاتلين في الصّفوف الأماميّة.

في مارس عام 1942، أثناء محاولة ليبا تنظيم عملية إنقاذ لحوالي 150 امرأة وطفلًا كانوا يبحثون عن ملاذ آمن من القصف، وقعت المقاتلة الصغيرة في الأسر لدى القوات النازيّة، بعد أن حاربت حتى نفاد ذخيرتها، موقِعةً عددًا من القتلى والجرحى لدى العدو. أبقاها الألمان في حبس منفرد وعذّبوها دون رحمة. رغم أنّها كانت لا تتجاوز الـ17 من العمر، رفضت ليبا الاعتراف بأيّ معلومات عن الحزب المقاوم الذي تنتمي إليه، أو مكان مقرّاته السرية، أو أسماء الأشخاص الذين ينتمون له.

في 8 فبراير 1943، تمّ إحضار ليبا راديتش إلى المشنقة التي جهّزوها على عجل على جذع شجرة، لإعدام الفتاة على مرأى من الناس، اعتقادًا من الألمان أنّها قد تخاف الموت عندما ستراه يلتفّ حبلًا حول رقبتها. وقبل لحظات من شنقها، توجّه إليها الضابط قائلًا: «سأسألك لآخر مرة.. إن ذكرتِ لي أسماء خليّتك وكشفتِ عن شبكتهم.. سوف أنقذ حياتك». فأجابته بكلمات خالدة: «أنا لست خائنة لشعبي... ستعرف أسماء رفاقي حين ينتقمون لموتي». وهو ما حدث.

كانت يوغسلافيا منذ الثَّورة، إحدى الوجهات التي زرتَها، ممثِّلا للاتِّحاد العامِّ للعمَّال الجزائريِّين في الدُّول الاشتراكيَّة، وهو

منصبٌ هامٌّ آنذاك، فقد تأسَّس الاتِّحاد بهدف حشد العمالة الجزائريَّة ضدَّ مصالح فرنسا الاستعماريَّة والرَّأسماليَّة، وكان يدَ الثَّورة الموجعة في الجزائر كما في المهجر، بقراراته وإضراباته وشهدائه وأناشيده، منذ سنة 1957 حين توحّدت كلّ فئات الشعب العاملة تحت راية جبهة التحرير، في إضراب تاريخي دام 8 أيام، ودفع فيه المضربون الثمن الأغلى. ثمَّ أصبحتَ تتردَّد كثيرًا بعد الاستقلال إلى يوغسلافيا، للاستفادة من تجربتها في الثَّورة لأجل الجزائر الفتيَّة.

كانت نتاليا مترجمتك ودليلك، كما فهمت من رسالتها تلك إليك، والتي علقت منها في ذاكرتي بعض الجمل.

«يا له من حظٍّ جميلٍ أن أكون تعلَّمتُ الفرنسيَّة لأتواصل معك. رسالتك أشعرتني بسعادةٍ غامرةٍ لم تبرحني أبدًا.

أعود وأتذكَّر ذلك المساء الذي تناولنا فيه العشاء معًا. ذهبتُ إلى كلِّ الأماكن التي زرتها معك. اليوم عدتُ إليها وحدي، يحزنني أن أصطحب إليها غيرك.

اكتبْ لي كثيرًا وطويلًا، ما أخبارك؟ هل تفكِّر بي؟ هل ستعود قريبًا؟ هل تدري كم أفتقدك؟».

كنتُ لأوَّل مرَّةٍ أكتشف علامات الاستفهام النِّسائيَّة، من دون أن أعرف أنَّها ستغدو يومًا أسئلتي في كلِّ قصَّة حبٍّ، وأنَّ كلَّ نساء العالم أسيرات الأسئلة نفسها.

استنتجت أيضًا أنَّ CHERI(F) كان التَّوقيع الذي كنتَ توقِّع به رسائلك إليها. فأنت سيِّد اللغة، والمتمكِّن من إيحاءاتها، والبارع في الرَّسائل المنمَّقة بما أوتيت من فصاحةٍ ورومانسيَّة.

أعدتُ الرِّسالة إلى مكانها، ولكنَّ كلماتها لم تغادرني. كنت كلَّما رأيتك مساءً منهكًا ومنهمكًا في إعداد خطاباتك السِّياسيَّة، أترك

قبلةً على خدِّك كأنَّها منها، وأقاوم رغبتي في إخبارك بأنَّ نتاليا تحبُّك، وأنَّها كتبت لك، عسى أن أخفِّف عنك بعض متاعبك.

وكنت كلَّما رأيت أمّي غارقةً في صمتها، منهمكةً أمام ماكينتها في خياطة شيءٍ ما، أعرف أنَّ صوت الماكينة هو صوتها الدَّاخلي، وأنَّها في كلِّ دعسةٍ على دوَّاسة الماكينة تدوس على قلبها لتُسكت صرخته، فأختلق أحاديث مسلِّيةً وأخبارًا جميلةً، عسى أن أغيِّر مزاجها وأشغل فكرها بأمرٍ آخر.

اعتادت أمّي الثَّأر لكرامتها بالتَّميُّز. فالزوجة القويّة تتجدّد عندما تأتيها الطعنة، وتخفي بالتألّق جرحها. لعلَّك لاحظتَ ذلك، فأصبحتَ تأخذها لمرافقتك إلى الدَّعوات الرَّسميَّة التي كنت تُدعى إليها في السِّفارات، فقد كانت ذات أناقةٍ ملفتة، حتى إنَّ سفيرًا انحنى مرَّةً ليضع ما يشبه القبلة على يدها، دليل احترامٍ على الطَّريقة الغربيَّة، فما كان من أمّي إلّا أن أمسكت بيده وقبَّلتها بدورها، حسب التَّقاليد الجزائريَّة، في تقبيل يد من يقبِّل يدك.

وتكرَّرت أخطاؤها البروتوكوليَّة، إلى أن كفرَت بكلِّ الدَّعوات الرَّسميَّة، وتركتك تمضي إليها وحدك، ككلِّ المسؤولين الجزائريِّين بعد الاستقلال.

لم يكن في متناولها سوى ماكينة الخياطة، فخاضت برفقتها كلَّ معاركها، في مواجهة الألم، ومواجهة الحاجة، ولترويض أحلامها. كما الشِّعر بالنسبة لك، كانت الخياطة ملاذها، ووسيلةً تُثبت بها تفوُّقها على الأخريات في ذوقها وأناقتها. كنت أرافقها إلى محلِّ لوازم الخياطة، وأراها تختار أزرارًا لأثوابنا كما لو كانت تختار قافيةً لقصيدة، فلم يحدث أن وضعت زرًّا عاديًّا لثوب. تُفاضل طويلًا بين أنواع الأقمشة ورسوم الدَّانتيل المختلفة، وتتردَّد بين درجات

الألوان وبين القطيفة والسَّاتان لتطريز قندورتها وترصيعها بالأحجار. سيِّدة التَّفاصيل الجميلة المبهرة، لكأنَّها توقِّع بها كلَّ قماشٍ يقع في يدها. على أيِّ بحور الشِّعر كانت تخيط أحلامها؟ وتشكُّ الدبابيس في ثياب أفراحها، وهي تدندن أغنيةً؟ وكيف لم تستطع أن تحمي بكشتبانٍ قلبَها، كما كانت تحمي إصبعها بذلك الطَّربوش الحديديّ من وخز الإبر؟

في تلك الفترة، كنَّا جميعًا موجوعين... وشعراء.

أنت تفكِّر في حبيبتك... وأمِّي تفكِّر فيك... وأنا أفكِّر في ذلك الأستاذ الذي خفق له قلبي الصَّغير، وجلست أمامه تلميذةً مرتبكةً على مقعد الحبِّ الأوَّل!

الفصل السادس

الحبُّ في الأرض بعضٌ من تخيُّلنا،
لو لم نجده عليها لاخترعناه.

نزار قبّاني

كنَّا في سنة 1969. تحلَّق الجيران حول التِّلفاز ليشاهدوا معنا أوَّل إنسانٍ وطئت قدماه سطح القمر، لحظة عودته إلى الأرض من رحلته الخرافيَّة.

كان الجميع يريد التَّأكُّد من أنَّه ليس في الأمر خدعة، وأنَّ هناك من وصل حقًّا إلى القمر، بل ومشى عليه. كيف لنا أن نصدِّق ذلك، وقد كان المصعد أكبر إنجازٍ تكنولوجيٍّ نراه حتى ذلك الحين، وكنَّا ما نزال تحت دهشة صعوده بنا إلى الطَّابق الخامس.

أمَّا التِّلفاز، فكان دهشتنا الأخرى في زمنٍ كان يحكمه المذياع متربِّعًا في البيوت بحجمه الضَّخم وأزراره الكثيرة. آنـذاك، كان للتِّكنولوجيا حضورٌ مهيبٌ يفرضه حجمها.

كنَّا من أوائـل من امتلكوا التِّلفاز في البناية. جهازٌ ضخمٌ، بيضويٌّ من الخلف. وقد جعل ذلك من بيتنا قاعة عرضٍ مفتوحةً

تارةً للكبار، وأخرى للصِّغار الذين ترسلهم أمَّهاتهم إلى بيتنا لمشاهدة «الحديقة السَّاحرة»، وكلٌّ محمَّلٌ بصحنٍ ممَّا أعدَّته أمّه في ذلك اليوم من حلويات.

ذات يوم، أطلَّ علينا رجلٌ من كبسولته في زيِّه الغريب، وقال كلماتٍ ستغدو خالدة: «إنَّها خطوةٌ صغيرةٌ للإنسان، ولكنَّها قفزةٌ عملاقةٌ للبشريَّة».

لم يكن نيل آرمسترونغ يدري أنَّ العالم العربيَّ كلَّه كان قد سبقه إلى القمر، فقد كان ذلك الجرمُ مزدحمًا بالشُّعراء والعاشقين والحالمين والمغنِّين. حتّى إنَّ زميلةً لي في الصَّفِّ كان اسمها «مرِّيخة»، كوكبٌ في حدِّ ذاتها. كان لكلٍّ مجرَّته. ما من أحدٍ إلّا وكانت له قدمٌ في الأرض وأخرى في القمر، حتى أنا، أظنُّني وصلته قبل آرمسترونغ، ومشيت عليه بمريولي المدرسيِّ.

لم يكن القمر بالنِّسبة إليَّ ضمن المجموعة الشَّمسيَّة، بل جرمًا في مجرَّة العواطف العشقيَّة، بلغه قلبي الصَّغير بقفزةٍ خارج الغلاف الجوِّيِّ الأرضيِّ نحو كوكب الحبِّ.

كلُّ عاشقٍ رائدُ فضاء، لا حاجة له بوكالةٍ للإشراف على رحلته. المغنُّون جميعًا كانوا يتولَّون أمر نقله من الأرض إلى القمر، أمَّا سقوطه المروِّع بعد ذلك دون مظلَّة، فذلك شأنه، أو شأن الإذاعات التي، عندما لا تكون مشغولةً بأخبار الثَّورات والحرب ضدَّ إسرائيل، تنهمك في نقل الجماهير العربيَّة إلى القمر ومنه، بمركبةٍ غنائيَّةٍ تقودها فيروز أو أمُّ كلثوم أو عبد الحليم الذي كنَّا نحفظ أغانيه عن ظهر قلبٍ أكثر من دروسنا.

«القمر خدنا على موجة قمر...

فوق الصَّحاري والسَّما والبحر والليل والوجود...

القمر خدنا القمر، لجزيرة أبعد من الخيال،
لا شافتها عين ولا خطرت ببال...
يا حبيبي وصلنا فوق فوق برِّ الأمان».

قطعًا كان القمر أكثر أمانًا من الأرض، والخيال أكثر جمالًا من الواقع. يكفي أن تفتح المذياع لتغادر إلى مجرَّةٍ أخرى. كلُّ أغنيةٍ كانت تذكرة سفرٍ للحالمين وكنَّا «كلّنا مسافرين»، فقد كنَّا في زمن البهجة العارمة والكآبة العذبة، والأغاني العالميَّة الخالدة بكلِّ اللّغات. كان الحبُّ أكثر وفرةً ونقاءً، وكانت البشريَّة الخارجة لتوِّها من الحروب تتوق إلى الحبِّ الكبير في الأفلام والرِّوايات، وتحلم بالحبِّ الخالد الصَّامد أمام الأقدار المعاكسة.

كانت أغاني تلك الحقبة تُلهب المشاعر، وتبثُّ فيك شجنًا لا يفارقك. لم تكن أغانيَ للأذن بل للقلب، ولا للجيب بل للحبِّ، يؤدِّيها المغنِّي وهو ينتحب، كجاك بريل وهو يغنِّي «لا تتركيني»، وإيديت بياف وهي تودِّع حبيبها الذي خطفه الموت متضرِّعةً «إلهي، دعه لي أكثر قليلًا لبعض الوقت»، وفرانك سيناترا وهو يغنِّي «لا سواك»، وآندي ويليام وهو يغنِّي «من أين أبدأ؟» في فيلم «ذهب مع الرِّيح».

كلُّ تلك الأغاني صيغت كي تقنعك بأنَّ الحبَّ حقيقةٌ أبديَّة، وأنَّ الحبيب قد يكون أقرب ممَّا تظنُّ، وأنَّ قصَّتك معه أغرب ممَّا تتصوَّر... ربَّما كان زميلك أو جارك أو رفيق كفاحك في الجبال، أو حتى سجَّانك أو رهينتك أو محاميك الذي يحمل جنسيَّة عدوِّك، وجازف بحياته لينقذك. كما في قصَّة جميلة بوحيرد التي تزوَّجت بمحاميها الشَّهير جاك فرجيس، الذي دافع عنها عند الحكم عليها بالإعدام. فقد استعاد الحبُّ وقتها سطوته وإعجازه، وأعلن الحرب على الحرب.

***

«ليس بإمكان أحدٍ إقناع الحبِّ الأوَّل بأنَّه لن يكون الأخير».

قرأت أخيرًا أنَّ السِّجن العسكريَّ الفرنسيَّ بحيّ حسين داي قد حُوِّل بعد الاستقلال إلى ثانويَّةٍ للبنات، واستنتجت من ذلك أنَّ تلك كانت ثانويَّتنا التي درسنا فيها.

كيف عشنا هناك أجمل ذكرياتنا وأكثرها جنونًا، من دون أن ندري بما كان يحمله ذلك المبنى من مآسيَ وذكرياتٍ سيِّئةٍ لغيرنا؟

يحدث أن تهدي الحياة إليك الشَّيء الذي تحبُّ، في المكان الذي تكره. لطالما أذهلني منطق الحياة!

لعلَّ جمال ذلك المبنى المحاط بالأشجار وببعض الآثار التي تعود إلى زمن الدَّاي حسين، هو ما طمس الذِّكريات الموجعة للمكان. كانت ثانويَّة عائشة أمُّ المؤمنين أوَّل ثانويَّةٍ معرَّبةٍ في الجزائر، وكنَّا أوَّل دفعةٍ تدرس فيها وتتخرَّج مباشرةً إلى كلِّيَّة الآداب، لنكون مِن ثَمَّ أوَّل دفعةٍ معرَّبةٍ تتخرَّج في جامعات الجزائر، وكان ذلك فخر جيلي. نحن أُولى الورود التي تفتَّحت في بساتين المدرسة الجزائريَّة، على تربة اللغة العربيَّة، حيث كان العرب من كلِّ صوبٍ يأتون، وكلٌّ يحلم بأن يكون البستانيَّ.

في السَّنة الثَّانية من الثَّانويَّة جاءنا عبد الحليم. دخل الصَّفَّ متوجِّهًا نحو مكتب الأستاذ، وقال بشيءٍ من الحياء لثلاثين صبيَّةٍ ينظرن إليه بفضول: «أنا أستاذكم... حدَرِّسْكُمْ الأدب العربي».

كان قادمًا من «القمر»، أعني من مصر التي كانت تصدِّر لنا الأفلام العاطفيَّة والشِّعارات القوميَّة، وكان دخوله الصَّفَّ بداية فيلمٍ مصريٍّ طويلٍ، دام سنةً دراسيَّةً، وقعت الكثيرات خلالها في حبِّه، كلٌّ على طريقتها.

إنَّـه الحـبُّ الأوَّل. بـداية وهـمٍ جـميـلٍ... وكبير. ستندمين يا صغيرتي إن فتحت له الـباب، وستندمين أكثر إن لم تفتحي، فقد تُخلِفين موعدًا مع مشاعر لن تتكرَّر دهشتها الأولـى. كلُّ شيءٍ سيحدث لأوَّل مرَّةٍ، فلا تفوِّتي شيئًا ممَّا سيحلُّ بك: ارتباكك، فرحتك، خفقان قلبك، ترقُّبك، لهفتك، غيرتك، خوفك، رغبتك، ندمك، بكاؤك... ذلك لأنَّك ستبكين كثيرًا، فالحبُّ الأوَّل ينتهي دائمًا غرقًا في نهرٍ من الدُّموع، بسبب إصرارنا السَّاذج على جعله الحبَّ الأخير.

في أوَّل سنة حبٍّ، لا يحفظ العشَّاق سوى كلمة «إلى الأبد»، فإذا بهم هالكون على يدها يوم تخرُّجهم!

إنَّه الحبُّ، ذلك الزَّائر المخادع، استدلَّ عليكِ من ولعكِ بقصائد ابن زيدون التي كتبها لـولَّادة، وبأشعار قيسٍ لليلى، وبجنون عنترة بعبلة؛ من حبِّكِ لقصص العشَّاق التي أسعدتك، وتلك التي أبكتك؛ من أنوثتك الخجلى كزهرةِ شقائق النُّعمان؛ من قلبكِ الصَّغير الذي لم يطرقه أحدٌ بعد. منذ ذلك اليوم، وطوال العمر، سيعاود الحبُّ الطَّرق، وستعاودين فتح الباب بالفرحة الأولى نفسها والسَّذاجة الأولى نفسها، لأنَّ شاعرًا عاشقًا قد يكون عند الباب، وستتركين النَّافذة مفتوحةً لأنَّ عبد الحليم قد يغنِّي تحت شرفتك ليلًا «أنا لك على طول، خلِّيك ليَّا»، دون أن تدقِّقي في ما يخفيه خلف ظهره، أباقة وردٍ هو، أم خنجر... فالحبُّ يُدمي من لا يحتاط منه.

كباخرةٍ تمخر البحر، تاركةً خلفها آثار شقِّها الماء، يترك الحبُّ خلفه على الوجنتين آثار جريان الدُّموع، يترك كلماتٍ قيلت وأخرى لم تُقَل، يترك تنهُّداتٍ وحسراتِ ندم، هو الذي يولَد عارمًا، متطرِّفًا، فاقدًا صوابه!

لا يمكن العودة بقلبي إلى ذاك الجنون الأوَّل، دون أن أضحك من كلِّ ما عشته في أثناء إقامتي على ذلك الكوكب السِّحريِّ، الذي اجتمع فيه الواقع والسِّينما، متأرجحةً بتطرُّفٍ بين أقصى السَّعادة وأقصى الحزن، بسبب كلمةٍ قيلت أو أخرى لم تُقَل.

المراهقة توهانٌ بين الحقيقة والأوهام، تطرُّفٌ وتناقضٌ في المشاعر، تحليقٌ حرٌّ فوق غيمةٍ بيضاء لا يتوقَّع العشَّاق أن تمطر وتُلقي بهم من شاهق.

كانت واجباتي في الأدب لا تخلو من الأخطاء الإملائيَّة. لم يكن لي صبرٌ على فهم القواعد النَّحويَّة. ما جدوى أن أعرف كيف تُكتب الكلمات؟ كنت كائنًا من سولفيج أعيش في أوبريت موسيقيَّة. من كلِّ الدُّروس، وحده الشِّعر كان يعنيني. كنت أدخل إليه من سيرة أصحابه. أتوقَّف عندها طويلًا. أتخيَّل تفاصيل حياةٍ ألهمتهم قصائد غدت محفوظاتٍ مدرسيَّة.

هل كان الحاكم يدري، وهو يضطهد شاعرًا هجاه، أنَّ التَّاريخ لن ينسى له ذلك، وأنَّ الشِّعر سيثأر له بتخليده؟ والمحبوبة، وهي تصدُّ عن شاعرٍ، هل كانت تدري أنَّ تعذيبها إيَّاه ليس شأنًا شخصيًّا، بل قضيَّةٌ تعني أجيالًا من قرَّائه؟ وبوشكين، أعظم شعراء روسيا، ماذا لو كانت أجمل قصائده ليست تلك التي نظمها في زوجته، بل موته دفاعًا عن شرفها في منازلةٍ عاطفيَّةٍ حمقاء، مؤمنًا كشاعرٍ يمجِّد الفروسيَّة، بأنْ لا نصَّ يتفوَّق على قصيدةٍ يوقِّعها الشَّاعر بموته؟

صغيرةً آمنتُ بأنَّ حياة المبدعين هي نَصُّهم الأجمل. من ليس في حياته ما يبهرني لن تبهرني كتاباته. بعضهم يوقِّع حياته كما لو كانت قصيدة، وبعضهم تُوقع حياتُه بأشعاره وتتجنّى عليها. بإمكان حياةٍ باهتةٍ لا جنون فيها أن تجرِّد الشَّاعر من تاج الشِّعر، وفي

المقابل بإمكان أناسٍ عاديِّين أن يحوِّلوا سيرة حياتهم إلى أسطورة بأقدارٍ ساحرة.

في السَّادسة عشرة بدأتُ بجعل حياتي حالةً شاعريَّة... لاحقًا أردتها أن تكون ملحمةً شعريَّة.

***

«كان لصوتكِ جسد».

اكتشفتُ سطوة صوتي. وجدتُني أتفوَّق في إلقاء قصائد الغزل، بصوتٍ يسيطر على وجدان زميلاتي، ويُبقي الصَّفَّ في صمتٍ مُطبق. في الواقع، كانت رسائلي موجَّهةً إلى مستمعٍ واحد. مع الوقت اعتاد فكَّ شيفرتها، بل بدا لي أنَّه صار يختارها قصدًا، ويطلب منِّي إلقاءها، تاركًا قصائد الفخر والمديح والرِّثاء للأخريات. كنت ليلى، وعبلة، وولَّادة. كلُّ قصائد الحبِّ تورَّطتُ فيها، وكلُّ الشُّعراء غدوا سعاة بريدٍ بيني وبين الأستاذ الجالس خلف مكتبه يستمع إليَّ، فيسهو حينًا ثمَّ يعود وفي عينيه لمعة ارتباكٍ لا أنساها. لا يهمُّ إن كنت رسبت في الإملاء وإن كنت إلى اليوم لا أعرف كيف تُكتب الهمزة، ما دامت الألِف كلَّ ما كنت أحتاج إليه لأغدو سعيدة. لكأنَّها كلَّما تصدَّرت كلمةً اختصرت اللغة وحوَّلت العالم من بضع كلماتٍ إلى أغنيات: «أنا»، «أنت»، «أحبُّك»، «أهواك»، «أغدًا ألقاك؟». أصبحت الألِف طرفًا ثالثًا في قصَّة حبِّي!

قلَّدتُ زميلتي هدى في امتلاك دفترٍ خاصٍّ، أنسخ فيه بخطٍّ جميلٍ القصائد والأغنيات العاطفيَّة باللغتين، كما لو كانت واجبًا مدرسيًّا، ومثلها أزيِّنه بالرُّسوم والملصقات. كانت تبهرني بالرُّسوم العاطفيَّة الحالمة التي كانت ترسمها مع كلِّ نصٍّ. أمَّا أنا، فكنت

أزيِّن دفتري بالزُّهور التي كنت أقطفها من حديقة «السَّاعة» وأنا في طريقي لركوب الحافلة، زهورٍ صغيرةٍ كأنَّها من القطيفة، تسمَّى بالفرنسيَّة «أفكار» Pensées لأنَّها بألوانها المتداخلة من بنفسجيٍّ وأصفر وأحيانًا أبيض أو عنَّابيٍّ، تحمل من البوح ما لا تقوله الكلمات، ولهذا اعتاد العشَّاق في الماضي وضعها بين صفحات الكتب الثَّخينة لتجفيفها وإرفاقها برسائلهم.

مع الوقت، بدأت أخطُّ مشاعري في ذلك الدَّفتر على استحياء... ثمَّ بشيءٍ من الادِّعاء، معتقدةً أنَّ تلك «الخربشات» شِعرٌ، وهو ما لم تكنه بطبيعة الحال.

يوهمك الحبُّ الأوَّل أنَّك شاعر، بل أنَّك نزار وشوقي ولامرتين مجتمعين. تمامًا كوهمك أنَّك عاشق زمانك، وأنَّ شفيع العشَّاق، القدِّيس فالنتين، لو كان له أن يختار مريدًا لاختارك. يتدفَّق ينبوع الكلمات لديك من مكانٍ ما، ومعه نزعتك إلى المزايدة العاطفيَّة في الوصف، لاعتقادك بأنَّ أحدًا لم يحبَّ مثلك، ولا بلغ في العشق مبلغك، أنت الذي بدأت من حيث انتهى العشَّاق، جاهزًا للموت في أوَّل حادث حبٍّ.

يا للحماقة!

كان ذلك الحبُّ يشغلني طوال النهار، بنشرته الجويَّة المتقلِّبة، وبمزاج الحبِّ الأوَّل الفائق الحساسيَّة، الذي يتحكَّم في تقلُّباته ما يبدو لي دليل ودٍّ، أو دليل صدٍّ، من ذلك الأستاذ. أيًّا كانت حالتي، كانت الأغاني المصريَّة تأتي لنجدتي، فقد كنَّا نتبارى في حفظها، وكأنَّنا عشنا قصص الحبِّ كلِّها.

كانت إحدانا مختصَّةً في أمِّ كلثوم، ترفض الغناء لأيِّ مطربٍ آخر، وتؤدِّي الأغنيات برصانةٍ وآهاتٍ تطابق شخصيَّة أمِّ كلثوم

وقامتها الفارعة، ولا ينقصها إلّا منديلها، دخلت إلى العشق مباشرةً من «الأطلال»، دون أن نعرف لها قصَّة حبٍّ تبرِّر ذلك الكمَّ من الأحزان.

وكان لدينا من كانت تخال نفسها شادية، وتشبهها خفَّةً وبهجةً، وكانت أغنيتها المفضَّلة «يا دبلة الخطوبة عقبالنا كلِّنا»، ظلَّت تغنِّيها لسنتين دراسيَّتين من دون أن يأتي نصيبها. وكانت لنا أيضًا فيروزُنا، طالبةٌ لأمٍّ سوريَّةٍ وأبٍ جزائريٍّ، أنيقةٌ رشيقةٌ تغنِّي في كلِّ الفصول «شتّي يا دنيي تَيْزيد موسمنا ويحلى». أمَّا عبد الحليم، فكان حبَّنا المشترك، لذا كنَّا نشترك في أداء أغانيه في كورالٍ جماعيٍّ في طريق عودتنا إلى البيت في الحافلة المدرسيَّة. وكنتُ من يغنِّي «وابتدا ابتدا المشوار وآه يا خوفي من آخر المشوار»، دون أن أدري أنَّني كنت أغنِّي قدري!

اكتشفت أنَّ «عبد الحليم» كان حبَّنا المشترك في الأغاني... كما في الصَّفِّ!

تدريجيًّا بدأت ألاحظ محاولات بعضهنَّ التَّودُّد إليه. أصبحتْ «شادية» تهتمُّ أكثر بمظهرها عندما يكون لنا درسٌ في الأدب العربيِّ، ولم أستسغ يومًا حديثها إليه كلَّ مرَّةٍ في نهاية الدَّرس. أمَّا طلبه منها أن تقرأ قصيدة ابن زيدون لولَّادة «إنِّي ذكَّرتك بالزَّهراء مشتاقا» وإلقاؤها لها بوجع عاشقةٍ، فقد عَدَدْتُه غوايةً منها وخيانةً منه. كنتُ كلَّما استدرجتها لتبدي رأيها فيه تطلق بعض النِّكات مُلمِّحةً إلى سذاجته وفشله في التَّدريس. طبعًا كانت تكذب، فقد غدت تتردَّد إلى مكتبه عند انتهاء الدَّرس، ورأيتهما مرَّةً مرتبكَين منسجمَين في حديثٍ ما، فتملَّكني حزنٌ وخذلانٌ كبيرٌ ويقينٌ بأنَّ كامل الشَّنَّاوي كتب في موقفٍ كهذا قصيدته «لا تكذبي، إنِّي رأيتكما معًا»!

«فيروز» أيضًا أصبحت غريبة الأطوار. غيَّرت تسريحتها، كما غيَّرت أغنيتها. صارت تصدِّع رؤوسنا بـ«يا قمر أنا ويَّاك»، و«نحنا والقمر جيران». أيُعقل أن تكون هي أيضًا واقعةً في حبِّه؟

صرتُ أرى معظم البنات في حالة استنفارٍ أنثويٍّ قبل درس الأدب العربيِّ، وأرى بهجةً وحماسًا يدبَّان في الصَّفِّ لم أرهما يومًا في بقيَّة المواد.

أصبح درس اللغة العربيَّة مبعثَ سهو وتوتُّرٍ لي. ما عدت أشارك في أيِّ نقاش، مشغولةً بتتبُّع سلوك البنات بحثًا عن دليلٍ لما كنت أتخيَّل من الشُّبهات. ثلاثة أرباع الحبِّ الأوَّل خيالاتٌ وغيرةٌ لا منطق لها، ربَّما لأنَّه يولد مندفعًا بهوس التَّملُّك والاستحواذ. سؤالٌ واحدٌ صار يشغلني:

«كلنا نحب القمر والقمر يحبّ مين»؟

ثمّ... ذات يوم...

ناداني عبد الحليم في نهاية الدَّرس، و«زيِّ الهوا» طارت بي الفرحة إلى مكتبه. وقفت أمامه بكلِّ خجلي وارتباكي. كان قلبي معلَّقًا إلى شفتيه يغنِّي:

«قل لي حاجة، أيّ حاجة، قل بحبك، قل كرهتك، بس قل لي أيّ حاجة»...

لأوَّل مرَّةٍ تأمَّلته عن قرب. كان جبينه العالي يلمع بقطراتٍ قليلةٍ من العرق، وقد علت وجنتيه حمرةٌ خفيفة. قال:

– فيه إيه يا أحلام، إنت ما بقيتيش معانا ليه؟

كيف أردُّ عليه؟ لم أجد جوابًا غير نظرةٍ حمَّلتها كلَّ البوح كما في مشهد شادية وهي تنظر إليه في فيلم «معبودة الجماهير».

واصل:

– عاوزك تركِّزي معانا أكثر...

ثمَّ أضاف بنبرةٍ أخفَّ بعد شيءٍ من الصَّمت، كما لو كان يوشوشني سرًّا:

– أصلك بتعنيني.

وقبل أن أستوعب الموقف، رأيته يغادر.

غادر «عبد الحليم» حاملًا قلبي الصَّغير في حقيبته الجلديَّة، وبقيت واقفةً لأقبض على تلك الكلمة «بتعنيني». كيف لقدميَّ أن تحملانا، أنا وهذه الكلمة؟!

لا يمكن لأستاذٍ أن يقول أكثر من هذا على سبيل الاعتراف العاطفيِّ، وهو تحت أنظار ثلاثين طالبة.

أن أعنيه يعني أنَّه يحبُّني. ما قاله دليلٌ على أنَّه في انشغاله عنِّي كان يراقبني، وأنَّه غير معنيٍّ بسواي، وأنَّه كان يفكِّر بي كما كنت أفكِّر به.

حمَّلتُ تلك الكلمة ما شئت من تحليلاتٍ وأمنيات، وسمعتُ ما يناسب فرحتي من أغنيات. كلُّ شيءٍ غدا جميلًا، ولا أحد فهم ما بي.

اجتاحتني رغبةٌ في أن أوزِّع فرحتي على النَّاس، أن أستوقفهم في الشَّارع وآخذهم بالأحضان، وأخبرهم أنَّ أستاذي يحبُّني وأنَّه من قال لي ذلك. توقَّفت عند ساعة الأزهار لأتذكَّر في أيَّة ساعةٍ قال لي ذلك، إذ لم أكن أملك ساعةً.

لقد قال لي ذلك على السَّاعة الثَّانية والنِّصف ظهرًا، تقول الأزهار.

كلُّ الأزهار كانت متفتِّحةً لتنقل لي الخبر، كلُّ مشاهد الحبِّ في فرحته القصوى، تلك التي شاهدتها في الأفلام، عشتها

في ساعةٍ قضيتها بين الثَّانويَّة والبيت، وكأنَّني أطير مشيًا على سولفيج موسيقيٍّ.

«يا صحابي يا أهلي يا جيراني... أنا عايز أخدكو بأحضاني».

كان الأهمُّ ألّا تذهب بي الفرحة إلى أن آخُذ أمّي بالأحضان، فأوقظ شعلة ذكائها الأنثويِّ، لتزيد من مراقبتها لي وتشدِّد صرامتها معي، فهي أيضًا كانت تشاهد الأفلام المصريَّة، وتستمع لعبد الحليم وعبد الوهاب، ولن يصعب عليها فكُّ شيفرة فرحتي!

كنت أفكِّر به بلا هوادة، وأحتاج أن أتحدَّث عنه إلى أحد. لم أجد سوى «أمِّ كلثوم»، أكثر زميلاتي رصانةً وأبعدهنَّ عن الاهتمام به. لم أبح لها بحقيقة مشاعري، ولكنَّني كنت آتي على ذكره أمامها ببراءةٍ كاذبة، لمتعة ذكره فحسب.

قلت لها ممازحةً:

– أما لاحظت أنَّ عبد الحليم أصبح أكثر تأنُّقًا؟

سألتني متعجِّبةً:

– أيُّ عبد الحليم؟

أجبتها غير مصدِّقةٍ أنَّها لم تفهم قصدي:

– أعني أستاذ الأدب العربيِّ. أما رأيت كم تغيَّر خلال ثلاثة أشهر؟ ربَّما لأنَّه الأعزب الوحيد الذي يدرِّس في ثانويَّتنا ويريد أن يكون فتى الشَّاشة الأوَّل.

ردَّت ضاحكةً:

– تسمِّينه عبد الحليم؟ حرامٌ عليكِ، إنَّه لا يشبهه في شيء، بل أراه يشبه عبد النَّاصر أكثر!

قلت مندهشةً:

– عبد النَّاصر؟! كيف هذا؟ عبد النَّاصر ماردٌ بطلَّةٍ مهيبةٍ وعينين ساحرتين، من أين له نظرة عبد النَّاصر؟!

ردَّت:

– له جبينه العالي وأنفه الفرعونيُّ... أوَّل ما رأيته شبَّهته بعبد النَّاصر.

سألتها ضاحكةً:

– أنفه الفرعونيُّ؟ من أين جئت بهذا الوصف؟

– ألا تذكرين؟ لقد درسنا هذا. لكلِّ قومٍ ملامح تدلُّ على أصولهم حسب شكل الجمجمة وشكل العينين والأنف ولون البشرة، وهو ما يميِّز الأجناس البشريَّة بعضها عن بعضٍ ويشكِّل الفرق بين ملامح الأفارقة والأوروبِّيِّين والفراعنة والأمازيغ...

لا أذكر كيف فاتني درس التَّاريخ هذا. ثمَّ كيف لي أن أعرف أنَّني في أوَّل قصَّة حبٍّ سأحتاج إلى علم الأجناس؟!

بعد أعوامٍ سأقع على نظريَّةٍ تاريخيَّةٍ غدت شهيرةً، أطلقها العالم الفرنسيُّ باسكال، تقول: «لو كان أنف كليوباترا أقصر لتغيَّر وجه العالم كلُّه»، لأنَّه لو كان كذلك لما أعطى انطباع قوَّة الشَّخصيَّة الجذَّابة ليوليوس قيصر أو أنطونيو، ولما وقعا في حبِّها... الأمر الذي كان سيغيِّر مسار التَّاريخ!

إن كان قيصر وأنطونيو بكلِّ عظمتهما قد هزمهما أنفٌ فرعونيٌّ، فكيف كان لي أن أنجو من لعنة الفراعنة، وأنا مجرَّد صبيَّةٍ عزلاء في السَّادسة عشرة تحبُّ لأوَّل مرَّة؟!

كلام هدى شوَّش مشاعري وغيَّر مسار قلبي، في حياةٍ كنت أعيشها كفيلمٍ مصريٍّ. أكنت منذ ثلاثة أشهُرٍ أحبُّ عبد النَّاصر لا عبد الحليم؟

كان عليَّ تدريجيًّا أن أتأقلم مع واقعي الجديد وأُقنع قلبي بأنَّ الذي كان يدرِّسنا هو«الزَّعيم». صحيحٌ أنَّه لم يكن يملك ابتسامته

السَّاحرة تلك، ولا صوته الجهوريّ الرَّخيم، وكان يتحدَّث كأنَّه يوشوشنا على استحياء، لأنَّه لا يلقي خطابًا جماهيريًّا بل درسًا لصفٍّ من الصَّبايا المشاكسات، ولكنَّ الزُّعماء الحقيقيِّين لهم دائمًا مسحةٌ من حياء، كما كان بن بلَّة وقتذاك وهو يتوجَّه إلينا في خطاباته الأولى.

كنَّا صبايا بأحلامٍ مهذَّبةٍ ومشاعر متَّقدة. وكانت الجزائر الفتيَّة تعيش انصهارًا وجدانيًّا بين مراهقتها العاطفيَّة وتلك السِّياسيَّة، فارتمت في حضن العروبة، حيث استقبلها العرب بفيضٍ من الحبِّ.

في أوَّل عيدٍ للاستقلال وقف عبد الحليم ممسكًا بيد الرَّئيس بن بلَّة من جهةٍ وبيد تشي غيفارا من الجهة الأخرى وهو يغنِّي: «قضبان حديد اتكسرت، والشَّمس طلعت نوَّرت أرض البطولة، أرض العروبة، أرض الجزائر».

كانت لحظةً وجدانيَّةً خالدةً بكت فيها الجزائر، ووقعت في حبِّ الرِّجال الثَّلاثة.

صادف أن كان لنا مدرِّس موسيقى مصريٌّ، خصَّص حصَّته لتعليمنا كلَّ أغنيةٍ وطنيَّةٍ مصريَّةٍ حال بثِّها في إذاعة «صوت العرب». أغنياتٌ من تلك الأوبِّريت الوطنيَّة التي يشترك في أدائها كوكبةٌ من كبار المطربين، وتمجِّد كلَّ بلدٍ عربيٍّ على حدة. كان حماسنا كبيرًا لأدائها، فقد كنَّا جميعنا تقريبًا مطربات، ولم نكن نرضى بأقلِّ من أن نغنِّيها كلَّها!

هكذا، حفظنا «وطني حبيبي، وطني الأكبر» و«قصَّة شعب» و«عاش الجيل الصَّاعد» عن ظهر قلب، وغنَّينا «قلنا حنبني وده احنا بنينا السَّدِّ العالي يا استعمار بنيناه بإدينا السَّدِّ العالي».

ما تخيَّلت لحظةً أن يلاحقني السَّدُّ العالي حتى لبنان. فحين تزوَّجتُ، فوجئت بوالد زوجي يهديني ليرةً ذهبيَّةً كبيرةً أصدرها بنك مصر كعملةٍ تذكاريَّةٍ احتفالًا بتدشين عبد النَّاصر للسَّدِّ العالي!

معقول؟!

***

«في الحبّ كلّ هِبةٍ مكيدة، وكلّ شهقة فرح هي مشروع تنهيدة».

مذ قال إنَّني أعنيه، لا شيء غدا يعنيني سوى الاستعداد لموعد درسه. الأصعب كان أن أحضر الدَّرس دون أن تفضحني مشاعري. أيُّ حدثٍ جللٍ أن يحبَّني عبد النَّاصر!

أوَّل قرارٍ اتَّخذته، كان عودتي للمشاركة في كلِّ نقاشات صفِّ الأدب العربي. كنت أقضي سهراتي في المطالعة كي أكون جاهزةً للإجابة على أيِّ سؤال، فما يكاد «جمال» يطرح سؤالًا حتى أرفع يدي وقلبي يغنِّي:

«ردِّينا عليك يا جمال، وإدينا بإديك يا جمال، ومشينا معاك يا جمال».

أعتقد أنَّ «جمال» كان صادقًا وبريئًا. كان يحاول أن يحفظ مقامه برصانةٍ كاذبةٍ غالبًا ما تكتشفها الطَّالبات عند ارتباكه وخجله في أثناء قراءتي لقصيدة، أو حين أتوجَّه إلى المكتب في آخر الدَّرس لأناقشه.

ربَّما هو الآخر كان سنة أولى حُبّ!

كان يكتب على السُّبُّورة أبياتًا شعريَّةً يحزنني أن يمحوها في آخر الدَّرس، متمنِّيةً لو آخذها معي، واثقةً من أنَّها لي وحدي، فكيف لرسائله أن تمحى؟

كنَّا على مشارف عطلة الرَّبيع حين طلب منِّي أن أحضر إلى المكتبة. لا أذكر الذَّريعة. كلُّ ما أذكر أنَّ الأمر فاجأني، وأنَّني تمنَّيت لو أنَّني تجمَّلت للحدث... ولكن كيف؟

ذهبت إلى أوَّل موعد حبٍّ بضفائري ومريولي المدرسيِّ، لا زينة على وجهي سوى حمرة خجلي، والأرجح من دون قلب، فأغلب الظَّنِّ أنَّه طار منِّي في الطَّريق إليه.

سلك مدخلًا يناسب الموقف:

– أنا مبسوط منِّك يا أحلام... عارفة إن موضوع الإنشاء اللي بتكتبيه بقراه مرتين؟ إنتِ متمكِّنة قوي في العربيَّة وجملك حلوة... إنتِ بتقري إيه؟

قلت:

– أقرأ المنفلوطي... العقَّاد... الرّافعي... السِّباعي.

لم أتعمَّد ذكر كتَّابٍ مصريِّين بالتَّحديد، ولكنَّ كلَّ الكتب المتوفِّرة في المكتبة لدينا كانت مصريَّة، والحقيقة لم أكن قد قرأت منها إلّا القليل.

سألني بسعادة:

– إنتِ بتحبِّي الأدب المصري؟

أجبته وكأنَّني ألفظ اعترافًا عشقيًّا:

– أحبُّ مصر.

وأضفت على استحياء:

– وأحبُّ عبد النَّاصر.

لا أدري إن كان أدرك أنَّني أعنيه.

تناول من الرَّفِّ كتابًا لإحسان عبد القدُّوس وأمدَّني به قائلًا، وقد انتقلت إلى وجنتيه حمرةُ وجنتيَّ:

– وعبد النَّاصر بيحب الجزائر.

لمست يده يدي عبورًا وهو يناولني الكتاب. نزل بيننا صمتٌ شبيهٌ برجفة الاعتراف الأوّل. تمامًا كما في الأفلام. كان لا بدَّ هنا من أن يتوقَّف الكلام، لاستيعاب كلِّ هذه الكلمات المتقاطعة.

ثمَّ قال بصوتٍ مسموعٍ ونحن نفترق:

– حتحبِّي الكتاب ده... عاوزك تقريه عشان أسلوبك يبقى أجمل.

كما في الأفلام المصريَّة، قصَّة حبّنا كانت تحتاج إلى «حسَّادٍ» و«عُزَّال».

فقد كانت هناك أستاذة مسؤولة عن المكتبة تراقب من بعيد حوارنا.

فافترقنا، كي لا نثير فضولها أكثر..

أكان هذا هو حقًّا ما أراده من دعوتي إلى المكتبة؟

كم من الأوهام الجميلة وُلد يومذاك ممَّا لم نقله!

قضيت أيَّامًا في فكِّ شيفرة ذلك الكتاب، بحثًا عن رسالةٍ ما تحملها لي تلك القصَّة، بما بين دفَّتيها من بوحٍ عاطفيٍّ رومانسيٍّ.

الحبُّ الأوَّل جارفٌ كسيلٍ لا تدري أين يمضي بك، ذلك لأنَّه في الأصل حبٌّ فاقدٌ صوابَه يحوّلك إلى مركب مترنّح في تقلّب مشاعره.

أعدت له الكتاب بعد أيَّام في ظرفٍ، بعد أن وضعت بين صفحتين من صفحاته خصلةً من شعري من دون أن أرفقها بأيَّة كلمة. صغيرةً أدركت أنَّ من يهب شيئًا ثمينًا عليه ألّا يرفقه بكلام!

بعد ذلك، تركت له وردةً مجفَّفةً بين أوراق الإنشاء التي كان يمرُّ بنا ليجمعها، فأخذها منِّي برفقٍ، متوقِّعًا أنّ شيئًا ما بينها.

كان زمنًا الحبُّ فيه أن تترك للحبيب شيئًا منك، وأن تقضي أعوامًا تخبِّئ ما أهداه إليك. لم تكن الكلمات تكفي، مع أنَّها كانت

مكتوبةً في رسالةٍ نحملها معنا ليل نهار كتعويذة. كان الحبُّ يعيش على الذِّكريات المهرَّبة، والتَّفاصيل المخبَّأة، والوعود المقطوعة، والأسرار التي على صغرها تبدو لنا كبيرة.

كنت تلميذةً عاشقةً ومشاغبةً ومرتبكة، كمن يخفي جريمة.

وكان هو، بقلمه الأحمر، يردُّ على ما كنت أسرِّبه إليه في كلِّ واجبٍ مدرسيٍّ، بتعليقٍ مشفَّر: «مؤثِّر» «واصلي».

هل أواصل الكتابة الجيِّدة؟ أم أواصل إرسال الورود المجفَّفة؟ أم أواصل سماع الأغاني العاطفيَّة؟ أم أواصل النِّضال وحفظ الأغاني التي تمجِّد السَّدَّ العالي؟

ما الحبُّ إلّا تساؤلٌ لا ينتهي، لأنَّ كلَّ أجوبته مبنيَّةٌ على وهمنا. كذاك الكتاب الذي أمدَّني به وغدا رسالةً عاطفيَّةً قضيت أيَّامًا في محاولة فكِّ شيفرتها، أو كقوله «عبد النَّاصر يحبُّ الجزائر». كلامٌ بديهيٌّ، ولكنَّه غدا تصريحًا عاطفيًّا حرمني النَّوم لأيَّامٍ. أأكون أنا الجزائر؟ الجزائر التي كان يحملها كلُّ العرب في وجدانهم بسبب الثَّورة، والتي وقعوا في حبِّ بناتها وكأنهنَّ جميعهنَّ جميلة بوحيرد؟!

عندما نقع في الحبِّ، تغيِّر الكلمات معانيها لفرط ما يكرِّرها القلب. كلُّ همسةٍ تغدو لمسةً تعبرنا كقشعريرة... في كلِّ قصص الحبِّ، المؤلِّف والسِّيناريست هو الخيال. لذا عندما نرتطم من علوّ أوهامنا بالواقع ينتهي الحبُّ.

وهكذا واصل خيالي كتابة ذلك السِّيناريو المجنون.

***

«أشياءُ جميلة ستقومُ بها لأوّلِ مرّة.
ولن يدريَ أحدٌ ما وهبتَه، ولا خجلَ ارتباكِكَ الأوّل.
أشياءُ ستحتفِظُ بأسرارها، تُشكّكُ الآخرينَ في براءتِك،
لِفَرْطِ خُبثِها وقلّةِ حيلتِك».

كان الصَّمت بيننا يزداد اشتعالًا بحبٍّ لا يفضي إلى لقاء، والآخرون من حولنا يزدادون اشتباهًا في ما بيننا. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي قال لي فيه ونحن على مشارف نهاية السَّنة:

«أنا راجع مصر... أشوفك ازَّاي؟».

خبران دفعةً واحدةً. هل أبكي أم أسعد؟ بدل أن أسأل لماذا يغادر؟ أصبح السُّؤال كيف أراه؟

«ازَّاي؟ ازَّاي؟».

لم يحدث أن واعدت أحدًا، ولا عرفت مكانًا يلتقي فيه المحبُّون غير المكتبة. أيلتقون في المقاهي التي تقدِّم الوجبات الخفيفة، حيث يختفون في أقصى القاعة «كوبلات»؟ أم على مقعدٍ في حديقةٍ عموميَّةٍ حيث يغامر بعض العشَّاق من الطَّلبة بالجلوس؟

لا يمكن أن ألتقيه في محيط الثَّانوية. كان الأفضل أن نلتقي في منطقة البريد المركزيِّ، حيث تكثر المقاهي لقربها من كلِّيَّة الآداب، ولكنَّها منطقةٌ قريبةٌ من بيتنا. ماذا لو رآني أحدهم وأخبر أبي؟

أرَّقني السُّؤال، وقبل أن أعثر على جواب، فوجئت به بعد أيَّامٍ يسألنا إن كانت لدى إحدانا حقيبة سفرٍ يمكن أن تدركه بها. خبر مغادرته أصاب الصَّفَّ بصدمةٍ انفضحت بها مشاعر البنات.

دون تفكير، سبقتُ الجميع معلنةً أنَّني من سيحضر الحقيبة، خشية أن تسرق منِّي إحداهنَّ تلك المهمَّة العاطفيَّة. أمَّا المهمَّة الأصعب التي غفلت عنها، فكانت إقناع أمّي بذلك!

لو أنَّه طلبها منها شخصيًّا، لأعطته أجمل حقيبة، ولكن عندما كان الأمر يتعلَّق بي أو بأبي كانت أمّي تعارض رغبتنا، لاعتقادها أنَّ ثمَّة أمرًا ما نخفيه عنها، أو أنَّ هناك استغلالًا ما لطيبتنا. كتلك العائلة البولونيَّة من المتعاقدين التِّقنيِّين الذين أقاموا في البناية المقابلة لنا، وكانوا حضروا كما المئات في سبعينيَّات القرن الماضي من كلِّ البلدان الاشتراكيَّة إلى الجزائر لمساعدتها في النُّهوض. أوصاها أبي بهم خيرًا، فأيقظ ذلك في البداية ريبتها، ولكن بعد زيارتين لنا، صارت تتعاطف معهم، حتى كادت تفرغ بيتنا لتفرش بيتهم.

– أمِّي بالله... أين تريدين أن يجد المسكين حقيبة؟ هل رأيت محلًّا يبيع الحقائب في الجزائر؟ ثمَّ إنَّه غريب لا يعرف البلاد... ويدرِّس طوال النَّهار... أين يجد الوقت للبحث عن حقيبة؟

– وأنتِ واش راحْلَك فيه؟

«ما دخلي به؟»! لم أجرؤ على أن أقول لها إنَّه عبد النَّاصر. قلت:

– هو مصريٌّ... مصر قدَّمت الكثير للجزائر في الثَّورة... تذكرين كم كان عبد النَّاصر يحبُّ الجزائر!

صمتت. فقد كانت أيَّام حرب التَّحرير تستمع إلى «صوت العرب» يبثُّ من القاهرة. ثمَّ إنَّ ما قلته كان الحقيقة، فالحقائب لم تكن معروضةً للبيع كما على أيَّامنا، حتى إنَّني لا أدري من أين كان النَّاس يشترونها، وفي أحسن الأحوال، لم يكونوا يقتنون أكثر من واحدة. أمَّا نحن، فكان عندنا حقيبتان، واحدةٌ جلديَّةٌ بنِّيَّةٌ كبيرةٌ وجميلةٌ أحضرها أبي من إحدى سفراته إلى روسيا، وأخرى جئنا بها من تونس في السَّيَّارة ولا يمكن أن يأتمنها المرء على أغراضه من حيٍّ إلى آخر، فما بالك من بلادٍ إلى أخرى، فقد سبق أن فضحتني وانفتحت

بكاملها في منتصف شارع بن مهيدي، وراح المارّة يساعدونني على جمع القبّعات الصُّوفيّة وجاكيتات الأطفال التي اشتغلتها أمّي بالكروشيه وتناثرت على الأرض، بينما كنتُ في طريقي لتسليمها لصديقةٍ لأمّي كانت قد افتتحت محلًّا جميلًا للثِّياب، منحتها إيَّاه الدَّولة بصفتها زوجة ضابطٍ شهيد.

كان زمنًا معظم الملبوسات فيه تُحاك يدويًا. لم تكن البضاعة الصِّينيَّة قد تدفَّقت كما اليوم على أرجاء المعمورة وأنست النساء استعمال أيديهنّ.

من أين نأتي بالحقيبة؟ كدت أسأل جارتنا مدام تكسيه إن كان لديها حقيبةٌ ليست في حاجةٍ إليها، ولكن أيُّ فرنسيٍّ في الجزائر سيتخلَّى عن حقيبته؟ إنَّه يتوسَّدها. لقد تركوا وهم يغادرون أشياء كثيرةً صَعُبَ عليهم حملها، ولكن لا أحد منهم ترك حقيبة!

في النِّهاية، سألتْ أمّي صديقة لها سافرت مرارًا إلى فرنسا، أين يمكن أن تجد حقيبةً لأستاذٍ مصريٍّ يغادر الجزائر، وكانت السَّيِّدة كريمة، فأرسلت مع ابنها حقيبةً جميلةً هديَّة. كان زمنًا معطاءً، لا برد فيه، قلوب أبنائه صافية، وهَمُّ أيِّ عربيٍّ فيه يغدو هَمَّ الجميع.

شعرت بقرابةٍ بيني وبين تلك الحقيبة التي سيضع فيها أشياءه، وبغيرةٍ لأنَّه سيسافر برفقتها بينما لا أستطيع ذلك. احتفظت بها في غرفتي، وكنت أفتحها بين الفينة والأخرى وأتأمَّلها وأنا أفكِّر في تلك البلاد البعيدة التي ستسافر إليها معه... وأبكي.

لعلَّ كلَّ ما كتبته بعد ذلك عن وجع الحقائب، وُلد من تلك التَّفاصيل والمشاعر الأولى، التي تضخِّمها المراهقة فتبدو الأشياء أكثر وجعًا.

في الـدَّرس التَّالي، أخبرته بأنَّني وجـدت له حقيبة، ولكن لا يمكنني إحضارها إلى الثَّانويَّة، فاقترحت أن أتغيَّب صباح الخميس عن الصَّفِّ، وأسلِّمه إيَّاها في محطَّة الباص الذي كان يأخذه عادةً.

بدا سعيدًا ولكنَّه قال:

– ازَّاي كده؟ معقول ما أودَّعكيش؟!

– أنا أيضًا أريد ذلك... ولكن أين نمضي بالحقيبة؟!

كان الموقف مضحكًا، ولكن لأنَّنا كنَّا في فيلمٍ مصريٍّ، دمعت عيناي وأنا أفكِّر في عذاباتنا بسبب حبِّنا «الكبير».

– متشكِّر قوي... (وأضاف بعد هنيهةٍ من الصَّمت)... حبيبتي.

ثمَّ واصل:

– أستنَّاكِ السَّبت السَّاعة إتناشر وربـع فـي محطَّة الباص اللي بيروح...

كيف نسيت اليوم أين كان يروح ذلك الباص الذي ظلَّت روحي معلَّقةً به لأيَّام!

في انتظار ذلك السَّبت الموعود الذي انتظرته دهرًا، حلمت، غنَّيت، غيَّرت أكثر من مرَّةٍ ثيابي، أعددت صيغًا عاطفيَّةً لحواراتٍ محتملة. ثمَّ، في ذلك الصَّباح، سابقت لهفتي إليه. بدا لي الطَّريق طويلًا مع أنَّه كان نفسه الذي كنت أسلكه بالحافلة كلَّ يوم. كنت أسير على سولفيجٍ موسيقيٍّ تنطلق نوتاته أينما وضعت قدميَّ، أعيش فيلمًا مصريًّا أحداثه تدور في الجزائر.

ثمَّ جاء...

لا أدري من منهما جاء. لا، لم يكن القادم عبد النَّاصر، بل عبد الحليم. «جانا الهوى جانا ورمانا الهوى رمانا». وأيُّ شيءٍ غير الهوى قد يجعلني أقف في محطَّة باص، في مجرى هواء الجنون، في مرمى

الأنظار والفضول، حاملةً حقيبة سفر، بينما أترابي يعبرن حاملاتٍ حقائب مدرسيَّة؟

قال عبد الحليم بخجل:

– أنا آسف، تأخَّرت عليكِ... بقى لك زمان مستنيّة؟

لو عادت بي الأيَّام لأجبته: «لم تتأخَّر، بل الحبُّ هو الذي يأتي دائمًا متأخِّرًا».

ولكن لم تكن لي سوابق عاطفيَّةٌ لأعرف ذلك. ولو كان كذلك لأدركت باكرًا أنَّ ذلك الجنون، الذي هو توأمٌ للحبِّ، كان محض صاعقةٍ عشقيَّةٍ أولى، تسقط على رؤوس معظم التَّلاميذ في هذا العالم، فيقعون في حبِّ من يرونه يقف مهيبًا خلف المكتب أو أمام السَّبُّورة، ويصنعون منه أسطورة.

الأفلام المصريَّة التي ما تركت موقفًا عاطفيًّا بين اثنين إلّا وصوَّرته، فاتها مشهد أستاذٍ وتلميذةٍ في دور «حبيبين»، يقفان في محطَّة باصٍ ثالثهما حقيبة، تمسك بها تلميذةٌ لن تسافر، وهي أصغر من أن تدري أنَّ الحبَّ هو من يغادر دومًا، وبأنَّه لا يأتي إلّا ليمضي.

***

«أشياءُ تَبكي أصحابَها، وأخرى تَسْخَرُ من عشّاقٍ يبكونَ شيئًا
ما وُجدَ يوما سوى في مخيِّلتِهِم.
أشياءُ تعدُك بأشياءَ جميلةٍ، وأخرى تتوعّدُك.
أشياءُ تَكذِب. أشياءُ تَنتحِب.
أشياءُ تحتالُ عليك، وأخرى لم تصدّقْها... إلّا بعدَما انتهى كلُّ شيء».

كنّا زمن الخطب العصماء، والتضحيات الحمقاء، والوعود العاطفية الأبدية، والأحلام الساذجة الوردية. كلّ شيء كان مفرطًا زائدًا عن حدّه، حتى الأوهام والبكاء.

باكرًا جلست على مقاعد اللَّهفة، وامتحنني الحبُّ على نار اللَّوعة. باكرًا حلمت وتعذَّبت وتخرَّجت منكسرةً بتفوُّق. ذلك لأنَّ ما يلزمنا في الحياة نتعلَّمه خارج الصُّفوف الدِّراسيَّة.

في أثناء وقوفنا، مرَّت على الرَّصيف المقابل «فيروز»، ثمَّ «شادية» التي كنت أخبرتها بأنَّني على موعدٍ مع الأستاذ، لا لشيءٍ إلّا لكي أهزمها في الجولة الأخيرة، لأنَّه كان لا بدَّ من أن أُشهد أحدًا على أنَّني التي أحبَّها الأستاذ. ثمَّ مرَّت طالباتٌ من صفوفٍ أخرى لا أعرفهنَّ ولكنَّهنَّ كنَّ بالتَّأكيد يعرفنه. كنَّا في ساحةٍ مكشوفةٍ، وكان لا بدَّ من أن نقرِّر بسرعةٍ ما علينا فعله. ما كان ينبغي لنا أن نطيل البقاء، فقد كنَّا الشُّبهة بعينها. سرقنا بضع لحظاتٍ أخرى من التَّمتمات والتَّنهُّدات وافترقنا.

كان حزينًا، أو ربَّما توهَّمت ذلك.

قال: «حتوحشيني»، ثمّ ناولني ورقةً عليها عنوانه وأضاف:

– حاستنَّى جواباتك... ابقي اكتبي لي...

بدأت الدُّموع تنحدر من عينيَّ.

لم أكن أعرف بعدُ أنَّ إله الشَّمس «رع»، في الأساطير الفرعونيَّة، إذا بكى لا يبكِي دمعًا... بل عسلًا. ربَّما لهذا السَّبب احتفظ الرَّجل الفرعونيُّ بعسله، ووحدي ذرفت الدُّموع.

وشوشني:

– بَحبِّك.

ولم يضف إلى تلك الكلمة شيئًا. كانت كلمةً سريعةً ومسروقةً، من فضول غرباء بدأت تزدحم بهم المحطَّة، ولكنَّها كانت بوقعٍ صادقٍ وجَرْسٍ مرتجفٍ، سرَّبها إليَّ كما تُسرَّب الأجوبة في امتحانات التَّخرُّج.

تمامًا كما قال الشاعر:

فافترقنا حولًا فلمَّا التقينا ... كان تسليمُه عليَّ وداعَا

أخذه الباص إلى حيث لا أدري، وعدت إلى البيت وقد غدا قلبي حقيبة دموعٍ قد تتدفَّق حمولتها في أيَّة لحظة، مثقلةً بمشاعر متناقضة، فقيرةً إلى صوته وثريَّةً بما قاله لي، حزينةً وسعيدةً لأنَّ في جيبي عنوانه صكًّا عشقيًّا لم يعطه لسواي، ثريَّةً حتى ليمكنني القيام بكلِّ مصاريف العائلة في غياب أبي القابع منذ أشهرٍ بالمستشفى، وتسديد كلِّ الأوراق الخضراء التي كانت أمّي تحتفظ بها، وتطلب منِّي بين الحين والآخر التَّأكُّد من تاريخها كي لا يستحوذ البنك على مصاغها المرهون لديه.

ما كنت أدري أنَّ بإمكان كلمة «أحبُّك» أن تثري المرء وتملأ جيوبه أحلامًا، لأنَّه سمعها لأوَّل مرَّةٍ في الواقع لا في الأفلام، وأن تبكيه وتفقره في الوقت نفسه، لأنَّها آخر ما قاله له أحدهم قبل أن يمضي، وقد لا يراه مجدَّدًا.

أحدهم؟

لا... بل قالها «الزَّعيم»...

«قالها الزَّعيم من غير ما يحلف، عُمر الزَّعيم ما يقول ويخلف...».

بعد أيَّامٍ، دقَّ جرس الحصَّة الأخيرة معلنًا نهاية الأحلام. كما لو كان منبِّهًا صباحيًّا يوقظني من قصَّةٍ كتبتها دموعي على الوسادة، لعجزي آنذاك عن كتابتها بالحبر.

حبَّنا لم يعش حتى الفصل اللاحق. كان ابن فصلٍ دراسيٍّ واحدٍ، لا علاقة له بتتابع الفصول.

رحل صيفًا مع نهاية السَّنة الدِّراسيَّة، وتقول الأفلام المصرية بأنّ صاحب الحقيبة، سيلتقي هناك بتلميذة غيري أو بصبيّة تنسيه أمري، أثناء غرقي في حزن ظننت حقائب الشتاء جميعها غير قادرة على حمله.

جبَّارٌ هو الحبُّ. يجعلك تعيش فجأةً وتموت فجأة. تنجبك كلمةٌ من أربعة أحرف: «أحبُّك»، ثمَّ، في لحظةٍ لم تتوقَّعها، يقتلك الغياب المباغت، وكلُّ الكلمات التي لن تقال بعد الآن، وأسئلةٌ لا تملك لها جوابًا.

كم بكيت ذلك الرَّجل! يا للحماقة... أليس من المضحك أن أكون بكيتُ إلى ذلك الحدِّ رجلًا لا أذكر اليوم اسمه؟!

كان عليَّ أن أعي باكرًا أنَّ بعض الدُّموع يُنسى، وبعض الوجوه يُمحى، وأنَّه «مثلما تطرد الغيومُ الغيومَ / الغرامُ الجديد يمحو القديما».

كما يقول نزار.

لكنّي لم أكن قد التقيت «نزار» بعد لأدرك ذلك!

***

«على جسر المسيَّب سيِّبوني».

بعد الزَّمن المصريِّ، دخلنا الحقبة العراقيَّة، بمجيء أستاذٍ للرِّياضيات عراقيِّ الجنسيَّة. شابٌّ ثلاثينيٌّ وسيمٌ وخجول، كان يعمل مهندسًا كهربائيًا وتطوَّع بفيض شعورٍ قوميٍّ للتَّدريس في الجزائر نصرةً للعربيَّة. وجد نفسه مصادفةً في ثانويَّةٍ للبنات. كان دائم الحياء والارتباك، فلا هو عرف الطَّريقة المثلى للتَّصرُّف معنا، ولا نحن عرفنا فكَّ شيفرته للتَّواصل معه، نحن اللائي لم نشاهد أفلامًا عراقيَّةً، ولا

وصلتنا أغنيةٌ من هناك، ولا سمعنا بدجلة والفرات، ولا حتى باسم من كان يحكم العراق آنذاك. ولكن كنَّا نحبُّ العراق حبًّا عظيمًا كإيمان العجائز، دون الحاجة إلى دليلٍ أو إلمامٍ بالتَّفاصيل. كان العراق بالنِّسبة إلينا شيئًا خرافيًّا، رمزًا للمجد والتُّراث العربيِّ، ولهارون الرَّشيد والعصر الذَّهبيِّ، وكان بلد الشُّعراء، لكثرة عدد شعرائه الذين درسناهم. ألم يقل محمود درويش لاحقًا: «الشِّعر يولد في العراق، فكن عراقيًّا لتصبح شاعرًا يا صاحبي».

قبل أن تظهر على أستاذنا علامات الشِّعر، ظهرت عليه أعراض العشق. لم يمرَّ وقتٌ طويلٌ حتى وقع في حبِّ إحدى الطَّالبات، حبٍّ عذريٍّ رومانسيٍّ على طريقة جميل بثينة، ولا عجب، فقد كان اسمه «جميل» وهو اسم لا عهد لنا به، أمَّا بثينة فكان اسمها «عفيفة». يا للمصادفة!

بدا الرَّجل عاجزًا عن التَّحكُّم بمشاعره، دائم النَّظر إليها، يُظهر اهتمامًا خاصًّا بها، مردِّدًا «عفيفة بنيَّة خلوقة»، كلماتٌ جديدةٌ علينا، فنحن لا نسمّي الصَّبيَّة «بنيَّة» ولا نقول «خلوقة»، فصرنا نردِّد القول ضاحكين، ثمَّ بحماسٍ عراقيٍّ قرَّر أن يخطبها، وبشعورٍ قوميٍّ اصطحب معه لخطبتها مجموعةً من الأساتذة، من كلِّ بلدٍ عربيٍّ جاء بأستاذ، وكانت تترأَّس وفد «الجامعة العربيَّة» هذا سيِّدةٌ مصريَّةٌ كانت تدرِّسنا الإنكليزيَّة. ولأنَّ معرفته بالجزائر لم تكن تفوق معرفتنا بالعراق، لم يتوقَّع «جميلنا» أن يكون والد البنيَّة رجلًا صارمًا في تربيته، أرسل ابنته لتدرس لا لتتمعشق أو تأتيه بعريس، فكان ردُّ فعله مفاجئًا، إذ منعها من العودة إلى الثَّانويَّة. وهكذا، أصبحت كلُّ شروط الدِّراما متوفِّرةً لإيقاظ نزعة العراقيِّ إلى الحزن، وتفجير ينابيع الدُّموع والشِّعر.

وجدتني أتابع وحدي هذا المسلسل العراقيّ، بعد أن كلّفني «جميل» بإيصال رسائله إلى «بثينة» التي حجبوها عنه كما في زمن الشعراء العذريين، فكنت أواسيه وأنقل إليها الرّسائل مع الدُّروس، وكانت الرّسائل تتخلّلها أسهمٌ وقلوبٌ حمراء ووعودٌ أبديّةٌ بالوفاء. ثمّ، شيئًا فشيئًا وهو يروي لي عذاباته، بدأ الرّجل يتعلّق بي، وبدلًا من تسليمي الرّسائل صار يطيل الحديث إليّ، واجدًا فيَّ عزاءه، حتى كاد المسلسل العراقيُّ أن يتحوّل إلى فيلمٍ مصريٍّ، وكاد الرّجل أن يأتي بالمجموعة نفسها لخطبتي، فهو كما بدا كان مصرًّا على عقد قرانه على الجزائر!

لا أدري كيف انتهت حكاية العاشق الولهان، فقد غادرتُ الثّانويّة، وتركته ضائعًا «على جسر المسيّب» يواصل كتابة الأشعار.

الجزء الثاني

الفصل الأوّل

«بعض المعارك يجب أن نخسرها
لكي نكتشف أنّنا كنّا نقاتل من أجل وهم».

سيمون فيل

صغيرةً وقعت في قبضة التاريخ. أصعب من الوقوع في الحب، الوقوع باكرًا في إرث الذاكرة.

كان التاريخ جارنا المهيب، بيننا وبينه مسافة رصيف، لكنّني لم أعِ ذلك إلّا عندما أصبحت أشاهد حيًّنا في نشرات الأخبار المسائية.

كلّ التاريخ كان يحدث في دائرة لا تتجاوز الكيلومتر، توهمك رحابتها وفخامة مبانيها ذات الطابع الكولونيالي بأنّ قطرها يضاهي قطر الجزائر شساعة.

كان قصر الحكومة ينتصب أمامنا، صرحًا ضخمًا يُرى من كلّ صوب، مطلًّا من عليائه على المدينة التي تغسل أقدامها في البحر. شيّدته فرنسا على قياس هيبتها، لتحكم منه الجزائر، متربّعًا مترفّعًا

لا يطلّ من شرفته غير الزعماء والحكام، عندما يلقون في المناسبات الكبرى خطبهم التاريخية على الحشود.

كلّ الذين خطبوا من شرفته ما توقّعوا أقدارهم، وسقوطهم يومًا من علياء التاريخ!

في ذهابه وإيابه، كان الحمام يبدو غير آبه بما يحدث. في الواقع، لقد رأى من علوّه كلّ شيء. تابع خطاب ديغول الذي ألقاه من شرفة قصر الحكومة.

القائد البارع في حشد المهارات البلاغية، أطلق قوله الشهير: «لقد فهمتكم». وحين ضجّت الساحة بالهتافات والتصفيق، لاذ الحمام بالفرار نحو «نصب الموتى». الطيور لا تصفّق. جناحاها ما خلقتا للتصفيق بل فقط للطيران، هي ليست مُجبرة على إشهار تأييدها لأحد.

خلف كلّ عاصفة تصفيق سوء فهم ما. لذا، اختلف فقهاء السياسة في تفسير ثلاث كلمات قالها ديغول، اختلافهم في تفسير ابتسامة الموناليزا هل كانت سعيدة أم حزينة.

«Je vous ai compris» ضاع معناها بين من فهم أنّ ديغول يتوجه للجزائريين متفهّمًا حقّهم في الاستقلال، ومن فهموا أنّه كان يتوجّه للفرنسيين متفهّمًا حقّ «الأقدام السوداء» في البقاء محتلّين للجزائر.

لكنّ العسكر لا يحبّون الالتباس، وما كان من الممكن للضباط الفرنسيّين الذين يحكمون الجزائر فعليًا، القبول باحتمال التنازل عنها. ديغول نفسه كان يريد الاحتفاظ بالجزائر، فهي البوابة الكبرى إلى إفريقيا، وهو لا يقبل لعظمة فرنسا الدخول لمستعمراتها من النوافذ الجانبية، لكنّ التاريخ وضعه أمام قرار مناف لرغبته، عامًا بعد عام أغلقت النوافذ جميعها، ونالت جميع المستعمرات الفرنسية

استقلالها، وبقيت بوابة الجزائر مشرّعةً على حرب لا طائل منها. عندها، وحّد الجنرالات خطابهم التهديدي، وأطلّوا من الشرفة نفسها معلنين العصيان، قائلين ما معناه:

«نحن لم نفهم شيئًا ممّا قاله ديغول وسنجعله يفهم ذلك!».

كان على الحمام أن يدرك أنّ بلادًا اختلف حول مصيرها الجنرالات، لا أمان فيها لطائر أعزل. اكتشف ذلك متأخّرًا عندما سقط قتلى فرنسيّون في شارع ديزلي أثناء عملية إطلاق نار بين الفرنسيين أنفسهم..

وكان قد سبقها انفجار قنبلة في مقهى Milk Bar في نفس الشارع، تطايرت شظاياها في نشرات الأخبار العالمية، فقد صنعت صبية جزائريّة تدعى جميلة بوحيرد الحدث، وهي تدخل المقهى بأناقة أوروبيّة وتترك حقيبتها تحت الطاولة.. فيسقط إثرها روّاد المقهى بين موتى وجرحى.

من وقتها، قرّر الحمام أن يختار له «نُصب الأموات» مقرًّا، فوحدهم الموتى لا يُخشى أذاهم.

كانت تلك الحديقة بأزهارها المتنوعة وأشجارها الباسقة، تمثّل رئتي ذلك الفضاء الرسمي، فهي تفضي صعودًا إلى أدراج فائقة الشساعة صمّمت ليصعدها القادة في المناسبات التاريخية الكبرى متوجهين إلى مقرّ قصر الحكومة في موكب مهيب، لإلقاء خطاب من شرفة مطلة على ساحة بإمكانها أن تسع آلاف الأشخاص.

أمّا نزولًا فهي تطلّ على الواجهة البحرية التي تفضي إلى البريد المركزي، قلب المدينة النابض، الذي تنطلق المظاهرات منه في كلّ حقبة. تحفة معمارية متفرّدة بوقارها وأقواسها الأندلسية وزخرفاتها التي تزيّن بواباتها وسقفها الشاهق، يتوسطها أشهر شارعين «ميشليه وديزليه» اللذان كانا شريان المدينة والمعبر الحتميّ لكلّ ما ضخّته

السياسة من أحداث تاريخية على مدى قرن، ليصبح اسماهما غداة الاستقلال، شارع بن مهيدي وشارع ديدوش مراد، أشهر شهداء الثورة.

الحديقة أيضًا كانت تتسلّى بتغيّر اسمها حسب مزاج التاريخ وزهو المنتصرين، لذا ما عاد الحمام يعرف هو في ضيافة مَن.

سنة 1958، توقف ديغول وهو في طريقه لإلقاء خطابه الشهير، ليدشّنها باسم «حديقة نُصب الأموات». وضع إكليلًا من الورد عند أقدام نصب ضخم يرتفع لعدّة أمتار، ويرتكز على قاعدة رخاميّة كبيرة بحيث تسَعُ نقش أكبر عدد من أسماء شخصيات عسكرية فرنسية قتلت في الحرب العالمية الأولى. كان الحدث كبيرًا والحضور مهيبًا، وكانت الحراسة المشدّدة أكثر انهماكًا من أن تولي اهتمامًا لنوايا الحمام.

لصغري، لم أر في ضخامة النُصب انتهاكًا بصريًّا لمشاعري الوطنية. بل كنت أجد جمالًا في جبروت حضوره، وأتأمّل بإعجاب تلك الكائنات الحجرية المنحوتة ببراعة، لجنود يمتطون أحصنتهم، رافعين إلى الأعلى شيئًا ما. حين كبرتُ بعض الشيء، اكتشفت أنّهم يحملون على أكتافهم نعشًا حجريًّا لجندي، من دون أن أفهم لماذا يحملونه، ولا لمن كلّ تلك الأسماء الغريبة التي بينها بعض الأسماء الجزائرية القليلة. قيل لي لاحقًا إنّها لمحاربين جزائريين تمّ تجنيدهم في الحرب لكون الجزائر مستعمرة فرنسية، وسقطوا دفاعًا عن فرنسا في حربها ضد ألمانيا.

حين فهمت، كانت الحديقة قد غيّرت اسمها إلى «حديقة السّاعة الزهرية». فقد غدت حديقة جزائرية للمتنزهين السعداء، تدلّهم أزهارها على الوقت.

من تفنّنوا في هندستها توهّموا أنّهم يهندسون أحلامهم، لا أحلام أعدائهم، لكنّ الحديقة كانت من هندسة الزمن، وساحة

لصراعات القدر، تجمع بين أمرين متناقضين: «نصب الموتى» الذي يحمل جثمان الماضي، والساعة التي تركض عقاربها نحو المستقبل.

بعد الاستقلال، كان لفرنسا النُّصب ولنا الساعة. هكذا اقتسمنا في البدء الحديقة.

في الواقع، كانت هناك ساعتان، واحدة للوقت وأخرى للزمن، الأولى تطوّقها أزهار زاهية في شكل دائري، لا تظهر سوى عقاربها النّحاسية الضخمة التي تتحرك بفضل تدفق قطرات الماء من ماكنة مطمورة تحت التراب، والثانية للزمن، جاثمة في شكل نصب تاريخي، تشير إلى الزّمن اللامرئي المحفور على الحجر. إنّها جثمان الوقت الذي توقف سنة 1962، غداة الاستقلال، بالنسبة لفرنسيّي الجزائر.

زمنٌ مضى بقتلاه وفظاعته وضحاياه. وأصبح الآن في عصمة الحمام الذي وجد له إقامة آمنة فوق الجثمان الحجريّ الذي يجسّد الجندي القتيل فداءً للوطن، والمحمول على أكتاف الجنود الخيّالة. هناك، كان الحمام يأوي ويتناسل ويترك آثار أوساخه، وكلّ شتاء كان المطر ينظّف ذاكرة الحجر، ويعيد عقارب الزمن إلى الصفر، فتغدو الأسماء المحفورة كائنات بشرية، ويستعيد الجنود لبعض الوقت بدلاتهم العسكرية النظيفة، ويغتسلون مما علق بضمائرهم من دماء.

***

«ليس للموت أعداء، إنّه يزور الجميع».

في عجلة رحيلهم، تمنّى الفرنسيّون لو أخذوا معهم موتاهم، أو حتى أسماء قتلاهم المحفورة على النّصب التذكارية، فقد كان لهم إحساس بأنّ الحجر أيضًا سيتنكّر لهم.

لم يخنهم حدسهم، سنة 1978، بعد ستّ عشرة سنة من الاستقلال، قرّرت السلطات الجزائرية، بمناسبة حدثٍ وطني، التخلّص من «نصب الموتى». لكنّ إسياخم، أحد أشهر الرسامين والنحاتين الجزائريين، هبّ لإنقاذ النّصب، واقترح بدل تحطيمه تغليفه، احترامًا لإبداع Paul Landowski وغمزة للذاكرة.

كان إسياخم فنانًا مبتور الذراع، بسبب تهريبه في صباه قنبلة يدوية من ثكنة مهجورة، عاد بها مزهوًّا إلى البيت، جمع يومها حوله أختيه وأقرباءه الصغار ليريهم غنيمته، لكنّ القنبلة انفجرت وأودت بحياة شقيقتيه وقريبه وأخذت في طريقها ذراعه.

برغم ذلك، كانت له نظرة أخرى إلى تلك المنحوتة، بعيدًا عن تصفيات الحساب التاريخية. كمبدع، كان يدري أنّها تحمل توقيع واحد من أشهر النحّاتين في القرن العشرين. صاحب «نصب المسيح»، إحدى الأعمال المذهلة في ضخامتها التي تطلّب إنجازها أكثر من ألف طنٍّ من الحجر، والتي لطولها الذي يقارب الأربعين مترًا، ووقوفها منتصبة فوق أعلى تلّة في مدينة ريو دي جنيرو، غدت رمزًا للمدينة.

جاء إسياخم بفريق كبير من النحّاتين الجزائريين الذين شاركوه مهمّة تغليف النصب كاملًا، بقالب من الإسمنت المصفّح الذي يخفي كلّ التفاصيل، بحيث تحوّل إلى مجسّم حجري مستطيل ضخم، ثمّ نحت على واجهته يدين متباعدتين كسرتا أصفادهما، وأشكالًا تجسّد رجال الثورة الجزائرية.

ظلّ إسياخم لعدة أسابيع يعمل، مسترقًا النّظر على يمينه إلى شرفات فندق Albert 1 كأنّه يرى من إحداها ذلك النحات يطلّ كعادته من شرفة غرفته، كما في عشرينيات القرن الماضي، عندما

أقام على مدى أشهر في ذلك الفندق لقربه من الحديقة، كي يتابع حتّى من فوق تقدّم العمل على منحوتته التي رأت النور سنة 1929!

أيّ حوار كان يمكن لناحتيْن أن يتبادلا في موقف كذلك؟ وهل كان لاندوسكي ليسعد، ويكون ممنونًا لنحّات جزائري، من زمن آخر، إنقاذه بذراع واحدة أبقتها له الحرب، نصبَه الذي يمجّد الحرب، والحيلولة دون أن يتحوّل إلى حطام وكومة حجر؟ أم أنّه كان سيغضب ويحزن كثيرًا لأنّه تمّ حجب أناس له قرابة بهم، وبدل تحطيمهم، تمّ تحنيطهم بالإسمنت المصفّح؟

أولئك الجنود، كان يعرف ملامحهم واحدًا واحدًا، فهو من خلقهم. كانوا حقيقيّين إلى درجة كان يمكن أن يرى على وجوههم آثار العرق وهم يحملون الجنديّ المجهول. وتلك الأحصنة هو من اختار حركتها، فهو يدري أنّ لكلّ حركة للحصان إيحاء يدل على انطلاقه للمعركة، أو العودة منها منتصرًا أو خائبًا.

إذا كان الفرس يرفع قدمًا واحدة، فذلك يعني أنّ الفارس قد مات متأثّرًا بجراح معركة، وإذا كان رافعًا قدميه الاثنتين، يعني أنّ الفارس قد قُتل في معركة. أمّا إذا كانت أقدامه غير مرفوعة، فهذا يعني بأنّ الفارس قد مات ميتة عادية بعيدًا عن الحروب.

تلك الخيول كانت ثقيلة الخطى، أكثر أسًى من فرسانها، فكيف أخطأ في تفسير حزنها.. وحدها كانت تستشعر النهاية، تدري أن لا جدوى، وأنّ الحرب كانت خاسرة.

في المطحنة البشرية للحروب، القاتل والقتيل وحّد بينهما الحجر من دون أن يساوي بينهما. مجرّد تقاطع أحجار وتقاطع أقدار تروّع النّصب المطمئن. شخوصٌ حجريّة تواصل الحرب في ما بينها

على ذاكرة محفورة في باطن الأشياء، حسم التاريخ أمرها، هو النحات الأمهر الذي أعاد نحت النصب مجدّدًا.

ما من شيء إلّا ويخفي شيئا آخر. حتّى الموتى قد يخفون موتى آخرين، لأنّ كلّ تاريخ يُخفي تاريخًا آخر... يقول التّاريخ.

***

«كان بإمكانك أن تنتهز الفرصة...
لماذا لم تستشهد يا أبي
أنا عاتب عليك».

نصري صايغ

لم يكن الأمر مناسبًا للحمام، الذي كان يأوي إلى مداخل النصب وفجواته، وفقد مخبأه. يحقّ للحمام الاعتداء على التاريخ كما اقتحام الجغرافية، لذا واصل عاداته إياها، تاركًا أوساخه على الحجر، غير مهتمّ بهوية النزلاء الجدد، إن كانوا قتلة أو شهداء، مجرمي الحرب أو ضحاياها. كان ذلك هاجس البشر الذين باشروا البحث عن قرابة بشهيدٍ ما حُفر اسمه على النّصب، فالسباق إلى الغنائم الموزعة على أهالي الشهداء كان قد بدأ.

ماذا لو كان «النُّصب التّذكاري للموتى» هو عملية نَصب على الأحياء، يجمّل لهم الموت، بذريعة الخلود، فيسلبهم حياتهم مقابل وهم «الأبدية الحجريّة»، ليقنعهم بأنّ شهداء الأوطان أحياء؟ من قال إنّنا نريدهم أحياء؟ نفضّل نُصبًا يقيم بيننا على بطلٍ يعيش معنا.

نحن لا نريد الشهيد حيًّا فينافسنا على غنائم النصر.. إنّه هو الغنيمة. نريده كائنًا من حجر نباهي به بين الأمم. ما من أمّة إلّا وتفنّنت في تبجيل موتاها، لا من أجلهم فهم ما عادوا هنا ليروا ذلك، بل من أجل من قد يتردّدون في التضحية.

أحدهم قال «كن قائدًا فالتاريخ لا يذكر الجنود». كان يعني لا تكن رقمًا، كن اسمًا علَمًا، فالتاريخ ظالمٌ لمن لا اسم له.

كم كان عدد بؤساء العالم وفقرائه الذين سيقوا إلى الموت في الحرب العالمية الثانية؟ بدل أن يتضامنوا تناحروا وتذابحوا، بسبب فكرة وُلدَت بذرة إجرامها في خيال طاغية ألمانيّ كان يحلم بوضع العالم تحت جزمته العسكرية، إرضاءً لجنون عظمته.

70 مليون قتيل لا يعرفون بعضهم البعض، ماتوا على عداوة، ميتة عبثية، فتكت بهم الأسلحة والأوبئة والمجاعات. عندما فشلوا في معرفة أسمائهم، وجمع أشلائهم المبعثرة عبر القارات، توقّفوا عن عدّهم وصنعوا لهم تمثالًا أسموه «نصب الجندي المجهول». هل كانوا ليمضون إلى حتفهم لو دروا بذلك؟

الحرب عمياء، لأنّها ترى بعيون الضغينة. طيّار جاء من وراء البحار، يقصف من سمائه مدينةً لم يرها سوى على الخريطة، يقتل من علوّه أناسًا لا يعلم عنهم شيئًا، بنيّة إبادة جنسهم البشري. هكذا نسفت أمريكا هيروشيما بقنبلة نووية، وسحق الحلفاء على مدى سبعة عشر يوما مدينة دردسن الألمانية رغم استسلامها. وهكذا، على مدى سنوات، قصفت فرنسا عشرات القرى الجزائرية كما لو كانت ترشّ حشرات بالمبيدات، وألقت في الصحراء الجزائرية في تجاربها النووية أوّل قنبلة ذريّة تعادل قوّتها أربعة أضعاف قنبلتي هيروشيما وناكازاكي، ستظلّ إشعاعاتها تشوّه الأجنّة وتلوّث التربة لآلاف السنوات.

فكيف لا يبكي الحجر كلّما وشوشه الحمام رقمًا لضحايا الحروب الجدد الذين أصبحوا ينتسبون إليه؟

إلى ما بعد الاستقلال بعقد من الزمن، كان للحديقة حارسٌ ناب عن ذلك الفرنسي الذي كان يحرسها. كان يرتدي بدلة رجال الأمن الجزائري الزرقاء، ويحمل مسدّسًا يتدلى من خاصرته، وصفارة يسمع صوتها بين الفينة والأخرى، تذكّرك بوجوده. فهو يقف على مكان مرتفع يشرف على كلّ الحديقة، ويمكن أن تصادفه متنقّلًا صعودًا أو نزولًا في منعطفات الحديقة، ليمنع المتنزهين من المشي على العشب، أو قطف الأزهار.

كان جلّ جهده يمضي في منع الأطفال من مطاردة الحمام ورميه بالحصى عبر أداة بسيطة للرماية، ما يجعل الحمام هاربًا في كلّ اتجاه، هو الذي ما كان يتوقع أن تكون نهاية الحرب بداية الحرب عليه، معتقدًا أن وجوده بجوار قصر الحكومة يوفّر له الحماية. كنتُ غالبًا ما أتحايل على الحارس، لأقطف أزهار الـPensées لارتدائها ثوبًا مبهجًا بألوان زاهية من القطيفة، يسهّل عليّ الاحتفاظ بها مجفّفة بين أوراق كتبي.

في الواقع، لم أفهم كيف تُحرس الأزهار، أو يُحمى الحمام بمسدس. لعلّ الشرطي كان هناك لكي يحرس الموتى إذن، ويمنع الشهداء من مغادرة نصبهم، والعودة متسللين إلى الحياة، فيندمون على تضحياتهم ويفضحون الخونة واحدًا واحدًا. ففي تلك الفترة، أصدر الطاهر وطار رائعته الخالدة «الشهداء يعودون هذا الأسبوع». قصة يحاكم فيها الماضي الحاضر، عبر إشاعة أطلقها أحدهم بأنّ رسالة وصلته من قريب شهيد، يخبره بعودة الشهداء هذا الأسبوع. بثّت تلك الإشاعة الرعب في القرية لدى من استفادوا من رحيل الشهداء، وإذ لا أحد يريد عودتهم، لا المخلص ولا الخائن ولا المناضل ولا الانتهازي، ولا القريب ولا البعيد.

الحكمة، أنّه على الشهداء ألّا يفكروا في العودة، وعلى أيّ قتيل سقط في حرب ألّا يفتح عينيه، ليرى ولو لبرهة كيف يعيش الناس من بعده... بعد أن مات فداءً لهم.

***

«كالجياد الجريحة، لا أدري ممّا أعاني، ولا في أيّ معركة سقطت».

في تلك الحديقة، ما كان هاجسك «النُصب» بل «ساعة الأزهار».

تمنيّتَ لو استطعتَ أن تضخّ كثيرًا من المياه في تلك المكنة، لتسرّع دوران عقاربها الضخمة نحو المستقبل. لكنّك، أنت المهووس بالوقت، لم تجد ما تضخّ فيها غير أرقك وصحتك. كنت مسرفًا في الأمل وأنت منطلق في سباق محموم مع أحلامك، كلّ المهام التي توليتها في الوقت نفسه حدّ الإجهاد والانهيار، كانت من أجل تسريع ماكينة الأحلام.

كنتَ سيزيف دون أن تدرك.

ضحكَت منك العقارب وأنت تدفعها مثقلًا بحمولة مهامك، متنقلًا بين القرى لإقناع الفلّاحين ضد مشيئتهم بالإصلاح الزراعي، معلنًا الحرب على الجهل في أوّل حملة وطنية لمحو الأمية، ممثّلًا للنقابات العمالية.

كنت تدفع بعقارب الوهم، معتقدًا أنّك تبني الوطن الحلم، ولا تفهم لمَ، وأنت تقوم بكلّ هذا، تعود العقارب دومًا إلى الوراء.

ذلك أنّهم منذ الاستقلال باشروا بتغيير مجرى المياه، واختلّ عمل ماكينة الساعة!

***

«في الحرب، تصبح الحقيقة ثمينة،
إلى درجة أنّها تحاط بحرّاس من الكذب».

تشرتشل

صدمتان كانتا في انتظارك: الأولى وجودك في المستشفى، فككلّ من يعانون من انهيارٍ عصبي، كنت ترى أنّك سويّ، وأنّ كلّ ما تقوله أو تقوم به منطقيّ.

أمّا الصدمة الثانية، فاكتشافك أنّ الطبيب الذي سيتابع علاجك هو ضابط فرنسي، وأنّه اطّلع على ملفك. ذلك أنّ الاستمارة التي أجبتَ عليها، جاءك بها جزائريّ ما ظننتَ أنّه مجرد مساعد للطبيب، مُكلّف بطرح الأسئلة على المرضى، لأنّ معظمهم من الجنود الذين لا يتقنون الفرنسية.

أمران ما كانا يمكن أن تتقبّلهما.

ما كنتَ هناك لأنّك فقدتَ عضوًا من جسدك في معركة ما. الدكتور Leguale المطرّز اسمه على الجيب العلوي لمئزره الأبيض، بروفيسور للأمراض النفسية والعقلية، برتبة كومندان، وهو هنا ليحقّق معك في ما أفقدك صوابك.

كان ماهرًا في طرح الأسئلة، وكنتَ مراوغًا في أجوبتك.

يسألك عن مهنتك، عن ماضيك، عن أمرٍ ما حدث تغيّرت بعده حياتك.

يستدرجك للبوح. تنصت إليه وتحتفظ بالأجوبة.

مهنتي؟ وطنيٌّ بدوام كامل، لم أمارس غير هذه المهنة. في الماضي حقق معي ضُباط غيرك، حدث أن انتهت الجلسة بالتعذيب لأنّني لم أجب على أسئلتهم، أنت ألطف ضابط فرنسي صادفته، والوحيد الذي يحقّق معي بنيّة معالجتي. لكن، هذه المرة أيضًا لا

أستطيع البوح، ذلك أنّ الرفاق الذين كنت أحمي حياتهم بالصمت، تولّوا بعدكم المهمّات القذرة.

لم تقل له هذا.

التعرّي أمام عدوّك هو أكبر مذبحة وجدانية. لكنّك لا تدري أصلًا إن كان هذا الطبيب الخمسيني الفائق اللطف هو عدوّك، كيف يكون كذلك وهو طبيبك. بل أنت موجود في مصحٍّ عقلي لأنّك ما عدت تدري من هو العدو!

لعلّه فكّ شيفرة صمتك، فملفك في حوزته. هو يعرف على الأقلّ وظيفتك، فقد كنت المدني الوحيد في قسمٍ نزلاؤه جميعهم عسكريون، وتشغل غرفة مخصّصة للضباط.

قال:

– حدثني قليلًا عن نفسك.

أجبته متعمّدًا ذكر فرانس فانون:

– كما قال فانون «أنا أعرف كلّ شيء إلّا نفسي».

التقط ما أردتَ إيصاله إليه. أجاب:

– لستَ ملزَمًا بأن تحكي لي كلّ شيء.. لكنَّ شيئًا ما تسبب في متاعبك، والعثور عليه سيساعدنا في متابعة العلاج.

واصل وهو يتناول كتابًا عن طاولتك الصغيرة:

– أرى أنّك تحبّ القراءة.

تصفّحه على عجل وأعاده إلى مكانه.

– حسنًا هذا مفيد لك... ما توقّعت أن أعثر على فولتير هنا، إنّه من كتّابي المفضّلين.

أجبتَه:

– إنّ الكُتّاب الذين ندرس أعمالهم على المقاعد المدرسية، يعلقون دومًا بذاكرتنا، ويتركون لاحقًا تأثيرًا لاشعوريًّا علينا.

فاجأه تعليقك «العاقل». وجد فيه سبيلًا إليك:

– صحيح.. وما الذي علق بذهنك من قراءاتك لفولتير؟

أكان السّؤال مجاملة أم استدراجًا لسبر سرّك؟

فطنتك لم تفارقك. تحاشيت تسليمه مفتاحك.

– ما يستوقفني أسجّله دائمًا في دفتر، إنّها عادتي في القراءة مذ أيّام الدراسة إلى أن أصبحت مدرّسًا وإلى اليوم، الموضوع يحتاج إلى وقت. يمكنني مناقشتك طويلًا في ذلك ذات مرة.

ردّ بنبرة ودودة:

– أنت إذن من النوع الذي يحتفظ بدفتر خاص يسجّل فيه يومياته.. هذا غالبًا من عادة المثقفين.

أطربك مديحه.

– نعم أنا أسجّل كلّ شيء، كلّ تفاصيل يومي وانطباعاتي، لكنّني توقفت عن ذلك في الفترة الأخيرة، بسبب ضيق الوقت وتزايد مهامي.

– يجب أن تعود إلى ذلك. الكتابة وصفة مثالية لكلّ المتاعب النفسية. لم أطلب هذا من غيرك هنا، لأنّني لم ألحظ على الآخرين اهتمامًا خاصًّا بهذه الأمور. أرى أنّك تملك ما يمكن أن يساعدك على الشفاء، أحضر دفترًا وباشر الكتابة، إن شئتَ أرسلتُ لك أوراقًا. يسعدني أن أطّلع على كتاباتك.. هواجسك تعنيني.

هو لا يدري كم من الأوراق أحرقتَ على مدى عمر، كي لا تقع في يد أحد، ويودّ أن يعطيك أوراقًا لتكتب عليها من جديد ما ستتمنّى لاحقًا لو أنّك أحرقته.

– شكرًا.. اعتدت الكتابة على كرّاسات. سأطلب من ابنتي أن تحضر لي كرّاسًا..

كنت تريد إبهاره. كان يعنيك أن يعرف هو بالذات أنّ وجودك في تلك الغرفة تحت أوامره وتعليماته، لا يلغي كونك تضاهيه وقد تتفوّق عليه ثقافة. ففي المرض مهانة، وسحقٌ لكرامة أردتَ أن تصونها باستعراض قراءاتك. لكنّه نصب لك فخًا آخر، أو لعلّك من نصبته لنفسك. فكلّ ما أبيتَ أن يسمعه منك، عليك أن تكتبه بعد الآن.. ليقرأه!

غادر مودّعًا بمودّة، لقد أصبح بينكما صديق مشترك. ها قد جاء فولتير لنجدتك. فأنت لا تنسى قوله «كشف المرء لسرّه حماقة وكشفه سرّ الآخرين خيانة». فولتير على حقّ هذه المرة أيضًا. أنت الذي لم تخن في الماضي سرّ رفاقك، أستكون من الحماقة لتكشف لهذا الطبيب بالذات أسرارك؟!

قد يتفهمك، فهو هنا لعلاجك، لكنّه ليس الدكتور فرانس فانون ليتعاطف معك بأخوّة إنسانية.

في زيارتي التالية لك، طلبتَ منّي أن أبحث في مكتبتك عن كتاب Les Damnés de la Terre وأحضره لك، أضفتَ موضّحًا إنّه كتاب صغير بحجم كتب الجيب.

أجبتك:

– سأفعل. ثم سألتك كيف يكتب العنوان.

كتبته لي على ورقة.

– وما معناه؟

– معناه «معذّبو الأرض».

– بابا حبيبي هذا النوع من الكتب يتعبك نفسيًّا.. كيف تقرأ كتابًا عن المعذّبين وأنت في مستشفى.

أجبتَ بحماس:

– إنّه من الكتب التي طبعت هذا العصر. لا أريده لي، أنا سبق أن قرأته.. أريد أن يراه الطبيب على طاولتي. سيسألني عنه وعندي له حينها جواب، في جميع الحالات، إنّها رسالة سيفهمها، فانون كان طبيبًا نفسيًّا مثله.. وكان مفكرًا اجتماعيًّا فرنسيًّا من المارتينيك، داوى جرحى المجاهدين وساعد في إخفاء قادتهم. كان يعشق الحرية ويقدس العدالة ويقف إلى جانب المضطهدين أيًّا كان دينهم أو عرقهم، تدرين أنّه عندما كان مديرًا لمستشفى للأمراض العقلية بالبليدة اكتشف أنّ القمع الاستعماريّ كان أحد أهمّ أسباب إصابة بعض الجزائريّين بالجنون، فقام بتطوير الأساليب التقليدية للعلاج النفسيّ، بعيدًا عن استخدام الصدمات الكهربائيّة؟

صحتُ:

– الصدمات الكهربائية؟!

مكتبة
t.me/soramnqraa

أجبتَ بنبرة عادية:

– هكذا كان يُداوى المجانين في السابق، وقبلها كانوا يُضربون بالسوط ليستعيدوا عقلهم!

أصابني كلامك بسوط الصدمة. ماذا لو كنتَ في نظر الطب مجنونًا؟ هل كنتَ إذن ستعالَج هكذا؟! لا يمكنني تصوّر هذا. ثمّ، قد سبق أن صادفتُ طبيبك، هو يبدو لطيفًا، ولا أظنّه سيفعل شيئًا كهذا!

ما اكتشفته يومها، هو أنّك توصل رسائلك لمن تشاء عبر الكتب، تمامًا كشعار «قلها بالورد». كانت الكتب تنوب عنك في البوح بمشاعرك. بكتاب تقول لمُدرّستي أنّها تعنيك، وبكتاب تقول للطبيب أنّ شهادته في الطب لا تشهد له بالإنسانية، وبمكتبتك التي ستكتشفها مدام كوزيت باندهاش يوم زارتنا لأوّل مرة في غيابك، ستقول لها دون كلام، ومن دون أن تكون حاضرًا، بأنّك قرأتَ من

الكتب أكثر مما قرأتْ، فقد كنتَ منذ الأزل تشتري الكتب من أجل هذه اللحظة!

***

«لا أحبّك.. ولا أصبر عنك».

(مثل شعبي جزائري)

بالمناسبة، أثناء وجودك في المستشفى، نشأ ما يشبه الصداقة بين مدام كوزيت وأمّي.

كما الحمام الذي فرّ من الشرفات عندما رآنا ندخل الشقّة لأوّل مرة، ثمّ بدأ يكسر حاجز الخوف، ويتقدّم نحو النوافذ مطمئنًّا تدريجيًّا إلينا، اجتازت مدام كوزيت عتبة الباب يومًا. اطمأنّ قلبها إلينا على مراحل، بدأت تجلس في بيتنا في أمان مذ وقعت عيناها على مكتبتك، واثقة بأنّ اللغة الفرنسية قد هذّبتنا!

ذات يوم قصدتنا تسأل عن أمر ما، فدعتها أمّي للدخول، وكان أوّل ما وقعت عيناها عليه هو مكتبتك. لعلّك أخلفتَ المشهد الأقوى في نزالك معها. كم كنت ستسعد لو رأيتها أثناء انشغال أمّي بإعداد قهوة لها، تتأمّل الكتب بتأنٍّ رفًّا رفًّا حدّ نسيان وجودنا. لا أظنّ أحدًا من زوّارنا أولى اهتمامًا بمكتبتك مثلها.

بعدها أصبحت تتردّد علينا مع ابنها جان، وتبدي إعجابها بما تخيط أمّي من موديلات منقولة من المجلات، كان يحلو لها أن تنصحها وتصحّح لها تأكيدًا على تفوّقها، ثمّ تحاول بذريعة الاهتمام تحريضها، سائلة: «كيف تستطيعين تربية أربعة أطفال بمفردك.. أين زوجك؟».

طبعًا كان يشغلها فضول معرفة سبب غيابك. ولأنّك كنت تشعر بذلك، طلبتَ ألّا نخبرها هي بالذات بوجودك في المستشفى. انخرطنا كلنا في الكذب، أنت تكذب على الطبيب، ونحن بتعليمات من أمّي نكذب على مدام كوزيت.

أجابتها أمّي مخفية عنها مرضك. «إنّ زوجي دائم السفر في مهمات إلى الخارج وسيعود قريبًا». حينئذٍ راحت تواسيها بذكر معاناتها في الماضي، عندما كان زوجها يتركها مع جان وابنتها التي توفيت ويغيب لأيّام في مهامه. طبعًا كان علينا أن نستنتج أنّه كان يذهب أثناء ذلك لإدارة العمليات العسكرية ضدّ الجزائريين!

ذات مرة سألتني:

– أين تدرسين؟

أجبت:

– L'École Dupuch.

تغيّر شكلها، وعلّقت مستنكرة:

– تدرسين هناك.. إنّها المدرسة الابتدائية التي درس فيها أبنائي!

بأسئلة كهذه، كانت تأخذ جرعة الألم التي جاءت تبحث عنها، وغالبًا ما تغادر حاملةً طبخة أو حلوى أعدّتها أمّي واشتهتها هي من رائحتها.

إلى الآخر، ظلت مشاعر مدام كوزيت تجاهنا متأرجحة بين الوديّة والعدائية، وما استطاعت حسمها.

أعتقد أنّها كانت تزورنا، لأنّه لم يبق لها من صديق، فأصدقاؤها الأقرب كانوا يقطنون البيت الذي نسكنه. وهي تواصل الصعود لزيارتنا بحكم العادة، لكنّها تواجه وجعًا ما حسبت له حسابًا، وهي

ترى بيتهم وقد تنكّر لذاكرتهم. تدقّق في كلّ التغييرات، لأنّها في كلّ شيء كانت تشهد ما سيغدو عليه بيتها، وتودّ لو تلتقط صورًا ترسلها لأصحابه السابقين. لكن ما كنّا بعد في زمن الهاتف المحمول.

كان يؤلمها قدر الأشياء وخيانتها!

كيف أنّ تلك الماكينة التي خاطت أثواب صديقتها الفرنسية، وتحتفظ بذاكرة مباهجها النسائية، ستواصل خياطة ثياب أعدائها، غير معنيّة بمن سيرتديها؟ كيف من بعدها أصبحت لسيدة جزائرية، وغدت رفيقة سهراتها، ومشاريع أفراحها، وتخيط اليوم أثوابًا عربية؟

لكن، ماذا كان بوسع صديقتها أن تفعل، في جميع الحالات كانت الماكنة ستنتهي لدى جزائريين آخرين!

لعلّها بدأت يومها تفكر في أن تبيعنا أشياءها، كي لا تتركها في أيدي أعداء غير متوقّعين.

فهي ما زالت تحت الصدمة، مذ اكتشفت أنّ جارنا في الطابق الثالث الذي كانت تناديه Monsieur Deba معتقدةً أنّه رجل «حوار» حسب معنى نطق لقبه بالفرنسية، يحمل في الواقع بالعربية لقب «ذبّاح».

قالت لنا ذلك برعب، سائلةً باستنكار «كيف لأحد أن يسمّى (ذبّاح) Egorgeur! عليه أن يخجل.. أي وحش هذا!».

ما كنتَ هنا لتجيبها بما كان سيحرجها.

ولا كنتُ أنا أدري كيف أدافع عن رجل كان مؤدّبًا وخدومًا، ولا شيء في تصرفاته يوحي بالعنف أو الوحشية. خلَق الأمر لديّ فضولًا وريبة. ثم بدأتُ أَعجب لألقاب محرجة لجزائريين عاديين أو رجالات دولة وكبار المسؤولين، تتردّد أسماؤهم المشينة في الأخبار.

إلى أن سألتك مرة، كيف أنّنا نحمل اسم مدينة من الغرب الجزائري ونحن من قسنطينة شرق الجزائر؟

فأخبرتني بما فاجأني.

قلتَ:

«سنة 1882 بعد نصف قرن على احتلال فرنسا للجزائر، أصدرت الإدارة الاستعمارية قانون الألقاب، لاستبدال الألقاب الثلاثية للجزائريين، وتعويضها بألقاب لا ترتبط بالنّسب، ولا تبدأ بـ«أل التعريف» ليسهل كتابتها بالأحرف اللاتينية.

كان جدّي آنذاك كثير التردّد على مستغانم، لزيارة من استقرّوا هناك من أسلافه، وغادروا قسنطينة مع أحمد باي بن عبد الله المملوك، أحد بايات قسنطينة، الذي استقرّ في مستغانم مع المقرّبين من رجاله قبل دخول فرنسا ببضع سنوات.

كان محظوظًا بأن نُسب إلى مستغانم عند تغيير اسمه، فقد كانت الألقاب تعطى اعتباطيًّا، حسب مزاج الموظفين، تُختار في أحسن الحالات حسب المهنة أو المدينة، وقد تكون أسماء مسيئة منسوبة معظمها إلى الحيوانات أو الحشرات أو أعضاء في الجسد، تمّ اختيارها بتهكّم وتحقير لإهانة حاملها، وما زالت تتوارثها الأجيال. حتى أنّ عشرات العائلات تطالب إلى اليوم بتغيير أسمائها التي حملها أجدادها مكرهين».

كان في ذلك اغتيال معنويّ للإنسان الجزائري، الممتدّ اسمه إلى شجرة ضاربة جذورها في المفاخرة بالنسب والأجداد، بتجريده من أصله، ومكيدة للاستحواذ على أراضي العروش والقبائل عبر تسهيل التفاوض مع أفراد العائلة الواحدة، بعد تشتيت ألقابها، فيصير لقب الجدّ غير لقب الابن، ولقب الأب غير لقب أبنائه، ولا

يعود بإمكان أحد المطالبة بإرثه، وهو ما زاد مهمّة توزيعك الأراضي على الفلاحين غداة الاستقلال تعقيدًا.

***

«نحن لا نُشفى من ذاكرتنا، ولهذا نحن نكتب، ولهذا نحن نرسم، ولهذا يموت بعضنا أيضًا».

ليومين، ظلّ موضوع الطبيب الذي يريد الاطّلاع على ما تكتبه مصدر توتّرك، فما يؤلمك حقًّا لا يروى لضابط فرنسي، تغطّي ابتسامته المتعاطفة نظرة ازدراء وشماتة يستشعرها قلبك. بحكم عزلتك، راح ذهنك يضخّم الأمر.

كيف ستخرج من هذا المأزق؟ فهو في الواقع يحتاج أن يفهمك كي يتمكّن من معالجتك. وكيف له ذلك، إن كنت تخفي عنه سبب مرضك؟ماذا أنت فاعل في المستشفى إذن؟

كان صدرك قد ضاق بأسرارك، لكنّك لن تفتح أقفال روحك لهذا العدّو الطبيب. فهو لن يسمعك بقلبه الحاني بل بأذنه الشامتة.

فجأة، كالبرق، أضاءت فكرة مجنونة بالك، جعلتك تنتفض واقفًا. إن كانت أعظم الأفكار تأتينا ونحن نمشي كما يقول نيتشه، فأكثرها جنونًا يأتينا ونحن مستلقون.

اجتاحتك فرحة طاغية. لن تقصّ عليه ذاكرتك السياسة، لأنّك مهما كذبتَ ستخونك خيبتك، وتنفضح بألمك. فلتكتب عن الحب إذن. ادّعِ أنّ صدمة عاطفية أخفيتها عميقًا أوصلتك إلى هنا، فراق أو فاجعة ما. هذا يحدث كثيرًا، فالحياة على أيّامك كانت مليئة بمجانين الحب الذين عاكستهم الأقدار، لأسباب دينية أو عرقية، أو

فرقتهم الحروب إلى الأبد. هو سيتعاطف معك عاشقًا، لكنّه سيسخر منك ثائرًا، ويشمت بك إن كان وطنك هو من دمّرك!

عليك إذن إعادة صياغة قصتك، وترتيب أكاذيبك. اِروِ ما حدث أو ما كنت تودّ لو أنّه حدث. لكلّ رواية صيغتان، إحداهما لم توجد إلّا في خيالنا. ماذا لو كان شفاؤك في تزوير ذكرياتك؟ بين صفحات كلّ رواية تختبئ ممحاة. فنحن لا نكتب فقط بالقلم، الممحاة أداة كتابة، نكتب ما نودّ محوه من الذاكرة والتبرّأ منه. نكتب ما حلمنا بحدوثه ولم يحدث. الكتابة وهمُ الأمنيات المستحيلة المحقّقة على ورق. فاستعد حبيبتك تلك ولو بالكلمات.. أو ليست هذه أمنيتك؟

«في الثورة كما في الروايات، الجزء الأصعب هو ابتكار الرواية»، يقول دو توكفيل.

كن روائيًّا، كما كنتَ ثوريًّا، ابتكر غايتك. اِفعل ما شئت، أُكتب ما شئت، مرفوع عنك القلم. أنت محميٌّ بجنونك يا رجل!

***

«نصف ما أقوله لك لا معنى له، غير أنّي أقوله لعلّ النصف الآخر يبلغك».

جبران خليل جبران

في الزيارة التالية، وجدتك حليق الذقن، سعيدًا وفي كامل لياقتك.

لم تكن تزعجني لحيتك المهذبة، كان لها جاذبية الرجولة، لكنّك ككلّ رجال ذلك الزمن، كنت تفضل عليها مظهرًا مهندمًا حليقًا.

قلت لأرفع معنوياتك:

– أحبّك هكذا بابا... برغم أنّك كنت جميلًا أيضًا باللّحية.

لمعت عيناك فرحًا، كانت السعادة توقظ شهيّتك لأحاديث لم أكن أفهم معظمها.

– تدرين، آخر المثقفين الملتحين كان بروست، ربّما ما كان له من وقت للحلاقة، كان مشغولًا بـ«البحث عن الزمن الضائع». يحضرني كثيرًا هذا العنوان.. عندما تكبرين اقرئي هذا الكتاب.

أجبتك وقتها موافقةً، لكن عندما كبرت وحاولت قراءة تلك الرواية الشهيرة الضخمة، ذات المجلدات السبعة، فشلت في إتمامها.

أحدهم كتب عنها «الحياة قصيرة والرواية طويلة». أثناء بحثه عن الزمن الضائع، أضاع بروست أكثر من عشر سنوات من حاضره. لكن بمنطقه، لم يُضع شيئًا، ذلك أنّ الذكريات يمكن أن تغدو بالكتابة حياةً، وذكرى الحبّ تصبح مع الزمن أجمل من الحبّ نفسه. لذا يحلو للأدب أن يعيش في الماضي، ليمدّد عمر ما ضاع منه.

ألهذا طلبت منّي إحضار دفاتر للكتابة؟

كان تبدّل مزاجك، في تطرّفه، من أعراض مرضك. شعرت أنّك حلقت ذقنك استعدادًا لمرحلة جديدة، ربّما للشروع في الكتابة. أخبرتني أنّك طلبت من أحد الممرّضين أن يأتيك بآلة حلاقة، وأنّه ظلّ معك ليستعيدها حين انتهائك منها، لأنّه يُمنع عليك الاحتفاظ بها.

أتوقّع أنّك كنت سخيًّا معه. فقد كان العطاء إحدى أمراضك المزمنة، لذا قام خالي قبل ذلك بأشهر بطلب شهادة طبيّة تمنعك من التصرف بما بقي في حسابك المصرفي، بعد أن اتّصل به مدير مقهى MiIk Bar، وكان صديقك وأحد قدماء المجاهدين، يخبره بأنّك ما أن تجلس إلى طاولتك المعتادة، حتى يتناوب عليك المحتاجون، كما المحتالون، ليشكوا لك أوضاعهم.

كان يكفي أن تجتاز الطريق لتعود لهم بالمال، فقد كان مقرّ البنك الوطني على الرصيف المقابل للمقهى.

أكنتَ تتوقّع أن يأتي يوم أرافق فيه أمّي إلى ذلك البنك نفسه، لترهن حزامها الذهبي بعد أن تعذّر عليها تأمين مصروفنا؟ المصاغ الوحيد الذي حمدَت الله لإنقاذه، لأنّه كلّ ما بقي لها من أمّها. كان من قطعٍ ذهبيةٍ صغيرة من فئة العشرة سنتيم تسمّى (اللويز) لكونها تعود لأيّام لوي نابليون، بعد أن أخذتَ منها كلّ ما عداه، لتقدّمه إلى «صندوق التضامن» الذي أطلقه بن بلّة، في خطاب حماسيّ قال فيه «لقد وجدتُ خزينة الدولة فارغة، لكنّي لو طلبت من نساء الجزائر رفع التحدّي لَمَلأنها بمفردهن، بمصاغهنّ!» ردّت عليه النساء بالزغاريد، وانهالت على الخزينة هبات المال والذهب والفضة.

معجزة استقلال الجزائر جعلت الناس في حالة من الحماس منقطع النظير، يثقون في قدراتهم على رفع أيّ تحدٍ ولا يراودهم أيّ احتمال بخيانة الأمانة. كانت تلك أوّل صدمة تلقّاها الشعب الجزائري، ما زالت ارتداداتها سارية، فقد تسبّبت في فقدان الثقة إلى الأبد. فلا أحد إلى اليوم يدري أين تبخّرت كمّيات الذهب التي ادّخرتها الجزائريّات في أعصب الظروف، وقدّمنها للجزائر في عرس استقلالها!

لم أنسَ ذلك، فأوّل تمرين بالفرنسيّة تعلمته في الحياة، كان قراءة الاستمارة الخضراء التي كانت ترهن بها أمّي حزامها، ومراجعتها كلّ مرة للتأكّد من الأجل المحدد لتسديد الدَّين، حتّى لا يحجزه البنك.

كان يحدث أن يحتدم النقاش بينك وبين أمي، وينتهي إلى صمتها من دون أن تكون قد اقتنعت بمنطقك في القناعة.

ذات مرّة تجرّأتْ على القول لك:

– الناس تعمل في الحكومة لتكسب، وأنت عندما انتهيتَ من توزيع الأراضي أعطيتهم صيغتي.

أجبتها بتذمّر:

– عدا صيغتك.. هل من شيء ينقصك؟

ردّت:

– أنت لا ترى كيف يعيش الآخرون.. بدءًا بهذا البيت الذي ضاق بنا.

أجبتَ:

– ليس البيت الذي ضاق، بل نظرتك. إن كان في يد المرء رغيف ونظر إلى مَن لا شيء لديه سَعِد، أمّا إذا غَدَا هاجسه النظر إلى فوق، متأمّلًا مَن يضع على طاولته سلّة «كرواسان» لفطور الصباح، فسيشقى، ولن يستطيب ما في يده.

كان كلاكما على حقّ.

كان هاجس أمّي المستقبل. هي تفكّر بمنطق الزوجة وأنت بمنطق قناعاتك.

أجابتك:

– أنا لا أنظر لا فوق ولا تحت، أنظر للذين كانوا معك في الطابق نفسه وين صاروا!

أيقنتُ وقتها أنّكما لا تنظران إلى الوجهة نفسها، كانت أمّي ترى ما يشبع عينيها، وأنت ترى ببصيرتك ما يشبع روحك، مدركًا أنّك لا تبلغ الكمال الإنساني إلّا باستغنائك عن الكماليات. وكلّ الخلافات بينكما ستأتي من هنا.

لم أفهم حماقة زهدك في أيّ مكسب، لكأنّ الأمر ما كان مجرّد نزاهة، فلا علاقة للأمر بالإيمان، ولا بالموجة الاشتراكية التي كانت

تجتاح العالم، ولا بالفلاحين الفقراء الذين كنت تزورهم في القرى البائسة. كان ذلك طبعك، وتلك كانت فلسفتك في الحياة، التي تعبت أمّي في محاولة تغييرها، وأورثتَها لمراد من بعدك. كنت ترفض امتلاك أيّ شيء. في الواقع، لم تكن واقعيًّا، كنت حالمًا. ثراؤك كما خساراتك، وحدك تدري بها، كانت شأنًا داخليًّا، يشي بها مستوى نقاشاتك. لذا، ما كنت تقسّم الناس إلى من يملك ومن لا يملك، بل إلى من ناضل ومن لم يناضل. كالكثيرين الذين حملوا الجزائر في قلوبهم، وأبوا أن تنتهي في جيوبهم. رفضتَ حتى امتلاك وثيقة تشهد بنضالك، لولا تدخّل مهري لإقناعك بحاجتك إليها نظرًا لوضعك.

آلمك أنّهم جعلوا لكلّ مجاهد قيمة ماديّة توازي ما قام به. هذا يساوي مصنعًا، والآخر مقهى، وذاك منصبًا، حتى دخلنا في زمن المزايدات والشهادات المزيّفة. أصبحت الغنيمة من حق من حارب أخيرًا، وكأنّ الثورة عمرها سبع سنوات، ولم تتتالى عليها ثورات لم تتوقف منذ الأمير عبد القادر.

ثم ماذا عن ثلث سكان الجزائر الذين أبيدوا منذ سنة 1830، في حرب معلنة لإفراغ البلاد من سكانها. فما عرفته الجزائر ما كان استعمارًا، بل استيطان، أي محاولة استبدال لغة بأخرى وتاريخٍ بآخر وشعبٍ بآخر عن طريق الإبادة الجماعيّة قصفًا وحرقًا وتجويعًا وتفقيرًا وتهجيرًا نحو جزر نائية. أين حقّ هؤلاء وهل من إمكانية مهما عدلنا لإنصافهم؟

أذكر تمامًا شجارك مع صديق كان يتردّد علينا، مُنح حانة بمحاذاة فندق كبير. أخرجك الأمر عن صوابك، لم يحدث أن سمعتك يومًا تصرخ كما صرختَ يومها.

كيف للمال أن يهين رجلًا هو من كبار المجاهدين وينزله من الجبال إلى حانة؟ كان للرجل منطقه، فهو لن يدخلها بل يحتاج إلى دخلها.

لعلّ حرمانك من التصرّف بمالك كان أقسى ما حلّ بك. فقد اعتدتَ أن تكون يدك هي العليا، وأن تعطي قبل أن يطلب منك، وأن تعطي دون أن ندري بذلك. أشقاك أنّه ما عاد هذا بإمكانك، لذا ما عدتَ تتردّد كثيرًا على المقهى. بعد أن أصبح خالي هو من يمدّك بالمال، موهمًا إيّاك أنّه من حسابك، وأنّ الدولة لم توقف معاشك.

في الواقع، تقول الجريدة التي جئتك بها خلسة، بأنّ الدولة كانت مشغولة عنك بتجديد شعاراتها، وتخوين رجالاتها، ومواصلة تصفياتها وتمجيد حزبها الأوحد. وكنتُ أظنّها أخبارًا ستسعدك. لاحقًا أدركت أنّ الجرائد العربية تزفّ الخسائر دومًا على أنّها إنجازات، والجرائم على أنّها أخبارٌ سعيدة، أمّا الانقلابات فتغدو احتفالات، كونها «تصحيحًا ثوريًّا». فكلّ من حكمنا جاء بذريعة تصحيح أخطاء من سبقه.

***

«جيئيني بدفتر وأقلام.. لديّ ما أخفيه!».

ما أبهجك يومها، كانا دفترين بحجم صغير أحضرتهما لك، بغلافٍ أخضر باهت وأوراق ليست سميكة ولا ناصعة البياض، النوع الوحيد المتوفّر آنذاك، وأقلام من الحبر الجاف.

قلت وأنا أمدّك بها:

– لم أعثر على قلم الحبر الأسود الذي تكتب به عادة، وفي جميع الحالات كنت ستحتاج إلى تعبئته كلّ مرة.

أجبتَ:

– القلم لا يملأ بالحبر بل بالمشاعر، لذا لم يكن يومًا نوع القلم هاجس المساجين...

– لكنّك لست في السجن بابا!

– بل إنّني في حبس انفرادي. أرأيت الباب الحديدي لغرفتي وذلك القفل؟

لم أجد ما أقوله.

الحقيقة أنّ الباب الحديدي لغرفتك ما كان يختلف عن أبواب الزنزانات، إلّا في لونه السماوي، المختار بنيّة إدخال البهجة على مرضى محبطين نفسيًّا. هو يشبهها حتى في قفله الضخم الذي يُفتح من الخارج. أمّا في الداخل فكان كلّ شيء أبيض، البلاط ناصع البياض كبلاط الحمامات، الجدران مطليّة بدهان أبيض لامع، أغطية السرير بيضاء، المغسلة، الحمام. في الواقع كنتَ على حق.

واصلتَ بحماس:

– لعلّها فرصتي للكتابة، كثير من الأعمال العظيمة كتبت في السّجون.. لا مقارنة بين هذه الغرفة والزنزانات المعتمة المتّسخة التي كتب فيها آخرون أعمالا غيّرت مجرى الأحداث. تدرين الظروف التي كتب فيها هنري علّاق كتابه «La Question» (السؤال)؟ كتبه في السجن بعد جلسات تعذيب، وثّق فيه ما عاناه الجزائريون من ويلات التنكيل في السجون الفرنسية. كان محكومًا عليه بعشر سنوات سجن بسبب دعمه الثّورة الجزائرية. فحوى السؤال هو «لمَ تقتل فرنسا الجزائريين بتلك الوحشية؟» تصوّري أنّه نجح بتهريب صفحات الكتاب من سجنه عن طريق محاميه.

كان من الواضح أنّ مشروع الكتابة قد أثارك، وهيّج فيك أفكارًا ما حسب لها الطبيب حسابًا، ولا أدرك إلى أين ستفضي بك وهو يسألك:

– هل سمعتَ بجورج باتاي..؟

أجبتَه:

– لا.

– هو فيلسوف فرنسي قال «إنّي أكتبُ كي لا أُصاب بالجنون». إنّ الكتابة أجدى بالنسبة للبعض من الأدوية التي يتناولونها.

كطبيبٍ نفسي كان يحفظ ما يدعم نظرياته. ولكن ماذا لو كانت الكتابة هي ما تقود إلى الجنون، لأنّها تضعنا في مواجهة ما هربنا منه؟

أنت الرافض للمعتقلات الفكرية، أجبتني حين سألتك مرّة وأنا أراك في سهوٍ طويل.

– ما بك يا أبي؟

قلت:

– بي الذي لم أقله.

– هل في ما ستبوح به شفاؤك، أم هلاكك؟

لعلّ يومها ولدت لديك فكرة تهريب كتاباتك السياسية إلى البيت عن طريقي. ألم أكن أنا محاميتك كلّما انتقدتك أمّي؟ فلأواصل مهمتي في المستشفى كما مهمة محامي هنري علّاق في التهريب!

واصلتَ بالحماس نفسه:

– مفدي زكريا أيضًا كتب النشيد الوطني وهو في سجن بربوروس، الذي سجن فيه هنري علّاق، وهو من نظم نشيد حزب «نجم شمال افريقيا».. هل تعلمين هذا؟

قلت:

– أعلم...

في الواقع، ما كنت أعلمه هو أنّه النّشيد الأحبّ إليك، فقد سجنت بتهمة المساهمة في إعادة إحياء «حزب الشعب الجزائري» (PPA) الذي كان محظورًا، وكنتم تغيّرون اسمه كلّ مرة تحايلًا على السلطات الفرنسية.

رحت تنشده بإيقاعه الثوري، بصوت عال، وأنت تجوب الغرفة:

فِـدَاءُ الْـجَـزَائِـرِ رُوحِـي وَمَـالِـي أَلّا فِـي سَـبِـيـلِ الْـحُـرِّيَّـة
فَلْيَحْيَ حِـزْبُ الشَّعْـبِ الْغَـالِي و«نَـجْـمُ شَـمَـالِ إِفْـرِيـقِـيَّـا»

انطلق من غرفة مجاورة صوت جهور راح يرافقك:

«وَلْتَحْيَ الْجَزَائِرُ مِثْلَ الْهِلَالِ وَلْـتَـحْـيَ فِـيـهَـا الـعَـرَبِـيّـة»

قلتَ وقد بلغتَ قمّة انفعالٍ أوصى الطبيّب أن تتجنّبه:

– هكذا كنّا ننشد في سجن الكديا، وكان السجن يهتزّ لأناشيدنا، من زنزانة لأخرى. هذا الذي تسمعينه ضابط في جيش التحرير.. هو صديقي الوحيد هنا.

علّقتُ وأنا أسايرك:

– جيّد أن تكون قد عثرت لك على صديق.

أجبتَ:

– أنا محظوظ به. أشاركه قراءة الجرائد التي يحضرها له الممرّضون، لقد فَرض عليهم ذلك. هكذا تعرّفت عليه. تدرين لماذا هو هنا؟ لقد شهد البنادق الجزائرية بعد الاستقلال وهي تستدير على نفسها. كان من فرقة الإعدام التي قامت بإعدام أحد كبار الضباط الوطنيين الذي اتهموه بالخيانة.. أصيب بانهيار عصبي، رغم أنّ

الرصاصة لم تخرج من مسدسه، لكن لعلمه أنّهم لفّقوا لذلك القائد تهمة. لا بدّ أن أعرّفك يوما بسي مصطفى.. لقد حدثته عنك.

لم يستوقفني الموضوع كثيرًا، فقد كنتَ تحدّث الجميع عني، الممرّضين والحرّاس والطبيب. لذا ما كان يمكن أن أتخلّف عن زيارتك. فالجميع يدري أنّك تنتظرني.

كلّ ما كان يعنيني يومها أن أغيّر مزاجك، فالحديث عن الإعدامات، وسماع الأناشيد الوطنية أصبح يزيد من توتّرك. حتى أنّ الطبيب طلب منّا ألّا نشغّل التلفزيون في المناسبات الوطنية. فقد كنت تطلب منّا الاستماع إلى الأناشيد وقوفًا، وترديدها مع التلفزيون أثناء الاستعراضات العسكرية. هكذا بدأت أعراض مرضك.

وهكذا حفظنا «نشيد العمال»، و«نشيد الطلبة»، وبالطبع نشيد «حزب نجم شمال إفريقيا» الذي اشتهر في ستينيات القرن الماضي، يوم كانت الوحدة المغاربية هدف زعماء المغرب الكبير.

قلت لأغيّر الموضوع:

– بابا، بالمناسبة، لا تتصوّر كم من الرسائل وصلتني للبرنامج في أقلّ من شهر، حتى من المغرب وتونس وليبيا، لأنّ برنامجي يبثّ على الموجات القصيرة. أنا محظوظة، فالناس تستمع للراديو في ذلك التوقيت، لأنّه يذاع مباشرة بعد آخر النشرة الليليّة. هم يحبّون الاستماع إلى قراءات شعرية، قبل الخلود للنوم خاصة باللغة العربية وبصوت فتاة.

لم تنسِك فرحتي هدفك الأهم. قلت بنبرة آمرة:

– ما أنتظره هو علاماتك. أريد رؤية دفترك في الزيارة القادمة، لا يهمني نجاح البرنامج، بل نجاحك في الامتحانات!

– ستكون علاماتي جيّدة، أعدك، سآتيك بها. بالمناسبة، لم أجد رواية مالك حداد «الأصفار تدور حول نفسها» التي حدّثتني عنها، فجئتك بهذا الكتاب، عثرت عليه في مكتبتك، قلت لعلّه يعجبك، ما دام لهما عنوانان متقاربان.

أخذته مني، قرأتَ العنوان «الصفر واللانهاية»، ألقيتَ نظرةً على الغلاف وقلتَ ساخرًا:

– أن يكون لهما عنوانان متشابهان لا يعني أنّهما متشابهان، هذه الرواية لكاتب هنغاري. الكتب كالأشخاص، حقيقتها لا توجد في العنوان ولا في الغلاف. ربّما كان الغلاف ثوبًا خادعًا، لذا يقول المثل الفرنسي «الثوب لا يصنع الراهب» أي أنّه أداة غشّ.

– يحزنني أنّني لم أوفّق مرّة في إحضار ما تحبّ من كتب!

– بل هذا الكتاب جيد، تبدو الرواية مشهورةً لم أسمع بصاحبها من قبل.

قرأتَ بصوت عال ما كتب على ظهر الكتاب:

«أرثر كيسلر كاتب انشقّ عن الحزب الشيوعي، وبدأ معركته ضدّ الشيوعية، بعد أن صدمته محاكمات ستالين وما آل إليه الحلم الاشتراكي الكبير على يديه، مثله مثل كتّاب يسارين كثيرين في أوروبا سلكوا منحاه».

لم أفهم شيئًا ممّا قلتَ، ولا توقّعتُ أن يكون هذا موضوع الكتاب. لكن ما كان لك من وقت للشرح.

فقط علّقتَ:

– أحبّ الكتب التي يراجع فيها الكاتب نفسه، بعد خيارات حمقاء استنزفت حياته. تدرين، في كلّ العالم عاش جيلنا خديعة كبيرة.. سأطالعه لاحقًا. اليوم سأشرع في الكتابة.

عانقتُك فرحة:

– حـقًّـا..؟ يسعـدني هـذا.. ستطلعني علـى مـا ستكتب أليس كذلك؟

لم تردّ. كنت تستعجل مغادرتي كي تخلو بنفسك.

تركتك مع دفترين وأقلام، مبتهجًا كما أمام قطعة «ميل فوي».

***

«من الصعب أن تحارب عدوًّا يستطيع قراءة أفكارك».

سالي كيمبتون

كان الدكتور Leguale يحكم عليك من أجوبتك، ولا يدري أنّك تحكم عليه من أسئلته.

«الأجوبة عمياء. وحدها الأسئلة ترى».

هو ماهر في الإنصات وفي استدراج مرضاه للبوح، لكنّ النضال علّمك التكتّم وكبرياء الصمت.

وهو غير صمت الجنود والضباط الفرنسيين الذين عالجهم في الماضي وكانوا يرفضون البوح إلّا نادرًا لشعورهم بالخزي، والذين لم يتحدثوا غالبًا إلّا في الحالات التي راودتهم فيها الرغبة في الانتحار.

تلك الوحشية المنقطعة النظير، عاد منها جنود الاستعمار الفرنسي، كما عاد جنود أمريكا من فيتنام، مدمّرين نفسيًّا، وأنصاف مجانين.

لا أحد يريد أن يحكي ماذا فعل، ولا ماذا رأى. لا يودّ أن يعرف ولا أن يتذكّر، هل قتل إنسانًا أو أكثر. بعد الجثة الأولـى، لا جندي يعود يذكر بالتّحديد كم قتل. لكنّ بعض الوجوه والأصوات التي كان غير مبالٍ بصراخها أثناء التعذيب، ستطارده بين الفينة والأخرى في

كوابيسه، وكلّما تقدّم في العمر ستحرمه الطمأنينة، فيسكنه الندم، أو الرغبة في أن يعود وحشًا من جديد.

طبيب أمريكي قال :«لم يسبق لي في حياتي كطبيب نفساني أن رأيت أحدًا نجا من شيءٍ اقترفه، ولو مرّة واحدة فقط».

فرنسا نفسها لم يكن فيها ما يكفي من أطباء الأمراض العقلية، لمعالجة الاضطرابات النفسية المزمنة للعائدين من حرب الجزائر. وهو هنا بحكم اتّفاقيات ضمن فريق بقي في الجزائر، وسيتمّ استدعاؤه قريبًا إلى فرنسا. فلتداوي كل بلاد مجانينها!

شاءت له المصادفات العجيبة للحياة، أن يعالج الطرفين من جنون تسبّبا فيه لبعضهما البعض. تأخّر في التعاطف مع كليهما. ربّما بتفاوت، فقد كان أكثر لطفًا وتفهّمًا للمرضى الفرنسيين. لكنّه راح يعالج نفسه من العنصرية، أثناء معالجتهما من عواقب الكراهية. فقد غدا طرفًا في جنونهما.

هل يولد الإنسان شرّيرًا؟ أم الظروف هي التي تجعل من البشر أشرارًا؟

شغله السؤال كطبيب نفسيّ. أراد أن يعرف على أيّ عمق تكمن نزعة الإنسان للشرّ؟ وهل يمكن تغيير فطرته؟

ما يدريه هو أنّ الحرب آلة لرحي قيم الرجال وسحق إنسانيتهم، لا يمكن الخروج من وحلها بشرًا عاديًا. هناك جراح الجسد وجراح الروح، البعض نجا من الأولى وكانت الثانية من نصيبه. هذا كلّ ما توصّل إليه.

في زمن الحرب، كان كلّ الشباب الفرنسي مطالبًا بأداء خدمته العسكرية في الجزائر، وبعض من أشهر رفضه سيق إلى السجن. هكذا، ركب الآلاف الباخرة لأول مرة وقطعوا البحر.. مباشرةً إلى الجحيم.

لم يبقَ من إنسانيتهم سوى تلك الرسائل الطويلة التي يكتبونها أو ينتظرونها يوميًّا من أهلهم وحبيباتهم، ولا يعرفون من الزمن إلّا توقيتين: الساعة الخامسة بعد الظهر، التي يُجمع فيها البريد في المكاتب ليرسل إلى فرنسا، والساعة العاشرة صباحًا التي يوزّع فيها البريد في كلّ الجزائر.

خارج تلك الأوقات يعودون وحوشًا بشرية.

في رسائلهم يكذبون، لا يخبرون أقاربهم بمكان وجودهم على الجبهة، حتى لا يشغلوا بالهم إذا سمعوا في الأخبار عن معارك في تلك المنطقة. الكل يدّعي أنّه يعمل في قسم التمريض، بعيدًا عن الميدان، ليطمئن أهله.

في الواقع كانوا هم المرضى، بتفاوت أصيبوا بلوثة الحرب ووحشيتها، وكان الضباط والأطباء يحثّون الجنود على الكتابة لحبيباتهم. فالحب ذريعة جميلة، تبقيهم على حماس للقتال من أجل المستقبل.

لم يكن أتعس من جندي سيق إلى الحرب وليس له حبيبة يكتب إليها، ولا رسالة ينتظرها عندما يوزّع البريد.

محتوى الرسالة غير مهم. هو فقط يحتاج أن ينادى على اسمه عند توزيع البريد، أن يلمس ذلك الظرف، أن يتأمّل طابع البريد، تاريخ الإرسال. الرسالة دليل اهتمام، دليل حياة، دليلٌ بأنّ أحدًا يحبّك وينتظر عودتك.

سيقرؤها قراءة سريعة، ثم يعود ويتوقف عند كلّ كلمة، مفكّرًا في احتمالاتها. سيعيد قراءتها قبل النوم بقليل.. ولأنّه لن يستطيع قراءتها مباشرة حين يستيقظ منطلقًا إلى المعركة، فسيدسّها في جيبه. وقد تكون آخر ما يقرأ.

في حروبٍ مضت، كانت السماء مزدحمة بالبريد. الكلّ كان يكتب يومياته، مراسلاته، أو بطاقات بريدية. بعض تلك المراسلات ستغدو نصوصًا أدبيّة خالدة، تحمل توقيع أشهر الكتاب والشعراء والسياسيين الأوروبيين. وأخرى عادية سيُعثر عليها مع صور حبيبات بالأسود والأبيض، في جيوب جنود سقطوا في المعارك.

وقبل زمن البريد، كان نابليون يبعث برسائله إلى جوزفين من ساحة المعركة يوميًّا مع أحد رجاله، ولا تنسيه فتوحاته تأخّر رسائلها. الإمبراطور العاشق لزوجة ما كان يدري بخيانتها له، كان يختصر شوقه لها في كلمات تحمل عرق المحارب: «جوزفين، لا تستحمّي إنّي قادم».

لكنّ الجنود الجزائريين كما العرب، ما كان من عاداتهم كتابة الرسائل من الجبهة إلّا نادرًا، وغالبًا كان ذلك لطمأنة عائلاتهم. لا بسبب أميّة البعض فحسب، ولكن لأنّ التقاليد الاجتماعية، ما كانت تسمح بالبوح بالمشاعر في رسائل، لا أحد يدري أين ستنتهي. خاصة أنّها كانت تسلّم باليد لا بالبريد.

وقبل ذلك، كانت رسائل الفرسان العرب، تُكتب في الحروب شعرًا. فالرسالة التي بعثها عنترة بن شداد إلى حبيبته قبل أربعة عشر قرنًا، من قلب المعركة، وترك للرّواة وللتاريخ مهمة نقلها، لم يكتبها ليبوح لها بخوفه ألّا يراها مجدّدًا، بل ليُشهدها على بسالته، وليُهديها فخر المباهاة به بين القبائل، أي إنّه كان مشغولًا عن موته بتخليد صورته:

ولقد ذكرتُكِ والرّماحُ نواهلٌ ... منّي وبِيض الهند تقطر من دمي
فوددتُ تقبيلَ السّيوف لأنّها ... لمعتْ كبارق ثغركِ المتبسّمِ

إذا كان الأدب يُعجَب بالشِّعر الحماسي، فهو يفضّل عليه الأعمال التي تصف الضعف الإنساني في مواجهة أهوال الحروب. فهي الأقرب إلى هشاشة الإنسان وكينونته، وهي التي يرى فيها حقيقته البشريّة.

لذا، قبل أعوام، بيعت في المزاد العلني صورة لقُبلة بمئة وخمسين ألف دولار. أمّا غلاؤها في زمن رخصت فيه القُبل، فيعود لكونها التقطت في الحرب العالميّة الثانية، بالأسود والأبيض، لعاشقين متعلّقين بقُبلة قد تكون الأخيرة إلى قاطرة الفراق، وخلفهما باب مفتوح لقطار يستعجل المُضيّ بالحبيب مع آلاف المجنّدين إلى حتفٍ محتمل.

ليست القبلة، بل الرعب الإنساني أمام فاجعة الفقدان، هو الذي رفع ثمن تلك اللحظة المحمومة المذعورة التي خلّدتها عين الكاميرا، إلى سقف الصورة الأغلى لعاشقيْن مجهوليْن.

في الواقع، لم تكن صورةً لعاشقين، بل لسبعين مليون إنسان، لاقوا حتفهم في تلك الحرب اللعينة، وماتوا ميتة الحشرات، من دون أن تسعفهم الحياة بسرقة قبلة أخيرة كتلك، من شفاه أحبّائهم.

***

«هنالك مدن جميلة كذكرى، قريبة كدمعة، موجعة كحسرة...
هناك مدنٌ كم تشبهك».

كان زمنًا، رسائل الحبّ فيه أغلى من الحليّ والجواهر. تُرشّ أوراقها بالعطور وتخضّب بالدموع، ويخبّئها العشاق تحت الوسائد، ليقرؤوها قبل النوم، ويتوسّدوها أثناءه. ثمّ أصبحوا يدسّون تحت وسائدهم الهاتف النقال، كي لا يفوتهم سماع جرس الرسائل، مجازفين بصحتهم.

أمّا أنت، فكنت تتوسّد ذكرياتك... غير مهتمّ إن كان في ذلك مرضك أم شفاؤك..

لعلّ «الوسادة الخالية»، الرواية التي لم أقرأها، وعلق عنوانها آنذاك بذاكرتي، هي ما لفت نظري إلى بؤس وسادتك، في سريرٍ فردي بمستشفى. على نظافتها، كانت تلك الوسادة تختصر مأساتك، لأنّها من بين كلّ الأشياء من حولك، كانت الأقرب إليك. فقد كنت تقضي جلّ وقتك مستلقيًا في سريرك، بحكم الأدوية المهدئة والمنوّمة التي تتناولها.

كانت لا تشبه في شيء نوعية وسائدك، التي كان غلافها مطرّز الأطراف، حسب طقم الشراشف، الذي كانت أمّي تقضي أسابيع منكبّة على إطار التطريز الخشبي المستدير لإنجازه، كعادة النساء في ذلك الزمن، عندما كان على كلّ امرأة أن تطرّز بنفسها بياضات بيتها.

لكنّ أمّي ما كانت تكتفي بالورود المطرّزة على وجه الوسادة، فقد كانت تقطف حفنة ياسمين من ياسمينة حديقتنا في تونس وتضعها تحت الوسائد كي تعطّر سريرها.

هي القسنطينية، أنجبتها خلطةٌ عطريةٌ. فهي ابنة مدينة اعتادت كلّ ربيع إقامة كرنفال احتفالي، ينطلق في موكب بهيج من قصر أحمد باي، تتقدّمه عربات مغطاة بالورود، وفرق موسيقية تقليدية، إعلانًا عن بدء موسم تقطير الورد والزّهر في البيوت، ضمن طقوس وتقاليد عريقة تتوارثها القسنطينيات، فتعبق لأيّام أزقّة قسنطينة وبيوتها بالعطور.

كانت قسنطينة، أنثى الدلال، متربّعة منذ الأزل فوق صخرة، بقدميها المغتسلتين في وادي الرمال، من دون أن تخلع خلخالها الذهبيّ. هي كلّ أنوثة العالم في مدينة. كما تنتشر أزهار النرجس

مروجًا في وديانها السحيقة التي تشقّها السيول، تتفتح الصبايا ورودًا في شوارعها، سافرات، أو تحت الملايات، لكلّ واحدة منشؤها، وإيقاع مشيتها، وعطرها الذي يميّزها.

يقول الروائي الطاهر وطار، واصفًا انخطاف شباب جيله بجمال نسائها:

«في الربيع بصفة خاصة، تنعكس الجنة كما هي في تصوّراتنا في قسنطينة، يتبارز في الشوارع الضيقة جمال الأوروبيّات من فرنسيات، وإسبانيات، ومالطيات، مع جمال اليهوديات، مع جمال الجزائريات، من سمراوات قادمات من بسكرة ومن الجنوب، إلى قمحيات آتيات من الشرق، إلى بيضاوات جئن من الشمال، إلى حمراوات أتين من تركيا أو إحدى مناطق البلقان، وتتدافع الروائح العطرة من اختراعات كلّ الأجناس وكلّ القارات».

أشفق عليك يا أبي. أيّها القسنطيني الذي لا يحتسي قهوته إلّا مرشوشةً بماء الزهر، من مرشٍّ فضيّ. كم من العطور كان عليك أن تقاوم إكرامًا للياسمين!

.. ويخطر ببالي الآن سؤال متأخّر:

أكنت تسعد برائحة الياسمينة التي زرعتها أمّي في الحديقة، كي تعطرّ سريركما، أم أنّك مساءً كنت تفتقّد عطرًا أنثويًّا طاردك شذاه في بلاد أخرى، وباعدتك عنه المسافات مذ ذلك اللقاء؟

لست عاتبة عليك. لسنا من نختار عطر وسائدنا. الأقدار هي من تضع في سريرنا عطرًا قطفت لنا الحياة أزهاره.

لعلّ أمّي أيضًا كانت تعي هذا، ومثلك تتقبّل قسمة الله في العطور.

«شيءٌ ما حدث في طفولتك وبدون أن تعي ذلك،
كلّ شيء سيدور حوله حتّى آخر لحظة من حياتك».

ثمّة أحداث مباغتة، فاصلة، تغيّرنا من الداخل، تعيد ترتيب علاقتنا بالحياة، وتغيّر قراباتنا بالآخرين. المرض، اليتم، الغربة، الخيبة، تتحكم بأعمارنا، فنكبر، نصغر، أو نشيخ، خارج منطق الأعوام.

في آخر أيامه قال لي نزار متحدثًا عن ابنته: «هدباء أمّي» فأدركت كم صغُر أمام المرض.

معك كان لي عدّة أعمار.

كنت ابنتك، إلى أن مرضتَ فغدوتُ على صغري أمّك. ثمّ اغتربتُ فأصبحتَ مع البعد أصغر أبنائي.

الأمومة حنان والأبوّة أمان. اعتدت مذ صباي أن أتكفّل بتوزيع العاطفتين على الجميع، وأنا أنوب عنك في إعالة إخوتي.

وعدت أمّي وأنا أستلم أوّل معاش لي، بأنّ كلّ ما أتقاضاه لها. عن مكابرة تأخرتْ في إبداء سعادتها، كي لا تعطيني انطباعًا بأنّها غيّرت رأيها، فلم يكن قلبها مطمئنًّا للإذاعة. أسرعتُ أزورك في المستشفى لأقتسم معك فرحتي.

أخرجتُ المبلغ من حقيبتي المدرسية، وقلتُ فرحة:

– بابا.. لقد تلقّيتُ أوّل معاش لي. بإمكانك أن تطمئن، سأتكفل بالعائلة!

أخطأتُ في صياغة الخبر. عكس ما توقعتُ أغضبك كلامي. أشرت بيدك بعصبية أن أبعده عن ناظرك. قلتَ:

– لم أسمح لكِ بالعمل لتنفقي علينا.. ما أريده منك هو البكالوريا..!

عانقتك وقلتُ:

– سأفوز بها بابا لا تقلق.. أعدك. أردت فقط أن تفرح بي، إنّه أوّل مبلغ أتقاضاه في حياتي!

علّقتَ بالفرنسية:

– سعيد من أجلك.

وصمتَّ.

سألتَني عن أمي، وعن إخوتي وعلاماتهم في الدراسة.

برغم كلّ الأخبار السارّة، لم تبد سعيدًا. منظر المبلغ الكبير الذي أخرجتُه من حقيبتي والذي كان يقارب معاشك، شوّش فرحتك بي. دومًا رأيتَ في المال خطرًا على صاحبه. فما بالك على صبيّة في عمري.

الفصل الثاني

«الذكريات التي لا تفارقك مدى الحياة
هي بالذات تلك التي تتحكّم في حياتك».

اعتدتُ أن أسلّم أمّي معاشي كاملًا، كي أترك لها دور الأم في إعطائي مصروفي حسب مزاجها. كنت أسعد برؤية فرحتها المكابرة، لعلمي كم هي ممتنّة لي في أعماقها، وكان ذلك يكفيني.

لم تكن أمّي من النوع الذي يشكرك ويغدق عليك دعواتِ الخير. عليك أنتَ أن تستنتج ذلك من سعادتها بك. لاحقًا حين تقدّم بها العمر، أصبحت تستعمل سلاح الدّعاء بحدّيه. قد تدعو لك، أو تدعو عليك في لحظة غضب، ثمّ تعود وتستدرك خشية أن تسمعها السماء. هي تشبه أمّهات جيلها، قست عليها الحياة، فقست علينا في تربيتنا.

كان لأمّي مشاريع تبقيها دائمًا متحمّسة، خاصة تلك التغييرات التي تقوم بها في البيت. لم تعد تخيط ثيابًا إلّا لمتعتها الخاصة، وبدل

البنك الذي كانت تقصده لرهن صيغتها، أصبحت تقصد الصاغة، لتشتري بالتقسيط، ما أخذ منها في «صندوق التضامن».

ومثلها، معظم النّساء من معارفنا اللّواتي خسرن في «عرس الجزائر» مصاغهنّ، أصبح هاجسهنّ تعويضها لحضور أفراح الأقارب. فالقسنطينيّة مذ تأتي إلى الحياة، وهي تجمع المال لتقتني المصاغ الذي ستلبسه مذ عرسها وإلى آخر يوم في حياتها، والذي من دونه لا يمكن ارتداء القندورة القسنطينيّة المطرزة بخيوط الذّهب على أصولها. فهي تحتاج إلى المحزمة، والخلخال، وإلى قلادة طويلة وضخمة من الذهب والعنبر، تدعى السخاب، لتزيّن صدرها، وعددٍ كبيرٍ من الأساور تضعها جميعها في معصمها.

كنت أرافقها أحيانًا إلى محلات الصّاغة، لكن لا أذكر أنّ قلبي تعلّق يومًا بالذهب، ولا أنّني لبست منه غير خاتم وأقراط. لذا ما كنتُ معنيّةً بما كانت تشتريه بين الحين والآخر، قائلةً إنّني أحتاجه لجهازي. بل هي من احتاجته لاحقًا، إذ ضحّت بمصاغها للمرّة الثانية، وباعت أعزّ ما عندها، لتُمكّن أخي ياسين من السّفر إلى كندا للدراسة، مؤمِّنةً له عامه الأوّل ريثما يتدبّر أمره.

فرحتي كانت بأشياء بسيطة غدت مذ (أثريت) في متناولي، أوّلها الحصول على ما أشاء من قطع الـ(ميل فوي) أي «حلوى الألف ورقة» التي كنت من قبل أشتريها من المخبزة المقابلة للثانوية، وأنا في طريق عودتي إلى البيت. في الواقع، كنت أتعمّد مغادرة الثانوية برفقة زينب حفيدة الأمير عبد القادر، التي كانت زميلتي في الصف، لأنّها اعتادت، أثناء مرورنا بالمخبزة لشراء حاجتها، أن تسألني ماذا أريد، فتشتري لي قطعة (ميل فوي). كانت تحبّ صحبتي وتريد استبقائي لانتظار السائق معها، لكونها الوحيدة الّتي لم تكن تركب الحافلة مثلنا، وكثيرًا ما ترافقني إلى البيت لأنّه كان على طريقها.

على لطفها، كان الأمر يؤذيني نفسيًّا. لعلّها انتبهت لتوقّفي طويلًا أمام واجهة المخبزة. لذا أوّل مشروع شخصي خطر ببالي عندما تحسّنت أوضاعي الماديّة، كان أن أدفع عنها ثمن ما تشتريه، حتى أنّي رحت أحيانًا أشتري تشكيلة من الحلويات، آخذها معي للبيت كي أستعرض أمامها إمكانياتي.

طبعًا، لم نكن يومًا فقراء، لكنّ بعض المصاريف كانت ترفًا بالنّسبة لأولويّاتنا. فقد كنت أرى أمّي منكبّةً على مكنتها، وكان يعزّ عليّ أن أطلب منها ما هو ليس ضروريًّا، كتوفير مصاريف جيب يومية للحلويات، سيطالب إخوتي بمثلها.

كانت قطعة (الميل فوي) بالنسبة لي ما كانته قطعة (المادلين) بالنسبة لبروست في روايته «البحث عن الزمن الضائع». تلك الحلوى الشهيّة التي أحتفظ في لا شعوري بمذاقها الحلو، وبطعم الكريما الصفراء وهي تتدفق عند أوّل قضمة من الجانبين. حول تفاصيلها تشكّلت ذكريات صباي، فقد كانت ذاكرة الزّمن الصعب، ثم بداية رفاهيتي.

كنّا نشترك في حبّ (الميل فوي)، فقد كان بإمكان قطعة منها أن تصنع سعادتَك ليومٍ كامل، لذا اعتدت أن أشتري لك قطعتين من مخبزة في باب الواد، قريبة من المستشفى، تتفوّق في صنع الحلويات. كانت تقدّمها في صينية مستطيلة، طالعة لتوّها من الفرن، تسبقها رائحتها، بوريقات رقيقة ومحمّصة بعض الشيء، يميل لونها إلى البني، تفصل بينها عدة طبقات من الكريمة السميكة بمذاق مميّز، مغطاة على وجهها بطبقة من السكر المجمّد تزيّنه خطوط بنّية خفيفة.

الطّريف، أنّني حين أقمت بعد ذلك في باريس، كنت أطلب من أخي ياسين كلّما جاء، أن يحضر لي معه من الجزائر قطع (ميل فوي). وكان رحمه الله يأتيني بها حاملًا إيّاها باليد، متعجّبًا لأمري، فمقابل بيتي تمامًا كان أرقى محل حلويات في فرنسا، لكنّ ذاكرة مذاقي لم تقتنع بالمواد جيّدة النوعية التي يعدّ بها LE NOTRE حلويّاته بسكّر خفيف، ولا بالحجم الصغير لكلّ قطعة.

ما كنت أعرف يومها بأنّ تشكيلة السكّريات هي التي تجعل من تلك القطعة ذات السعرات الحرارية العالية حلوى ساحرة المذاق.

لذا، لم أفهم لماذا كان لها ذلك التأثير المبهج عليك، وتلك القدرة على تغيير مزاجك، إلى أن قرأت وصف بروست لتلك الفرحة التي اجتاحت كلّ كيانه حين، لأوّل مرة، تذوّق قطعة المادلين التي أمدّته بها خالته، مع مشروب ساخن، فتسلّلت رائحتها إلى حواسّه، ولم تغادرها مذ حينها. مكتبة سُر مَن قرأ

مع العمر، غدت المادلين الخيط الموصل لما نجا من ذكرياته، ذلك أنّ المذاق والرائحة يعيشان أطول فينا، بعد موت الأحياء، ودمار الأشياء، كما يقول بروست. حتّى أنّ «طغيان تلك البهجة التي تعتريك يمنحك إحساسًا بالجمال والخلود، وبأنّك لست سيّئًا ولا زائلًا». في الواقع، كان السرّ في السكّر، إنّه نوع من الإدمان، لذا يعطينا تلك النشوة التي لا يبلغها المرء إلّا ثملًا، والتي يحتاج إلى المزيد منها كلّ مرة.

ذات مرة، كعادتك، التهمتَ قطعة الميل فوي بسرعة أوّل ما أعطيتك إياها، ثمّ، شعرت بالظمأ، وتقاسمتك الرغبة في شرب الماء، أو الاحتفاظ لوقت أطول بمذاق الحلوى في فمك، قلتَ:

– تدرين.. الإشكالية في كلّ ما هو حلو، هي أنّنا حال الانتهاء منه نحتاج إلى الماء، وعندها يذهب المذاق، فنريد المزيد منه.

ثم أضفتَ بعد صمت:

– إن أردنا أن نحتفظ بالمذاق الحلو علينا ألّا نشرب، وهذا مستحيل.

سألتك باستخفاف:

مكتبة
t.me/soramnqraa

– وما المشكل إن شربنا؟

أجبتَ متردّدًا:

– لن تفهمي.

– أريد أن أفهم.

– كلّ ما هو حلو يليه الندم، لأنّه لا يبقى في الفم.

لم تشرح لي لماذا يليه الندم. لكنّي فهمت بعد ذلك بعمر.

فالمأساة الحقيقية ليست في عدم دوام ما هو حلو، بل في تحوّله لاحقًا إلى سمّ. ففي كلّ ما نستطيبه في الحياة قصاص مستقبليّ.

ليتك شرحت لي هذا باكرًا، فكم من سمّ الحياة تناولتُ، معتقدةً أنّه قطعة (ميل فوي)!

***

«ما قد يبدو لك خسارة، قد يكون هو بالتّحديد الشيء الذي سيصبح في ما بعد مسؤولًا عن إتمام أعظم إنجازات حياتك».

ذات يوم طلبت مني مديرة الثانوية الحضور في الغد إلى مكتبها. شعرت بسعادة غامرة، فقد كنت قبلها بأسبوع قد شاركت في تمثيل ثانويّتنا في برنامج «بين الثانويات»، أشهر برنامج طلابي تلفزيوني تتواجه فيه كلّ أسبوع ثانويتان. كانت المنافسة وقتها مع أوّل

ثانوية معرّبة للذكور، وكنت دون قصد نجمة البرنامج نظرًا لشهرتي، وللأجوبة الصّحيحة التي أنقذت بها ثانويتي.

بدا لي الوقت طويلًا في انتظار الموعد. كان بي فضول أن أعرف بما ستكافؤني. في الواقع ما كان يمكن أن تضيف لي شيئًا، علاماتي كانت جيّدة، وملاحظات الأساتذة أيضًا. أمّا الناظرات، فقد اعتدن تكليفي بمراقبة الصفّ في الساعة التي تلي الغداء، عندما اكتشفن قدرتي على السيطرة على اهتمام زميلاتي. كنت أقرأ عليهنّ كتبًا مختارة ومتنوّعة أحضرها من المكتبة.. بعضها مسلٍّ، وبعضُها الآخر في تفسير القرآن، الذي كانت معانيه مشروحة على هامش كلّ آية (هذا ما نسيته تمامًا وذكّرتني به زميلة التقيتها بعد عقود)!

في اليوم التالي، قصدت صباحًا مكتب المديرة سعيدة، وقفت أمامها واثقة، غير متوقّعة ما ستقوله لي. لكنّها دون مقدّمات قالت ما نزل عليّ كصاعقة:

– أذكّرك يا آنسة بأنّنا هنا في ثانوية، وعليك أن تختاري بين أن تكوني طالبة، أو نجمة. لا أسمح بأن تتسبّبي بفوضى عند خروجك، لأنّ ثمّة من ينتظر عند الباب ليشاهدك أو ليتحدّث إليك.

تحت وقع المفاجأة، ارتبكت، ودافعت عن نفسي بما أوتيت من صدق:

– آنستي.. لم يحدث هذا إلّا نادرًا، بعد أن عرف البعض أنّني أدرس في ثانوية عائشة، بسبب البرنامج الذي شاركت فيه. لا علاقة لي بالأمر.

ردّت قاطعة الطريق على أيّ جدل:

– لا أريد أن أسمع أيّ شيء. إن كنت تريدين مواصلة العمل في الإذاعة، اِعتبري نفسك منذ اللّحظة مطرودة.. اِنصرفي!

ما كان يمكن لصدمة أن تكون أكبر من تلك بالنسبة لي!

طلبتُ منها أن تمهلني فقط الشهرين المتبقّيين من السنة الدراسية، وهي الفترة التي تفصلني عن امتحانات الثانوية العامة أو (البكالوريا) كما نسمّيها. فلا يمكن أن أترك الثانوية في أحرج توقيت يسبق الامتحانات.

لكنّها كانت حاسمة في قرارها حدّ العدائية.

غادرتُ مكتبها باكيةً. ما تركت لي مجالًا حتى لأشرح وضعي العائلي أو لأستجديها. شعرت أنّ السماء وقعت فوق رأسي، وأنّني بكلمتين منها سُحقت وخسرت كلّ شيء.

أوّل ما خطر ببالي، كيف أخبرك بذلك، وقد قلتُ لك قبل يوم بأنّ المديرة استدعتني لتهنّأني، واثقةً من فرحتي. كلّ ما كان يعنيني هو ألا أخيّب ظنّك أنت. وكان ذلك الأمر بالذات يجعل دموعي لا تتوقّف.

بجملة واحدة، انقلبت حياتي إلى جحيم. ما كان يمكن أن أستشيرك أو أستشير أمّي في قراري. هي ستستشيط غضبًا وتقول إنّني فعلت شيئًا ما يبرّر طردي. وأنت ستفقد ما بقي من أعصابك، لمجرّد فكرة أنّني مهدّدة بالطرد من الثانوية. وستأمرني بإيقاف البرنامج فورًا، غير مهتمّ بتبِعات ذلك على وضعنا المعيشي.

طوّقتني الزميلات مواسيات. رحن يفسّرن عدائية المديرة غير المتزوجة، بالغيرة، فهي واثقة بأنّني سأختار الإذاعة، وبهذا تكون قد تخلّصت من وجودي في الثانوية الذي كان يشوّش على مشاريعها الخاصة. فقد كان بإمكانها أن تضع لي شروطًا، أو تمهلني شهرين، لكنّها دفعتني إلى أن أطرد نفسي بنفسي.

كان ذلك أوّل ثمن باهظ دفعته مقابل شهرتي.

في السابعة عشرة من عمري، ما كنت أعرف معنى أن يكون المرء نجمًا، كان زمنًا بريئًا لا إنستاغرام فيه ولا تيك توك. النجوم، كنّا نشاهدها في السماء، أو في التلفزيون أو السينما. كنتُ كائنًا أرضيًّا. أنا نفسي ما كنت أدري كيف بلغت، في بضعة أشهر، شهرة تتجاوز حدود الجزائر. كان الترانزيستور يرافق الناس إلى سريرهم مساء، للاستماع إلى الأغاني ولمتابعة الأخبار، وبين الأخبار والآيات القرآنية التي ينتهي بها البثّ عند منتصف الليل، كان يأتي برنامجي.. وعلى الأرِقين أن يتدبروا أمرهم بعدها، فحتى التلفزيون كان يوقف الإرسال!

كنت قد أصبحتُ من دون وعي جزءًا من حياة الكثيرين، صوتًا ليليًّا مُنتظرًا كلَّ مساء، يقاسم المستمعين وسادتهم وأحلامهم، ويوشوشهم أشعارًا في الحبّ قبل النوم، حدّ التسبب أحيانًا في شجارات بين الأزواج. فلم يكن الجزائري قد اعتاد كلمات الحبّ باللغة العربية بالذات، لهيبتها في وجدانه.

في النهار، لا شيء تغيّر، كنت أركب الحافلات المكتظة، قاصدةً المستشفى، ذاهبة أو عائدة من الثانوية، وكنت لا أزال أخاف أمي، وأواصل مساعدة من أصادف من عجائز.

كانت تلك أقسى نهاية أسبوع عشتها، توقّعت كلّ المصائب الممكن حدوثها، وبكيت مسبقًا كما لو أنّها حدثت. ثم عندما بلغت النقطة الأبعد في اليأس، عاودتُ الصعود ككرة تحتاج أن ترتطم بالقاع لتعلو. في لحظة تحدٍّ أخذت القرار الأصعب وحدي: لن أوقف البرنامج!

قصدتُ في الغد الثانوية لأودّع الأساتذة وأجمع حاجاتي. لم أمنح المديرة فرصة أن تصادفني بعد أيّام فتجدّد إهانتي. كان في انسحابي المبكّر إهانة لها، ستبحث عيناها عني عساها تذلّني

ولن تجدني، فهي تحتاجني أنا بالذات لتثبت بأنّ سلطتها أكبر من شعبيّتي. كانت غشاوة من الدموع تحجب عنّي الرؤية. كنت أعي أنّها النظرة الأخيرة، لكلّ ما صنع سعادتي وما توقّعت له هذه النهاية. لم أودّع كما تمنيت الأماكن التي قضيت فيها خمس سنوات، حيث عشت صبا المشاعر في اشتعالها الأوّل، وجلست على مقاعد الحبّ تلميذة مشاغبة دائمة الأحلام. كلّ شيء أبكاني يومها. أشجار الساحة، المطعم، المحطة التي حملت فيها حقيبة أوهامي العاطفية، المخبزة التي كانت قطعة غاتو فيها تكفي لإسعادي. حافلة الثانوية التي كثيرًا ما غنّيت فيها عبد الحليم، ونسيتُ أن أغنّي «يا شارع الضنا مشيتك أنا مرّة بالعذاب ومرّة بالهنا». كلّ هذا لن يحدث مجدّدًا.

طلبتُ من زينب أن تمدّني بالدروس مستقبلًا، لأواصل الدراسة في البيت، وبدل أن تشتري لي قطعة ميل فوي، أصبحت أزورها كلّ نهاية أسبوع حاملةً علبة حلويات، لنراجع الدّروس معًا.

هكذا انتهى زمن الميل فوي وبدأ زمن التّحدي الأكبر!

القهر أكسبني شجاعة ما كنت لأكسبها لولا إحساسي بالظلم.

أوّل إرهاصات النجاح، الوقوع في حبّ التحدّي. تلك الثّقة بالنّفس التي تتجاوز طاقتك، وتوشوشك «ستنجح» وتبقيك مشتعلًا بالثّأر الجميل، لأنّ ثمّة من استخفّ بك، وأهان دمعك، وأراد أن يراك أرضًا، واثقًا بأنّك خاسر أيًّا كان خيارك.

وقودي كان تصوّري فرحة أبي وقهر مديرتي أمام خبر نجاحي.

لننجح نحتاج أيضًا إلى أعداء.

وكانت المعجزة.

عشت لأيّام ملتصقة بجهاز الراديو، فقد درجت وزارة التعليم آنذاك على بثّ أسماء الناجحين في الإعدادية العامة (البكالوريا) على أمواج الإذاعة، نظرًا لقلّة أعدادهم التي كانت لا تتجاوز بضع مئات.

وفجأة كحلم إذا بي أسمع اسمي. اسمي الذي كان يُلفظ يوميًّا في الإذاعة ليلًا، سمعته يُلفظ نهارًا مع الطلبة الناجحين.

كان له وقع مختلف على أذني حتى لكأنّه اسمٌ لغيري!

اسمي الذي ارتبط لدى المستمعين بالليل حتّى ظنّوا أنّ أحلام اسم فنّي. فليعلموا أنّه اسمي الحقيقي... وأنّ الأحلام وجدت لتتحقّق كما أراد أبي!

انهرت باكيةً.

ما كان بإمكانك أن تسمعه، لأنّ الراديو ممنوع عليك. ولا هاتف لديك لأخبرك بنجاحي. دائمًا كان هناك فارق توقيت في أفراحنا.

في اليوم التالي، قصدتك من دون أن أحمل شيئًا سوى ذلك الخبر. جئتك طيرانًا وما كان يمكن لجناحيّ أن يحملا غير فرحتي.

صحت حال فتح الباب الحديدي لغرفتك:

– بابا.. نجحت في البكالوريا!

انتفضت من سريرك، وبدت على أساريرك فرحة لم أشهدها من قبل. لم يحدث أن رأيتك كذلك.

قلت بالفرنسيّة وأنت تضمّني طويلًا:

– حبيبتي.. أنا فخور بك.

واصلتُ بحماس:

– أنا محظوظة، سأواصل الدّراسة في كليّة الآداب، على بعد خطوتين من البيت. تعبت من تغيير الحافلات. تصوّر البعض سيأتي

من بعيد وحتى من ولايات أخرى للإقامة في العاصمة. إنّها الكليّة الوحيدة المعرّبة إلى الآن...!

لمعت عيناك فرحًا أو دمعًا. واصلت ضمّي وقلت:

– كم يسعدني أن تبدئي دراستك الجامعية في ظروف حسنة.. هكذا هي الحياة، يوم اخترتُ شقّتنا كان ما يهمني هو أن تكون قريبة من مكتبي، ما توقعت أن أغادر وظيفتي، وأنك من ستستفيد من قربها من الجامعة، حتى الطريق إلى الجامعة جميل، يكفي أن تعبري الحديقة!

لأنّ الفرح ثرثار، تحدثنا كثيرًا عن مشاريعي بعد الآن، وغادرتك ومعي تلك الكلمات الثلاثة: «أنا فخور بك».

كنت أحتاجها سندًا لمعارك ما ظننتها ستكون في انتظاري.

***

«لستُ من الحماقة لأقول إنّني أحببتك من النّظرة الأولى.
يمكنني أن أقول إنّني أحببتك ما قبل النظرة الأولى».

الطريق إلى الجامعة كان فعلًا جميلًا، خاصّة أنّ حديقة الأزهار هي نفسها الطريق الذي كان يفضي إلى الحبّ.

أنقذ نجاحي في البكالوريا كبريائي ومستقبلي، وأنقذ أيضًا قصّة حبّي، التي ما كانت لتحافظ على شاعريّتها واشتعالها لو أنّي غادرت الإذاعة.. فقد ولدت بين أمواج الأثير، هديّة المصادفات القدريّة.

يا لجمالها...

كان زمن الحبّ الأوّل، لفتاة في العشرين، وشابّ تجاوز الثلاثين ببضع مبادئ، وكثيرٍ من الأحلام.

كان «وحيد» الإعلامي الجزائري الذي يضاهيني شعبيةً، يقدّم أحد أشهر البرامج الإذاعية المنوّعة، ببحّة جميلة تميّزه، ووسامة تجمّلها سمرته، وذكاء ثقافيّ جعل منه لاحقًا نجمًا تلفزيونيًّا جماهيريًّا. لم يكن ذلك اسمه، ولكنه اختاره من أحد أفلام عبد الحليم، خصّيصًا لي. كان اسمًا يشبهه فقد كان فريدًا في شهامته.

ذات مرّة، تقاطعت خطانا عند باب الإستديو، كان قد انتهى من تسجيل برنامجه. قال وهو يغادر «استمعي لي غدًا».

لم يضف شيئًا. مضى تاركًا ابتسامة حمّلها غموضًا عاطفيًّا لذيذًا يتقن توظيفه.

بقيت على لهفة أتوقع شيئًا ما، دون أن أدري ما هو.

في الغد، على غير عادته، مباشرة بعد شارة البرنامج، انطلق صوت عبد الحليم يغنّي «أنا لك على طول خليك ليّا»، ثم راح يقرأ بخلفية موسيقية «رسالة إليها»، نصًّا عاطفيًّا مذهلًا في بوحه كقصيدة حبّ متقنة الكتابة، أحفظ منها: «مذ جئتِ صرتُ (وحيد) عساك تكونين لي وحدي».

كان بارعًا في اللّعب بالكلمات.

لا أذكر ما الذي حلّ بي بعد ذلك، أفرحتُ؟ أم بكيتُ؟ أم جننتُ؟ لعلّ كلّ هذا قد حدث. كانت تلك أوّل رسالة حب حقيقية أتلقّاها.. هكذا مباشرة على موجات الإذاعة وعلى مسمع من آلاف المستمعين!.

في عزّ انفعالي وبهجتي، أسرعتُ أعدّ الحلقة القادمة من برنامجي. اخترت مقطعًا من أغنية لأم كلثوم «واحشني وانت قصاد عيني» وابتكرتُ بدوري فقرة «رسالة إليه» لأكتب ردًّا على رسالته.

أصبحتْ قصتنا أجمل من الأفلام المصرية نفسها. فهي قصة حقيقية تدور في الجزائر. لعدة أيّام تبادلنا الأغاني والرسائل العاطفية على هذا الإيقاع المشتعل، من دون أن ينتبه المستمعون إلى من كنّا نبعث برسائلنا.

باكرًا اكتشفت متعة التّحايل، بالتّوجه بين الجموع إلى فرد.

لعلّ أوّل تجربة لكتابة النصوص العاطفية، باشرتها وقتها في برنامجي، لإبهار وحيد. دليل آخر بأنّ الهدف من كلّ ما نفعله هو إبهار شخص واحد. فقد كانت حواراتي معه بجمال نص أدبي. لذا ما كان يعنينا أن نلتقي، بقدر شغفنا بإبقاء تلك النار مشتعلة بيننا إذاعيًا، فقد كنّا مولعين بعذوبة اللغة العربية في الحبّ، وندري بأنّ هناك مواعيد وهمية أجمل من كلّ المواعيد، وأنّنا نعيش قصة خرافية شبيهة بما يحدث في الأفلام.

لم يحاول أحدنا لقاء الآخر. فقد كانت لنا الشاعرية نفسها، والقدرة على الصبر العاطفي. تعمّدنا ألّا نتواصل إلّا عبر البرنامج، لإطالة متعةٍ ما كانت في متناول سوانا، بحكم تقديمنا برنامجين، محتواهما الحقيقي: الحبّ.

ما يحزنني حقًّا، أنّ الإذاعة الجزائرية، بسبب حاجتها آنذاك للأشرطة، محت كلّ التسجيلات لبرنامجي الذي قدّمتُه يوميًّا على مدى أربع سنوات. يا للجريمة.. أكثر من 1500 حلقة من «همسات»، لم تبقى منها حلقة واحدة للأرشيف!

ثـمّ التقينا... أصبحت حديقة «ساعة الأزهـار» طرفًا في مواعيدنا. كنت كلّما عدت من لقاء معه، بحثت عن مزهرية لكلماته، فقد كان بارعًا في اختيار صيغ بوحه، يتحدّث بمرح وشاعريّة ومسحة حياء، كما لو كان يؤدّي بتلقائية مشهدًا من فيلم رومانسي، من تلك

الأفلام العالميّة المُغرم بها. اعتدت في انتظاره أن أقطف أزهارًا أسرقها من الحديقة، لأتركها في سيارته كلّما غادرت.

وكان يقول ممازحًا: «لا تأتيني بأزهار الساعة فهي تذكّرني بذبول الوقت».

أحيانًا، حال ركوبي السيّارة، كان يخلع عنّي ساعة يدي ويضعها في جيبه.

«توقّفي عن النظر إلى ساعتك... هل من بلادٍ لا ساعة فيها تجمعنا؟».

ولم تجمعنا بلاد، بل فرّقتنا بلدان.

غادرت لاحقًا الجزائر إلى فرنسا، بينما كان قلمه المتمرّد يأخذ منحًى سياسيًّا شجاعًا، جعل إعجابي به يتحوّل إلى إعجاب بشجاعته.

إلى أن قرأتُ يومًا أنّه رحل.

باكرًا ذبلت أزهار الرجل الذي كان يترك شذى كلماته أينما حلّ.

كان من سلالة البجع، فضاؤه الموسيقى والبحيرات، لا البِرك الآسنة التي تقيم فيها ذكور الضفادع.

***

«نجحتُ في تسلّق تلّة.. وإذا بي أمام جبل!».

بعد كسب التحدي الأوّل، لن تعود ما كنتَه، سيصعب كسرك، فقد وقعتَ على سرّ القوة. إنّه فيك، كنت تحتاج إلى أعداء لاكتشافه. بدءًا تتحدّى نفسك، بأخذ قرار يتجاوز قدرتك. ثمّ وقد اقتنعتَ بقوّتك، يمكنك مواجهة كلّ ما أخافك. في الواقع، ما لا تدريه بعد، هو أنّ كلّ تحدٍ يُفضي إلى تحدٍّ أكبر.

ما أسعدني حقًّا، أنّي في طريقي إلى النجاح لم أتخلَّ عمّا كنت أراه الأهم: عائلتي.

النجاح الناقص الذي يكون على حساب ما هو أساسي، يفسد أيّ فرحة، مهما كان الفوز عظيمًا.

كسبت التّحدي. أثناء التزامي العائلي، كنت أواصل دراستي الجامعية، وأقدّم برنامجًا إذاعيًا يوميًا، وأكتب مقالًا أسبوعيًا، وأيضًا.. أصدرت ديوانًا شعريًّا!

وجدت نفسي، لمصادفة تاريخية، كاسحةً للألغام، لا فتاة شقّت طريق الضوء قبلي، في مواجهة تلك المدينة الذكورية، المتقصّية لأخباري، المتربّصة بأخطائي. لم أختر ذلك، ولا أردته، وكان عليّ أن أمشي متوقّعة لغمًا في كلّ خطوة، لكنّني بسذاجة فراشة ما كنت أرى غير مروج الأزهار.

بدخول الجامعة دخلت مجبرةً سن الرشد.

كنت أصغر من أن أعي ما الذي كان يحدث. على جمال تلك المرحلة التي لن تتكرّر، كانت الجزائر في سبعينيات القرن الماضي، تعيش حالة تخدير دكتاتوري، نتناول فيه جرعتنا الإخبارية اليوميّة من الشعارات، دون إمكانية للنقاش. مطمئنين إلى أبوّة بومدين و«أمومة» حزب جبهة التحرير. وكانت الأجواء تضجّ بالصراعات الطلابية. فمن عادة الأبناء التمرّد في مرحلة ما على سلطة الأب وجبروت الأمّ.

تأخّرت في حبّ بومدين، إلى أن أحببتَه أنت، حين علمتَ أنّه كان يزور والده في المستشفى الذي كنتَ فيه، غالبًا مساء وبسريّة تامة أذهلت الأطباء، لكونه لم يَطلب أن تُقدّم له أيّة عناية خاصة عن باقي المرضى، حتّى وهو يُصارع الموت.

كان بومدين أيّام حكمه، يمنع أيًّا كان من أفراد عائلته، أن يُصرّح بأنّ له قرابة به. ولأنّ اسمه الحقيقي كان محمد بوخروبة، لم يتعرّف الناس إلى أحد من أقاربه، ولا استفاد هؤلاء للوصول إلى أيّ منصب، أو امتياز. لم يرهم الناس لأوّل مرّة إلّا يوم جنازته.

ندمت بعد رحيله لأنّي عن كبرياء وكراهية للتملّق، ما كتبتُ عنه في حياته ما كان سيسعده. خاصة أنّني كنت من الفتيات اللواتي دعاهنّ مرة لمناقشتهنّ في رغبته في فرض الخدمة العسكرية على البنات. هزمني عنفوانه ونزاهته، فقد أحبَّ الجزائر من دون مقابل، وغادرها وليس له فيها بيتٌ سوى في قلوب الجزائريين. وعلى الرغم من أنّ الكثيرين صنعوا ثرواتهم في أيامه، فقد كان بومدين أفقر رئيس عرفته الجزائر، وربّما كان وجمال عبد الناصر وعبد الكريم قاسم رئيس العراق في الستينيات، أكثر الحكّام ترفّعًا عن الكماليات ممّن عرفتهم الأمة العربية.

بالنسبة لجيلي من الكتّاب الشباب المشبعين بالأفكار التقدميّة، كانت معركتنا أوّلًا ضدّ أدباء مكرّسين، تحوّلوا إلى ديناصورات جاثمين على الأدب بأفكار رجعيّة، رافضين لنا حق الوجود، يُحكمون السيطرة على اتحاد الكتّاب، وعلى كليّة الآداب، وكلّ المجالات الثقافية، بعد عودتهم بشهادة دكتوراه في الأدب من المشرق.

انتشرت في تلك الحقبة الوشاية وصناعة الإشاعة وكتابة التقارير والتقارير المضادة من قبل المثقفين، وكنت فتاة غرّة، وما زلت، أصدّق الناس وأصادقهم دون تبصّر. لعلّي الوحيدة التي لم تكن تدري بما يحدث ولا تتوقّعه، فقد كان يجمعنا جوّ من المودّة التي تفوق الأخوّة.. كنّا رفاقًا، وكنت أحسب الجميع الرفيق شي غيفارا،

لكنّ بعض «الرّفاق» بدأوا باكرًا شقّ طريقهم إلى الكراسي، مستعدّين لكلّ شيء لبلوغها.

إلى أن زار بيتنا ذات ليلة «زوّار الفجر». فتحت أمّي الباب مخطوفةً من نومها، كانا رجُلا أمن بثياب مدنية يسألان عني. أطلعها أحدهما بأدب على بطاقته المهنية، ولأنّها لم تفهم ما يريد فقد خطفت البطاقة من يده وجاءتني بها مذعورة. فتحت عينيّ، لم أرَ سوى شعار الأمن على البطاقة.

لا أدري إلى أين ذهبوا بي فجرًا. كانت تجربة عجيبة، تركت أثرًا كبيرًا في وجداني، وفي ذاكرة أمّي التي استعادت ذكرى البوليس الفرنسي يوم كان يأتي للبحث عنك. عندما أعادوني إلى البيت، بعد 24 ساعة من التّحقيق، كانت أمّي منهارة. قال لها رجل الأمن مشفقًا: «ابنتك ما زالت صغيرة، عليك في غياب والدها مراقبتها.. فلتهتمّ بدراستها بدل السياسة..».

من فرحتها، شكرته كثيرًا ودعت له بالخير ووعدته أن تفعل.. وفعلت.

إن كانوا في الأمن قد اكتفوا بالتّحقيق معي، فأمّي قد نابَت عنهم في ضربي. صاحت بي «ماذا كسب أبوك من السياسة غير الجنون.. حابَّة تْهَبْليني!». كانت هي من هبلَتني، فقد تولّت بعد ذلك مهمّة تنغيص حياتي والتّحقيق معي.

لم نخبركَ بشيء من كلّ هذا.

عندما زرتك بعد ذلك، ضممتك طويلًا ونزلت دمعة من عيني لم ترها. كانت أمّي على حقّ. كنت أزداد شبهًا بك.

***

الجمهور العربي أصبح وحشًا سياسيًّا
لا يقف في وجه شهيّته شيء
فإذا لم تطعمه قصيدة سياسيّةً
أكلك!

نزار قباني

جئت إلى الشّعر ذات تحدٍّ، فالشّعراء يولدون لحظة المواجهة. كنت في التّاسعة عشرة من عمري، حين، في بداية السبعينيات، تمّ اختياري لافتتاح الموسم الشعري للشّعراء الشّباب باللغتين. وجدتني تحت الضوء، لملاقاة جمهور لا أعرفه، ولا أدري كيف أواجهه.

كانت أوّل أمسية شعرية لشاعرة تكتب باللغة العربية، وكانت قاعة الموقار الشهيرة غاصّة بالحضور، مِن متذوّقي الشعر، وناظميه، ومَن حضر عن فضول ليضع لصوتي الإذاعي وجهًا، ومن جاء بنيّة محاكمتي بتهمة أنوثتي.

أمرٌ واحد كان يطمئنني، هو وجود أبي في المستشفى. فما كنت أريد أن يستمع إلى ما أكتب، أو يحضر أمسية لا أدري كيف ستنتهي.

كنت عادية في هيئتي كي لا ألفت انتباه أمّي. قلت إنّني سأحضر حدثًا أدبيًّا، لا أنّني الحدث. لم أرتد سوى الشِّعر ثوبًا، هل هناك أكثر أناقة من قصيدة؟

لا أدري إن كنت يومها أنيقة، الأكيد أنّني كنت مذعورة، صبيّة تخفي خوفها بالتحدّي. ذلك التحدي الذي كان يلازمني. انتهى الأمر بأن اطمأن قلبي، أقنعت نفسي بأنّ لا أحد في القاعة يمكنه إسكاتي أو هزيمتي، وأنّني جاهزة تمامًا لكلّ شيء.

كلّ شيء؟!

لا، فقد كان هناك احتمال ما كان يمكن لي أن أتوقّعه!

ما كاد الأستاذ الأخضر السائحي ينتهي من تقديمي، وأشرع في قراءة نصّي الأوّل، حتى رأيت الباب المقابل لي في أقصى القاعة ينفتح على ضوء مفاجئ، ويدخل منه خيال رجل في قامة أبي محاطًا برجلين. تأكّدت أنّه هو، عندما تقدّم نحو الصفوف الأمامية وحيّاني بإشارة من يده، ثمّ جلس في مواجهتي وعلى جانبيه الرجلان.

لكأنّني كنت أحلم. أفقدتني المفاجأة صوتي، وأصابني هلع انفضحت به. كان حضوره هو آخر ما يمكن أن أتوقّعه. كيف استطاع المجيء مساءً، وهو الممنوع من مغادرة المستشفى إلّا بتصريح طبي، وما كان الطبيب ليأذن له بذلك. ثمّ، كيف علم بالأمسية وقد أخفيت عنه الخبر؟!

عادة، يُنصح من يحاضر بالتركيز على وجه يعرفه، حتى لا يتوتّر وهو يرى قاعة كاملةً في مواجهته. ما كنت أعلم بالنصيحة، ولا كانت لتفيدني، فقد كان الوجه الذي أعرفه هو بالذات مصدر توتّري، فضّلت التوجّه للقاعة.

كان الجمهور ينتظر ما سأقول. رحت أقرأ القصائد التي كانت في حوزتي، والتي اخترتها غير متوقّعة أنّ المستمع سيكون أبي.

للمرّة العشرين بعد الألف
أصلب في الظهيرة
وتخرج الأقزام في مدينتي
تحمل فوق رأسها
ضفيرة.. ضفيرة
تهتف في جنازتي
لتدفن الشاعرة الصغيرة
ولتقطع الضفيرة الأخيرة

مكتبة
t.me/soramnqraa

للمرّة العشرين بعد الألف
أموت قبل موتي
في موطن المدافن الكبيرة

كان نصف الجمهور يصفّق لي إعجابًا، والنصف الآخر يستمع متعجّبًا.. وربّما متسائلًا إن كان هذا شعرًا.

وحدي كنت أدري أنّ لكلّ قصيدة قصة. كتلك التي كتبتها عن مسؤول، قصدت مكتبه يومًا لأعرض عليه وضع أبي من دون أن أستشيره في ذلك، متوسّمة فيه خيرًا لكونه من جيله، لكنّه ما كان معنيًّا بمأساة أبي، بل بزيارتي لمكتبه. تلك الصّدمة التي حملتها معي حين غادرت، لم تفارقني وأنا أكتب «ذاكرة الجسد» فقد كان لاسم تلك المؤسسة قدسيّتها.

لو أنّني وقفت عند بابكم
ألقيت وجهيَ القديم من سمائي
ودسته لأنّه أصبح لا يليق
لأنّه من صدقه لم يُبقِ لي صديق
وأنّني مثل الألوف «الشاطرة»
أصبح لي قناع
لكنت شاعرة

لو أنّني أحترف الخطابة
ألقيت في محفلكم أطروحة النفاق
صيّرت من أكواخكم لمعبدي قبابا
وأرضكم سحابا

صيّرت من حصانكم
ذاك الجبان فارسًا في ساحة السباق

لو أنّني قررت أن أموت بالمجّان
مقابل ابتسامة رضيت أن أهان
لجئت كي أدفن بعد موتي
في مكتب رضيت أن يوأد فيه صوتي.

ختمت الأمسية بنصوصٍ عاطفية، وعلى براءتها، ما كاد يُفتح النقاش حتى وقف أحدهم يلقي خطابًا حماسيًا، مطلقًا عليّ وابلًا من رصاص الشعارات «أين جميلة بوحيرد؟ وأين أبطال الثورة في شعرك؟ كيف تكتبين عن الحبّ ونحن لم ننته بعد من دفن الشهداء؟ الجزائر ليست في حاجة إلى قصائدك».

لم أدرِ ماذا أجيبه، وكيف أدافع عن نفسي في مواجهة نبرته العالية المحرّضة للجمهور، الذي بدا جاهزًا للانقضاض عليّ، وقد زوّده بالرماح. كنّا في زمن المزايدات، ولا أظنّ هدفه كان الدفاع عن الثورة، بقدر ما كان الإجهاز على ذلك الثور الغرّ الذي كنته في حلبة كوريدا، جاء البعض لفرحة رؤيته أرضًا مضمّخًا بدمه، في سباق للفوز بأُذنه دليلًا على أنّه من نحره.

ذلك المشهد كنت أعرفه، فقد عايشته، بعدد ما انهال عليّ من رماح مذ بدأت الكتابة، وها أنا أراه أمامي تمامًا كما وصفته في قصيدة ألقيتها في تلك القاعة، التي كنت أتوجس مسبقًا قدري فيها:

كان ثورًا
دخل الملعب يومًا
وعلى الأبواب بعضٌ من دماء الأولين

كان لا شكّ صغيرًا
ليس يدري ما الجماهير
وما هذا الرّداء الأحمر القاني المثير
واستدار الغرّ للقوم لعلّ
بين هاتيك الوجوه قد يرى وجه صديق
أو عسى بين ركام الزيف قد يبدو بريق
لم يجد غير مناديل تلوّح
قبعات القوم تهتز على وقع وفاته
و«كوريدا» صرخة من كلّ ثغر تتحدى أمنياته
وأخيرًا صفق الجمهور هلّل
فعلى أرض حكايا الساحة الحمراء
قد زادت ضحيّة

لكنّي لم أسقط يومها ضحيّة، ولا سعد أحدهم برؤيتي مضمّخةً بدمي أو بدموعي.. فقد حدث أمرٌ عجيب.

«ولا تُهزَم امرأةٌ كان جيشُها أباها...».

من غرائب الأقدار، أن يكون الأمر الذي تخطّط طويلًا لتتفاداه، هو الذي يأتي لنجدتك في التّوقيت إياه.

فجأة، رأيت أبي يقف ويتوجه نحو القاعة معرّفًا بنفسه. «أنا محمد الشريف مستغانمي والد هذه الشاعرة التي أمامكم. ابنتي لم تعرف الثورة، وهي حرّة في كتابة ما يلائم سنها، إن شئتم الحديث عن الثورة أحدّثكم عنها أنا.. لن تحاكموا الشِّعر أيضًا.. ولن تقرّروا عنا ماذا نكتب، لقد حاربنا لنكون أحـرارًا. لي محاولات شعريّة، أكتب باللغة الفرنسية وحضرت لتشجيع ابنتي فأنا معجب بما تكتبه».

ذُهل الحضور، وهو يتابع مشهدًا لا عهد له به. ردّت عليه القاعة بالتصفيق. وما عاد أحد يجرؤ على طرح أيّ سؤال عليّ، وتحوّل النقاش بينه وبين الجمهور.

لا أحد كان يدري بأنّ المتحدّث قادم من قسم للأمراض العقلية في مستشفى مايو العسكري، وأنّه ترجّى الممرّضين واستمالهم ليرافقوه لحضور أوّل أمسية شعرية لابنته، بعد أن جاءه أحدهم بجريدة نشرت الخبر.

لو أنّه حضر ليصفعني أمام الجميع ويعلن تبرّأه مني، لوجد الحضور تصرّفه طبيعيًا لأنّ ذلك ما هو متوقع آنذاك. وما كان الأمر ليفاجأ أحدًا، خاصة أنّه من المفروض أن يكون رجلًا عصبيًا، وفاقدًا لقواه العقلية.

كانت المفاجأة الحقيقية، أنّه كان الأكثر منطقًا وعقلانية.

غوته على حق: «الأب وحده الذي لا يحسد ابنه على موهبته»!

إلى اليوم، ما زال الكثيرون يذكرون تلك الحادثة. كانت مداخلته مؤثّرة وخارجة عن المألوف، حتى أنّ الصحافة تناقلتها.

كتب الشاعر سليمان جوادي: «ما شدّ انتباهي وانتباه الجمهور الحاشد يومها ورسخ في أذهاننا، هو تدخل رجل بهيّ، بصوت جوهريّ شدّ إليه مسامع الحضور، تحدّث بالفرنسية، كانت لغته واضحة ومبهرة، وعباراته دقيقة جدًّا ونافذة، طلب الكلمة ليردّ هجوم البعض على ابنته مشهرًا تشجيعه لها وإعجابه بها، في وقت كانت فيه كثير من المواهب النسوية توأد تحت وطأة التقاليد، وكان فيه البعض يخجل حتى من أبوّته لأنثى».

على كلّ امرأة كاتبة أن تحفظ اسم ناديا أنجومان، عساها تتذكّر كلّما كتبت قصيدة أو خاطرة وجدانية، كم هي محظوظة المرأة التي

تولد في بيت لا مقصّ فيه، فتكبر دون خوف على جناحيها، وكم يمكن للكلمات أن تكون مكلّفة بمقياس الجهل المقدّس في بلاد أخرى. فالشّعر ليس مباهاة، ولا صفًّا لبعض التعابير كما تراه اليوم بعض الفتيات، ثمنه قد يكون حياتك مقابل حفنة من الكلمات!

هل كانت الشاعرة الأفغانية ناديا أنجومان وهي تصدر ديوانًا بسيطًا عنوانه «الزهرة القرمزية» تدري أنّها ستسقي تلك الزهرة بدمها؟

في ربيعها الخامس والعشرين انتهت حياة ناديا على يد زوجها الأستاذ الجامعي ورئيس المكتبة.

سنة 2005 انطفأت إلى الأبد شعلة أشهر شاعرة أفغانية. شجّ زوجها رأسها بضربات قاتلة ليخرج منه خيالاتها الشعرية، أو على الأصحّ ليخرج منه «شيطان الشعر»، فقد رأى أنّ الشّعر عار على سمعته.

ثمّة الرّجال الرّجال، والرّجال الأنذال. فالرجولة مروءة وُجدت لتذود لا لتؤذي.

كان يمكن لقدري الأدبي أن ينتهي في تلك الليلة، وأن أغادر القاعة وقد انطفأت شعلتي الصغيرة تلك، لولا أنّ أبي حماها بين كفيه. كنت شمعة تتحدى الريح، صبية عزلاء في مواجهة مدينة ذكورية، وما كان يمكن لأحد سواه أن ينصرني، فقد كانت المعركة في واقعها رجاليّة. لم يُسكتني أبي مجاملة لذكور المدينة، ولا مزّق أوراقي وقصّ جناحيَّ في حضرتهم، لكي يعترفوا له بالفحولة، وصون شرف الوطن والعائلة، بل خبّأني تحت جناحه، وانبرى بسلطة الأبوة يرد على كلّ من يهاجمني.

أدركت يومها، أنّه لا يمكن لامرأة أن تواجه المجتمع وحدها، أو تخوض معركة من دون أن يكون من رجل سند لها.

حين انتهت الأمسية، اتّجه أبي نحوي، قبّلني وقال بالفرنسية بلهجة آمرة «عودي إلى البيت!» ثم أوصى فاضل، زميل كانت لنا علاقة بعائلته، أن يرافقني كما كان يفعل كلّما احتجته.

الدمعة التي حبسها أبي ما زلت أراها تلمع في عينيه. ما كان سهلًا عليه أن يراني أعود ليلًا من دونه. والأصعب أن يمضي مرفوقًا بممرّضيْن، عائدًا إلى المستشفى بخطوة واثقة تخفي انكسارًا داخليًا.

أمام تلك القاعة افترقت طرقاتنا. أدركت أنّه جاء ليجتاز بي أصعب منعطف في حياتي، وأنّ هناك طريقًا عليّ أن أمشيه بعد الآن وحدي.

لم أطارد الضّوء يومًا، هو الذي اشتهاني.

دخلت تلك القاعة أحلام... وغادرتها أحلام مستغانمي.

***

«تصنع القوافي من النصّ شعرًا، أمّا الشاعر فتصنعه المواقف!».

لعلّ الطبيب قد لاحظ سعادة أبي، وتحسّن نفسيّته بفضل تلك الأمسية التي استعاد فيها فصاحته، وهيبته، بعد أن أهانه المرض. لذا، أذن له بحضور بعض الأمسيات الشعرية لشعراء اللغة الفرنسية، فقد رأى أنّ الشعر قد يأتي لنجدته، وربما كان شفاؤه في تحويل هواجسه السياسية إلى مجال آخر.

كان عند كلّ زيارة، يناقشني في أمسية أحد زملائي الشباب الذين لم يكن راضيًا عن أشعارهم، لانحيازه للشعر الكلاسيكي،

فمرجعه الأوّل كان فيكتور هوغو، شاعر الحكمة والحب والقضايا الكبيرة. وكان في ذلك ظلمٌ لهم.

قال لي بحماس، كما لو كان يلقي درسًا على تلاميذه:

– لا أحد يقرأ فيكتور هوغو اليوم، يعتقدون أنّ في ذلك إهانة لشعرهم الحديث، المتمرّد على كلّ شيء. فيكتور هوغو هو أوّل حالة تمرّد في الأدب الأوروبي. رفض كلّ مراسيم العفو التي أصدرها الإمبراطور في حقه، وفضّل النّفي الذي دام تسع عشرة سنة، ولم يعد إلى فرنسا إلى أن سقط نابليون الثالث. كان قد بلغ الثّمانين حين احتفلت فرنسا بأسرها بشاعرها العظيم كملك متوّج، ومرّ أمام بيته في باريس نحو ستمائة ألف شخص، كان أثناء ذلك يحيّيهم من شرفته. كيف يغفر له نابليون أن يكون أكثر شعبيةً منه؟ أتدرين بأنّ يوم وفاته عرض جثمانه ليلة كاملة تحت قوس النصر، ليتمكّن الشعب من توديعه؟ وفي اليوم التالي رافق جثمانه ما يقارب ثلاثة ملايين شخص، كانوا هم الشعب الذي دافع عنه، فقد طلب وهو من النبلاء أن يُحمَل نعشه على عربة الفقراء، وأوصى بقسم كبير من ثروته لهم، رافضًا أيّة مراسيم رسمية لجنازته. لذا سارت باريس كلّها وراء نعشه، الذي حملته عربة طافت به المدينة حتى وصولها إلى مقبرة العظماء، «البانتيون»!

قلت مندهشة:

– كم هذا مؤثّر.. لا أعرف شاعرًا فاز بمجدٍ كهذا!

قاطعني:

– لكنّ لفكتور هوغو خطيئة لا تغتفر. ضميره الحيّ لم تهزّه معاناة الشعب الجزائري على أيّامه، كان يؤمن بالدور الاستعماري الذي قادته فرنسا، مبررًا ذلك بكونها رسالة لنشر الحضارة. لا يمكنني أن أتصور أنّ شاعرًا على ذلك القدر من الحساسية تجاه الظلم

والمعاناة الإنسانية، يصبح لامباليًا أمام إبادة شعب، لعلّها الشيخوخة، أو وجوده آنذاك في المنفى بعيدًا عن الأحداث حال دون اطّلاعه عمّا كان يحدث.

قلتُ:

– فعلًا إنّه لموقف غريب يخالف القيم الإنسانية التي ذكرتها عنه، لعلّ الحقيقة في ذلك الزمان لم تكن تصل إلى الناس كما اليوم، الجرائد والصور تساهم في تشكيل المواقف.

– حتمًا.. الحقبة الاستعمارية أملت على كتّاب فرنسا وقتها مواقفهم غير الأخلاقية، كما أملت حركات التحرّر في العالم على مثقفي فرنسا في الستّينيات تبنّي القضية الجزائرية. ما كان لـ121 مثقّفًا فرنسيًّا أن يوقّعوا عريضةً لنصرة الجزائر قبل قرن، لولا الإعلام والأقلام الحرّة.

ما كنت أعرف شيئًا من كلّ هذا عن فيكتور هوغو، ولا أحفظ سوى بعض أقواله وأشعاره التي كنتَ تردّدها.

وأنتَ.. لو كان لك أن تعرف أيّ أقدار خبّأ الوطن لبعض زملائي الذين شاركوا في ذلك المهرجان الشعري، لكنت أكثر تساهلًا في الحكم على أشعارهم، وربّما كنت ضممتهم إلى صدرك وبكيت. لكنت نصحتهم حتّى بأن يهجروا الكتابة أو يهاجروا. مفدي زكريا نفسه، شاعر الملاحم الثورية، الوحيد الذي كنت تحفظ أشعاره بالعربية، ضيّقتْ عليه الجزائر حرّيته وطوّقته بعيونها وحرمته حقّه فيها، فاختار الهجرة ومات في تونس على قهرٍ من وطنٍ أنشده في السجون وبكاه في المنافي، ومثله غادر كتّاب كثيرون من جيله جزائر حلموا بها.

سنة 1993، في بداية ما سمّي بسنوات «الإرهاب»، رحل الطاهر جعوط، الشاعر الأكثر جرأة في زمن العشريّة السوداء، صاحب المقولة الشهيرة: «الصمت موت. ستموت إن تكلّمت، وستموت إن صمتَّ، فتكلّم ومُت». مات مغتالًا بالرّصاص عند باب بيته.

ومات الشّاعر يوسف سبتي صاحب «الجحيم والجنون» في السنة نفسها مذبوحًا. وبأكثر من طريقة مات سبعون من خيرة مثقفينا وصحافيّينا ومسرحيّينا. لا بسبب ما كتبوا بل لأنّهم كتبوا، فالتهمة لدى القتلة كانت الكتابة بحدّ ذاتها.

كانوا جميعهم من أنصار البسطاء، والقضايا العادلة، لكن لا أحد ممّن ماتوا من أجلهم يذكرهم اليوم، فهل كان موتهم عبثيًّا؟. هناك أيضًا من هاجر من جيلنا، كأزراج عمر، بسبب قصيدته الشهيرة: «أيّها الحزب الأوحد تعدّد أو تجدّد... أو تبدّد» التي فتحت عليه أبواب جهنم.

من تلك القاعة التي انطلقنا منها جميعنا شعراء، تبعثرنا.

كما عنوان ذلك الفيلم الشهير «حلقة الشعراء الذين اختفوا» انفرطت حلقتنا، واختلفت أقدارنا، ثمّة من أجهز الوطن عليه، ومن أجهز الوطن على أحلامه بإبقائه أسيرًا فيه، قلّة فقط من تمكّنوا من تهريب أحلامهم خارج الوطن قبل أن يفتكوا بها.

بلغنا سن التشرّد قبل سنّ الرّشد.

***

«استعدت رشدي حين أضعت عقلي».

مالك حداد

لعلّ الجنون كان أكثر الحلول حكمة. لم يفقد أبي هيبته يومًا، كان حتى في جنونه حكيمًا منضبطًا، يناديه الجميع «عمّي

الشّريف»، ويحتكم إليه المجانين. يطلب منه المرضى أن يكتب رسائلهم، والطبيب أن يترجم له ما يقال، ويستعين به الممرّضون لحلّ الخلافات، والمشاكل الطارئة.

كما حين استنجدوا به لأنّ أحد المرضى فرّ وصعد إلى أعلى نخلة في السّاحة رافضًا النزول، لأنهّم أرادوا حقنه بمهدئ. إلى أن أعطاه أبي الأمـان فنزل تحت حمايته. كان يومها وقت الزيارات، انتظرت عودة أبي طويلًا، فقد رافق الرجل وهم يسوقونه إلى غرفة انفرادية ليطمئنه. بعد ذلك قاموا بقطع النخلة.

كان لأبي القدرة على التأثير على المجانين، كما على المثقفين أو الأمّيين، لأنّه كان يوحي بالثقة، فينصتون إليه مأخوذين بصدقه.

حين ضاقت به الحرية طلب اللّجوء إلى الجنون، ليمنحه حصانة اللامسؤولية عمّا يقول، أظنّه أوجد حيلة لا تجبره على الكذب، تمكّنه من أن يقول لكلّ شخص رأيه فيه.

كم تمنّيت لو أعارني أبي ذكاء جنونه. لو فزت بفسحة من اللّاعقل، أقول فيها للبعض كم أنّني أعرفهم إلى حدٍّ لا يتوقّعونه، وأنّهم أخطأوا حين راهنوا على طيبتي. فالطيّبون لا ينقصهم الذّكاء، هم غالبًا ضحية الحيّاء. دومًا دريت بتلك الكائنات التي ستخرج من جحورها عندما لن أكون هنا. لكنّي واصلت التغابي، فأنا أستحي حتّى من الأفاعي!

الجنون تمرّد على دكتاتورية العقل، لذا تلزمه شجاعة. لا زيف لا كذب في الجنون لا مجاملات. يأتي عارٍ إلّا من حقيقته. فمن ذا الذي يقدر على مواجهة الحقيقة؟

الكلّ يدير كذبته. يمدح من لا يستحق، ويشتم الشخص الخطأ. لا أحد يهاجم خصمه الحقيقي، سيهاجم سواه، لأنّه في متناول جُبنه.

عليك أن تفقد عقلك لتستعيد شجاعة سرقها منك الخوف والحياء. فالصراحة مكلفة.

لم يكن صعبًا تشخيص مرض أبي، كان يعاني من الهزات الارتدادية للثورة التي لم يشعر بها الجميع. تصدّعت بسببها قواه العقلية لوجوده قرب البؤرة الكبيرة للزلزال. خضّة بعد أخرى اهتزّت قناعاته وهو يرى تزعزُعَ ما كان قائمًا. لذا كان يكنّ الإجلال لكلّ وطنيّ ظلّ ثابتًا على مبادئه. وكان أطرف ما سمعته، وما أصابني بالذهول، يوم أخبرني بأنّ صديقه سي مصطفى الذي سبق أن حدّثني عنه مادحًا شجاعته، أخبره بنيّته أن يخطبني.

قال ليطمئنني «ما دام عيد ميلادك قريبًا دعوته للحضور إلى البيت. فهو يريد أن يتعرّف عليك».

لا أظنّ أبي كان جادًّا. الأرجح أنّه خلق لدى الرجل فضولًا لفرط ما حدّثه عني، ولأنّه ما استطاع أن يجمعني به في المستشفى (طبعًا!)، أراد أن يسعده بدعوته إلى البيت. فقد كان في الأوقات التي يقضيها معنا يحبّ دعوة معارفه.

علّقت أمّي على الخبر يومها قائلةً: «مهبول يخطبك من مهبول»!

كان لها موهبة خارقة في التهكم.

جاء الرجل بعد أن أخذ تسريحًا من المستشفى، فقد كان مسموحًا لبعض المرضى، ومنهم أبي، قضاء نهاية الأسبوع في البيت بعد أن تحسّنت حالتهم. كان رجلًا أربعينيًّا، ذا هيئة محترمة، سخيًّا وعصبيًّا. أحضر عدة باقات ورد، وأخبرنا أنّه هدّد محل حلويات وأجبره أن يفتح ليحضر قالب حلوى.

أدرك أبي أنّ صديقه الفحل لا يصلح صهرًا. لكنّه لم يواجهه بالحقيقة ولا قال ما يمكن أن يجرحه، فقد كان يحترمه إجلالًا لماضيه.

غير أنّه لم يدعُه مجدّدًا إلى البيت. أدركت يومها أنّ أبي يختار مع من يدّعي الجنون.

تتمّة القصة على طرافتها لا تـروى، ومـا زلـت أضحك كلّما تذكّرتها، فلم يكن من السّهل تغيير مشروع رجلٍ بمزاجٍ عسكريّ، يعاني من انهيار عصبي، هو ثاني من وقع في حبي، بعد الببّغاء المرحوم!

***

«ليس للنسيان عطر . العطر لا يمكن أن يكون إلّا عطر الذكريات».

في الزيارة التالية، جئتكَ بقارورة عطر ما بعد الحلاقة الذي تستعمله، فقد لاحظت بأنّ الشّفرة تركتْ في السابق بعض الجراح على وجهك.

أن أجازف بتهريب عطر كان كأن أهرّب لك الحياة في قارورة. كأن آتيك بما كنته يومًا، بأناقتك وتأنّقك، بلحظات معطّرة في حياتك، قبل أن تغدو البيجاما بدلتك. هل كان من الصواب أن أهرّب إليك رائحة الذكريات، أنت المريض بالذاكرة؟

ما كنت أدري، كم خلف براءته الكاذبة، يمكن لعطر أن يقترف من جرائم في حقّنا، كم بإمكانه جَرحنا، حتى عندما يدّعي أنه يسرّع في التآم الجراح الصغيرة التي تخلّفها شفرة الحلاقة.

قلتَ مندهشًا وغير مصدّق وأنـت تـرانـي أخـرج الـقـارورة من حقيبتي:

– MA CHERIE!.

كأنّك تقول «كيف عرفت أنّني كنت أحتاجه».

في الواقع كنتَ تحتاجه لتحافظ على عادتك في التعطّر، أمّا الجراح الصغيرة فما عاد لها من أثر، لأنّك قررت ألّا تحلق لحيتك مجددًا. ربّما لتريح بشرتك، وربّما لأنّ خبر إعدام شي غيفارا قد نزل

عليك كما على كلّ الجزائريين كصاعقة أنستك مواجعك. فقد سبق لغيفارا أن زار الجزائر مرتين دعمًا للدولة الفتيّة، وكانت إحدى قضاياه الوضع البائس للمزارعين في أمريكا اللاتينية، الذي أصابه بصدمة حوّلته من طبيب إلى مناضل عالمي ضد الهيمنة والاستغلال.

كان وضع المزارعين بالذات يعنيك، فقد كنت مكلّفًا بمشروع التسيير الذاتي وتأميم الأراضي الفلاحية. مهمّتك صياغة الكلام المؤثر وتبسيط الأفكار الصعبة، لإقناع الفلاحين بما لم تكن مقتنعًا به تجربةً تصلح للجزائر، بحكم تركيبتها الاجتماعية. كنت أمام شعارات لا منطقية، وكان هذا أحد أسباب مرضك. فقد بدأت العلاقة تزداد تصادمًا بينك وبين الآخرين. ليس من السهل أن يجادل من يدافع عن قناعاته من يدافع عن منصبه.

في تلك القرى النائية التي كنت تزورها، كان يمكن لفلاح أن يهديك خروفًا، ولآخر أن يهدّدك بالقتل. فلا أحد كان يعي ماذا تريد الدولة بالذات من فلاحين بؤساء، من خلال هذه «الثورة الزراعية».

يومها انقضى موعدنا في الحديث عن غيفارا، الذي انتهى به الأمر أن أعلن رفضه للهيمنة الروسية كما للامبريالية الأمريكية، بل وكتب لكاسترو يعلن تخلّيه عن جنسيته الكوبية الشرفية، ليستعيد حرية خياراته.

أذكر من حديثك الطويل عنه قولك: «كان صريحًا في إشهار رأيه أيًّا كان المخطئ، لذا كان من المتوقّع أن يتمّ إسكاته، فمن يختار المواجهة يُغتال... أمّا من يصمت فيُجنّ!».

وضعتَ شيئًا من الصّمت بين الجملتين.

لم أشأ تركك محبطًا. قلتُ:

– بابا ضع عطرك.. أحبّ أن أشمّه عليك قبل أن أغادر.

ابتسمتَ ابتسامة غائبة، وكعادتك رششته على وجنتيك مطبطبًا بيدك.

ضممتني طويلًا... نزلت دموعٌ منك على خدّي. أكنت تبكي اغتيال الثائر الأشهر في القرن العشرين... أم تبكي كمين عطرٍ نصبته لك الذكريات؟

غادرتك وقد شفيتُ من حبِّ «عبد الحليم» الذي انقطعت أخباره، ووقعتُ في حبّ شي غيفارا!

الفصل الثالث

«احذر وشاية الحقائب. إنّها الأكثر دراية بنواياك!».

لا أدري كيف دخلنا حقبة الحقائب!

أو لعلّ الحقائب هي التي دخلت حياة البشرية، وأصبحت تشاركنا بيوتنا، حين أصبح السفر يتحكّم في أقدار الجميع.

حقائب آخر العمر، وحقائب بداياته، تلك المحمّلة بالأحلام والأخرى المثقلة بالأوهام، الحقائب المبتهجة التي تسافر لأوّل مرّة، وتلك المذعورة التي تستعجل المغادرة. حقائب جُمعت على عجل، حتّى أنّها نسيت ما كان الأهمّ، وأخرى متردّدة ستبقى مفتوحة، تتوقع حتى آخر لحظة معجزة تبقيها حيث هي، تمنعها من السفر.

عند نهاية كلّ حرب، تتقاطع طرقات الحقائب، المغادرة والعائدة، تلك التي جمعت أشياءها يدُ القدر، وأخرى حجز الأملُ تذاكرها، وغادرت بحثًا في بلاد أخرى عن حياة أفضل.

هناك أيضًا حقائب دخلت التاريخ. ووثّقتْ قصصها الأقلام والأفلام.

ليس كلّ «حاملي الحقائب» مسافرين. كانت هناك حقائب لا تشبه غيرها، حقائب الخوف والمجازفة، مهرّبة عبر القطارات والمرافئ والسيارات. أصحابها فرنسيّون وأوروبيّون، على اختلاف ديانتهم، وحّدهم الإيمان بمحاربة الظلم، غامروا بحياتهم لإيصالها، ليسوا رجال عصابة، بل مثقفون وفلاسفة ومصوّرون وأناس عاديون اشتهروا باسم «حاملي الحقائب» Les porteurs de valises.

اختاروا الدفاع عن مبادئهم الإنسانية مدفوعين بمشاعر العدل، مستغلين هويتهم التي تجعلهم فوق الشبهات، للقيام بنقل الأموال التي كان يتمّ جمعها داخل الهجرة الجزائرية إلى جبهة التحرير.

ولدت المبادرة لدى الفيلسوف فرانسيس جونسون بشكل عفوي، عندما استعان به أحدهم، ثمّ تحوّلت لديه إلى رغبة ملحّة لدعم كفاح الشعب الجزائري ضد ظلم بلاده. انضمّت إليه بعدها زوجته كوليت، ثم زملاؤه في التدريس، مونيك كوهين وإيتيان بولو، ثمّ مثقفون من كلّ اتجاهات اليسار، وتحوّلت المبادرة سنة 1955 تدريجيًّا إلى مؤسسة، وشبكة دعم سرية تقوم بنقل الأسلحة والأشخاص المطلوبين وتأمين إيوائهم، حيث قارب عدد المنتسبين إليها 3000 عنصرًا من نساء ورجال، تولّوا مهمات محفوفة بالمخاطر، وصلت حدّ تزوير المئات من جوازات السفر وبطاقات الهوية.

سنة 1960 ألقي القبض على كلّ عناصر «شبكة جونسون» وحكم على أعضائها بالسجن لعشر سنوات بتهمة الخيانة العظمى. لكن، كانوا محظوظين، فقد تمّ إطلاق سراحهم بعد سنتين عند استقلال الجزائر بفضل اتفاقيات إيفيان، وأحيلت حقائبهم المنهكة إلى مخزن التاريخ.

غداة الاستقلال، كتب كاتب ياسين، الذي كان مهتمًّا بشؤون العمّال، مسرحيته الأكثر إثارة للجدل «محمّد خذ حقيبتك» وهي

مسرحية تتحدث عن وضع المهاجرين الجزائريين في فرنسا، داعيةً إياهم للمغادرة. استخدم ياسين اسم «محمّد» لكونه الأكثر شيوعًا في الجزائر، لكنّ أحد شيوخ الدين فسّر العنوان بأنّه تحريض ضدّ الإسلام فشنّ على الكاتب حملة كفّرته، وذهبت حدّ تحريم دفنه في مقبرة إسلاميّة.

أثناء ذلك، كانت المطربة البرتغالية ليندا دوسوزا قد بلغت النجومية في فرنسا بفضل أغنيتها «حقيبة الكرتون» وكانت قصّتها تشغل الإعلام، فقد غادرت البرتغال إلى فرنسا لتعمل في تنظيف البيوت، لكنّ أحدهم سمع صوتها ووجّهها إلى الغناء، وهكذا، كما تقول، استبدلت بمكنستها الميكروفون، وانفتحت لها عوالم الأضواء والشهرة والثراء، هي القادمة ولا شيء في حوزتها سوى أحلام صبية، خبّأتها في «حقيبة كرتونية».

كان زمنًا كلٌّ يغني فيه على حقيبته.. أو يبكيها.

***

«ليس التّرحال ما ينهك الحقائب.. بل ذاكرتها!».

لسنوات، ما كان في حوزتنا سوى حقيبة جلديّة كبيرة لأبي، جاب بها الدول الاشتراكية في مهمّاته الرسمية. كانت مهيبة كحقيبة فريدة، في زمنٍ كان فيه السّفر من قارة إلى أخرى حدثًا. بعد الاستقلال أضيفت لها حقيبة خالي التي رافقته إلى الصين وروسيا لأسفاره التربصيّة، ثمّ حقيبة أنيقة لخالتي بديعة، عادت بها من أمريكا، تاركةً هناك حقيبة سافرت بها من تونس، من تلك الحقائب المصنوعة من الكرتون الصلب المتوفرة وقتها.

كنّا نحتفظ بالحقائب جميعها في غرفة فوق شقتنا في السطح، بينما تحتنا في الطابق الرابع ثمّة حقيبة ما كنّا نـدري بها، كانت مدام كوزيت تتركها في متناولها، متردّدة كل يوم بين أن تزيحها عن نظرها، أو تملأها بكلّ ما هو عزيز عليها، وتأخذ القرار الأصعب في حياتها بمغادرة الجزائر نهائيًا.

قرارها كان مزاجيًا، ومتقلّبًا، تتحكم فيه الأخبار التي تصلها، عن فرنسيّين من معارفها، أو من جيران قرّروا فجأة المغادرة.

في كلّ بيت يقيم فيه أوروبي من الأقدام السوداء، كان هناك حقيبة تنتظر، لتجمع ما تستطيعه من جردة عمر، ذلك أنّه لم يكن مسموحًا بأكثر من حقيبة لكلّ فرد نظرًا لزحمة العائدين. ما كان زمنًا للحقائب الفخمة، بل للحقائب الضخمة التي عليها أن تسع ما يسع القلب من دموع.

في النهاية، القادمون كما المغادرون لهم الحقائب نفسها، لا تختلف إلّا في نوعية حمولتها. حتّى أغلى الحقائب ليست سوى مجرّد إناء، يمكنك ملؤها بالسعادة أو بالشقاء.

كانـت حقيبة أبـي تحمل لنا البهجة: منافض ومزهـريات كريستال من تشيكوسلوفاكيا، دمى جميلة لي ولصوفيا بضفائر شقراء وبـزي يوغسلافي بهيج من الدانتيل.. غطاء رأس لأمّـي بفرو أشقر تشتهر به روسيا.. قطار لإخوتي.

أمّـا حقيبة مـدام كـوزيـت، فلم تكن تحمل مشتريات، بل ذكريات.. أشياء لا يوجد منها سوى نسخة واحـدة. ألبومات صور للعائلة، بدلة زوجها ونياشينه، وأشياء احتفظت بها، بعد أن توفّي ودفن في الجزائر في مدينة البليدة، حيث تنام أيضًا ابنتها، ووالدها وجدّها، هناك في قبو العائلة، حيث كانت تتمنى أن تستقرّ هي أيضًا. فحتّى لو عرضت عليها مقبرة المسيحيّين في سانتوجين (بولوغين

حاليًا) في العاصمة، ما كانت لتقبل بها، لقد بقيت من أجل موتاها، بعد أن ماتت أوهامها.

كلّما اقترب موعد سفرها ازدادت زيارتها لتلك المقبرة، لإحساسها بأنّها قد لا تراها مجدّدًا.

في الماضي، سمعت بمن وصل بهم الرعب حدّ النوم في المرفأ انتظارًا لباخرة تأخذهم إلى الأرض الأمّ. وهي تعرف الجزائر أكثر من فرنسا، فهنا ولدت، وما عادت تدري اليوم من منهما أمّها. لذا قاومت طويلًا نداء البواخر التي كانت تراها من شرفتها، قبل أن تنهار عزيمتها، وتحزم حقيبتها.

ما كان يخيفها أكثر، هو أن تموت في الجزائر، ويبقى «جان» ضائعًا من بعدها. لن يستطيع حتى الإشراف على دفنها، سينتحب كالأطفال وقد يؤذي نفسه. من سيتولى أمره هنا من بعدها؟ في فرنسا على الأقل تتكفّل به الدولة.

موت مدام سيمون هزّها عميقًا، وصدمها بتفاصيله الموجعة، فلا أحد تنبّه لعدم ظهورها منذ أيام في الشرفة، ولا ارتاب لمنظر تلك القفّة التي ظلّت تمرجحها الريح. مثلنا، هي اعتقدت أنّ سوء الطقس منعها من الخروج، إلى أن جاء صاحب الدكان يدقّ بابها ليأخذ مستحقاته كالعادة، لكنّها لم تفتح. خلع البوليس قفل الباب ودخل، فوجد العجوز أرضًا منذ أيّام.

كانت مدام سيمون قد حسمت أمرها. قرّرت أن تكمل حياتها هنا، كانت سعيدة بيننا، بما تراه من مودّتنا وسؤالنا عن أخبارها، وشبه اهتمام وعطف من «مولود»، برغم كونه لا يعرفها. رسمت لنفسها سعادة وهمية مراهِنةً على الغرباء.

أيقظت الصدمة مدام كوزيت من أوهامها. كلّ ما تراه بدأ ينهار أمامها. اقتنعت أنّ كلّ شيء حولها أصبح من الماضي. يمكن تصريفه في كلّ الأزمنة (الماضي المركّب le passé composé)، (الماضي البسيط Le passé simple)، وهي ذاهبة إلى حيث لن ينقصها شيء سوى الماضي.

لعلّها كانت سعيدة أنّك ما كنتَ هنا لحظة مغادرتها. ما كانت تريد أن تذرف دمعة أمامك، تمامًا كما كنتَ تأبى أن تذرف دمعة أمام طبيبك، كلٌّ منكما احتفظ لنفسه بدمعه.. دفاعًا عن كبرياء أوهامه!

***

«لا تُخدَع ببراءة الحضور الألفويّ الصامت للأشياء،
لا تُصدِّق حزنها الشامت، على يتمها ستعيش بعد أصحابها.
وقد تذهب إلى أعدائهم، كما يذهب حذاء جنديّ ميت
إلى عدوّه البائس، في ساحة قتال يكسوها الثلج».

ذات يوم زارتنا مدام كوزيت لتخبرنا بأنّها مغادرة إلى فرنسا. لأوّل مرّة رأيت الغطرسة تبكي، دعت أمّي لتنزل إلى بيتها وتختار ما تشاء أن تشتري من أثاثها وأشيائها الصغيرة.

إلى آخر لحظة ظلّت تختبرنا، إن كنّا أهلًا لما ستتركه لنا. لعلّ مكتبتكَ هي أكثر ما شفع لنا عندها. فما دمنا نقرأ تلك الكتب الفرنسية لسنا أعداء تمامًا.

تأثرت أمّي بالنبأ، لكنّها لم تُبدِ حماسًا لعرضها، ولم تستجب لها إلّا عن فضول. فمدام كوزيت التي اعتادت أن تقضي كثيرًا من الوقت عندنا، أحيانًا رفقة ابنها، لم يحدث أن دعتنا لزيارتها يومًا.

رافقتُ أمي. كانت رائحةٌ ما قد بدأت تنتشر في البيت، لم أشمّ مثلها من قبل. إنّها رائحة الغياب. يفرزها الأثاث، تخرج

من الجدران ومن كلّ مكان. حتى مدام كوزيت التي كانت دائمة التعطّر، أصبحت لها رائحة بيتها. كان حزنها كبيرًا، ونظراتها الغائبة تعانق جدرانًا عليها آثار صور رفعتها لتأخذها معها وتركت مكانها مسودًّا على الجدران، صورٌ قليلة لذكرياتٍ كثيرة. تودّع أشياء حولها لا تريدها، ولا تريد التخلي عنها، فلكلّ شيء ذكرى وحدها تعرفها، لكن لمن غير الغبار تتركها؟

كان ذلك السارق الماكر قد باشر تمرير قفّازه الترابيّ على أشيائها.

في غيابها سيصبح هو سيّد البيت، وسيسلّمه لغرباء ربّما كانوا أعداءها.

أوصته خيرا بأشيائها علّها تعود يومًا.

لكنّها لم تعد أبدًا بعد ذلك.

بعد عدّة عقود، وكنت قد كبرت ونسيت مدام كوزيت، استعدت تلك الذكرى، وأنا أشاهد برنامجًا على قناة فرنسية، رافق عودة مجموعة من «الأقدام السوداء» في أوّل زيارة لهم إلى الأحياء التي سكنوها في وهران، بعد نصف قرن من مغادرتها.

احتفى بهم الجزائريّون، واستقبلوهم بمحبّة وكرم في بيوت كانت لهم. أحدهم، الذي بدا الأكثر سعادة بينهم، كان مُسنًّا طيّبًا، أقام في ذلك الحيّ المخصّص سابقًا للعائلات الفرنسية البسيطة، بينما كان للإداريين والإقطاعيين والعسكريين أحياء أخرى.

ألقى نظرة على استحياء على بيتٍ كان بيته، نظر من النافذة، جلس في الصالون يحتسي قهوة مع أصحاب البيت الجدد، استعاد ما كان يعرف من كلمات عربية، احتضن الجميع، والتقط معهم صورًا تذكارية بهاتفه. تبادلوا معه أرقام هواتفهم متمنّين زيارته في

فرنسا، لكنّ ذلك لم يحصل. فقد عاد الرجل إلى الفندق، ومات ليلتها بسكتة قلبية.

***

«من الخطير أن تكون على صواب عندما تكون الحكومة على خطأ».

فولتير

ما كان المستوطنون الفرنسيون جميعهم عسكرين ولا إقطاعيين، كانوا من كلّ الطبقات، ومن عدة جنسيات فقد كانت الجزائر أكبر من أن تقدر فرنسا على ملئها بمفردها، فطلبت من المالطيين والإسبان وكلّ من شاء من الأوروبين أن يستوطنها.

ألبير كامو مثلًا كان من أب فرنسيّ وأم إسبانية، امرأة أميّة ومصابة بالصّمم، بقيت لسنوات، بعد وفاة والده في الحرب العالمية الأولى، تعمل في تنظيف البيوت لأصحاب الدخل المحدود كي تتمكّن من إعالته. فقبل أن تتوّجهُ جائزة نوبل للآداب، توّجه الفقر.

كما كان بين الجزائريين خونة و«حَرْكى»، كان بين الفرنسيين شرفاء كثيرون يصعب حصرهم، تمرّدوا على الوحشية والظلم. مسيحيّون ويهود على اختلاف دياناتهم وهبوا أرواحهم للجزائر، عن وعيٍ بمصيرهم، واثقين بأنّ في خياراتهم حتفهم، كانوا من اليسار الفرنسي الذي يدين بالإنسانية أوّلًا، تعرّضوا للسجن والتعذيب وحتى الإعدام، وشوّه الإعلام الفرنسي سمعتهم بتهمة الخيانة والعمالة لصالح العدوّ. حين اكتشفتُ قصصهم أحزنني أنّهم ظلموا مرتين، إن كان جيلي يجهل تضحياتهم، هل ستذكرهم أجيال تأتي بعدنا؟ وإن كان هناك محاولات دائمة لتشويه الرموز الوطنية الجزائرية التي يستند إليها تاريخنا، من سينصف هؤلاء الغرباء الذين آمنوا يومًا بنا؟

من هؤلاء موريس أودان، الذي تحمل ساحة شهيرة في العاصمة اسمه وصدرت مؤلفات عديدة حوله، إلى ما بعد الاستقلال ظلّ لغز اختفاء ذلك الأستاذ في الرياضيات مجهولًا. إلى أن اعترف أخيرًا الرئيس ماكرون في بيان رسمي لأوّل مرة، بأنّ موريس أودان قد تعرّض للتعذيب حتى الموت من جانب عسكريين كانوا قد خطفوه من بيته.

تقول شهادة أحد رفاقه أنّه كان عاريًا سوى من ملابسه الداخلية، موثّقًا على لوح خشبي في وضع أفقي. وكانت هناك كماشتان موصلتان بأسلاك إلكترونية إلى مولّد كهربائي، إحداهما ثُبّتت على أذنه اليمنى والأخرى على أصابع رجله اليسرى. كان جلّادوه يحاولون إخماد صيحاته بكمامة فمات خنقًا.

هناك أيضًا هنري مايو الذي كان يخدم في الجيش الفرنسي، حين قام بما يُعدّ عسكريًا «خيانة عظمى»، بتحويله شاحنة أسلحة بذخيرة من عشرات المسدسات والرشاشات وصناديق مملوءة بالقنابل اليدوية إلى الثورة، وهو مؤسّس ما عرف بـ«مقاتلون من أجل التحرير».

كتب مايو في رسالة نشرتها جرائد باريسية آنذاك «لست مسلمًا ولكنّني جزائري من أصول أوروبية، أعتبر الجزائر وطني، وعليّ أن أقوم نحوه بكافة واجباتي كباقي أبناء الجزائر، من خلال تزويد المحاربين الجزائريين بالأسلحة التي يحتاجونها في كفاحهم التحرّري».

وحدث ما توقّعه، قُتل هنري مايو على يد الجيش الفرنسي سنة 1956، وعرضت جثته للعبرة في ساحة عامة أمام الجماهير.

اعتقد الكثيرون بأنّ اسمه مُنح لمستشفى مايو العسكري، في الواقع ظلّ المستشفى حتى بعد الاستقلال بسنوات، يحمل اسم طبيب فرنسي يحمل الاسم العائلي نفسه، أمّا المناضل هنري مايو

فقد نسيته الثورة التي مات من أجلها، برغم وجود جيلين من عائلته يقاسمون الجزائريين أقدارهم منذ الاستقلال، بعد أن تخلّوا عن جنسيتهم الفرنسية.

إيميل شقرون أيضًا تمّ نسيانه. المناضل اليهودي الأصل الذي كان ينتمي إلى المجموعة نفسها «مقاتلون من أجل التحرير» والذي رفض كلّ الامتيازات التي منحها له وضعه الاجتماعي والثقافي، وحمل السلاح وتعرّض إلى السجن والتعذيب، ولم يطلق سراحه إلّا غداة الاستقلال.

حكى الرجل الذي غادرنا سنة 2018 حادثة وقعت له سنة 1947 في حافلة في وهران، فقد وقفت امرأة أوروبية تصرخ مخاطبة الركاب «هل رأيتم، أصبحنا نراهم الآن حتى في حافلاتنا» وعندما سألها عن المقصودين من حديثها قالت «العرب» فردّ عليها بإجابة فاجأتها «سيدتي أنا عربيّ، أنا عربيّ».

ومثله الصحافي هنري علّاق ذو الأصول البولاندية، الذي بحكم وجوده في السجن لسنوات، وثّق وسائل التعذيب الوحشية للأسرى الجزائريين واستطاع حين صدور كتابه الشهير «السؤال» في سويسرا إحراج السلطات الاستعمارية، التي كانت تنفي ممارسة التعذيب، في المحافل الدولية.

هناك أيضًا فيرناند إيفتون، الأوروبّي الوحيد الذي تمّ إعدامه بالمقصلة من قبل القوات الاستعمارية، بحكم من فرانسوا ميتران وزير العدل الفرنسي آنذاك، والذي سيصبح رئيسًا للجمهورية الفرنسية بعدها بثلاثين عامًا.

كان إيفتون، وهو من أب فرنسي وأمّ إسبانية، يعيش في حيّ شعبي، انتقل من مجرّد التعاطف مع القضية الجزائرية إلى الفعل؛ إذ قام بزرع قنبلة متفجّرة في مصنع «غاز الجزائر» الذي كان يعمل

فيه، لكن جرى اكتشاف القنبلة قبل انفجارها فقبضت الشرطة عليه، وتعرّض للتعذيب الشديد.

وكان قد اختار توقيت السابعة والنصف مساءً بعد الدوام اليومي ليضمن عدم تأذّي أيّ عامل من عمّال المصنع، إذ إنّ نيّته لم تكن الإيذاء أو إراقة الدماء بقدر ما كانت إيصال رسالة تضامن مع جبهة التحرير؛ وقد استخدم محاموه لاحقًا هذه الحُجّة من أجل طلب العفو عنه أو تخفيف عقوبة الإعدام، دون جدوى.

آنذاك، كتب جان بول سارتر الذي كان منحازًا للقضية الجزائرية مقالًا بعنوان «جميعنا قتلة» دافع فيه عن إيفتون وأدان جريمة إعدامه بالمقصلة، قائلًا: «هذا الرجل أعلن وأثبت بأنّه لا يريد موت أيّ أحد، أمّا نحن فقد أردنا موته وقد حصلنا عليه بالفعل»..

وقبل إعدامه بالمقصلة، كتب إيفتون إلى زوجته هيلين رسائل يؤكّد فيها بأنّه «ليس نادمًا على شيء»، وأنّه يطمح إلى جزائر مستقلة يعيش فيها الجميع سواسية.

كلّ هذا كنت تعرفه، لكنّك لم تعرف بموت مدام سيمون، ولا برحيل مدام كوزيت إلّا عند شفائك تمامًا، وعودتك إلى البيت. تلقّيت الخبرين بمشاعر مختلفة.

الحقيقة أنّك ستفتقد مدام كوزيت أكثر، لكأنّك كنت تحتاج إلى عداوتها، لتواصل معركتك معها ولو صمتًا، فأنت لم تستعدِها إلّا بالصمت. لكن «حتى مع العدوّ على المرء أن يفي بوعده». أشياء كثيرة بقيت في قلبك لم تقلها لها هي بالذات. كان بينكما تصفية حسابات عالقة، كلاكما يريد حسمها لصالحه.

وهي أيضًا، كان لها ما حملته معها من كلام، وبقي عالقًا في حنجرتها لم تقله لك. ربّما لذا أرسلت لك بعد فترة رسالة من فرنسا،

لكنّك لن تدري بما كتبت لك، فقد مزّقت أمّي الرسالة متوهمة أنّها من تلك المرأة الأخرى!

الجوع إلى الحنان شعورٌ مخيفٌ وموجع، يظلّ ينحر فيك من الداخل ويلازمك، حتّى يأتي عليك بطريقةٍ أو بأخرى.

لم نبك سوى رحيل مدام تكسيه، لأنّها على مدى أيّام بكتنا بحرقة، فقد كنّا لها الأهل. ما كان لها ابنٌ كمدام كوزيت تتحدث إليه، ولا زوجٌ ضابط تزيّن صالونها بنياشينه، ولا أجداد تعلّق صورهم، أو قبور لذويها تزورها في عيد «جميع القديسين» محمّلةً بورد من نوع خاص للمناسبة. لم تكن تزور سوانا، تقريبًا يوميًا.

اعتادت أن تحضر بعد نشرة الأخبار لتتابع فيلم السهرة معنا، فقد كانت معظم الأفلام والمسرحيات التي تقدّم لنا فرنسية. معًا شاهدنا الأفلام الكوميدية لـLouis De Funes ومسرحيات Jean Le Febvre. مع الوقت أصبح لها مكانها على الكنبة، وكانت أمّي تدثرها بلحاف لتدفئها في أيّام البرد، كما تفعل معنا. وتقدّم لها شايًا وما أعدّت من حلويات، وتقاسمها الضحك والتعليقات. ولأنّها كانت يتيمة، فقد كان ذلك اللحاف الذي تقاسمته معنا أغلى ما تمنّته من الحياة.

لم يحدث أن كان لك مع مدام تكسيه مناقشة حامية الوطيس، اختلفت فيها معها حول شيء. كانت طيّبة صادقة، تجاوزت الشعور بالأمان معنا إلى الطمأنينة، وأصبحت تتنقل في البيت وتدخل المطبخ، وتطلّ من الشرفات.

لكن كلّ الشرفات كانت مقابلة للواجهة الكبرى للبحر. وكانت البواخر تطلق صفاراتها يوميًا، معلنةً بصهيلها الرحيل. أدركَت ذات يوم وقد غادر الجميع، أنّ عليها أن تغادر وربّما أن تشتري للمناسبة

حقيبة. اختارت مرسيليا وجهة، فهي النقطة الأقرب إلى الجزائر. ما كانت باريس تشبه مزاجها.

ضمّتنا طويلًا وبكت. ما كان لها من شيءٍ ثمين تتركه لنا سوى نبتة بيت بحوض كبير، عاشت من بعدها في شرفتنا عقدًا من الزمن، حتّى خفنا لضخامتها أن تتسبّب في وقوع البلكون. لفرط شعورها أنّها غدت واحدة منّا، كانت لها وهي تغادر أمنية مجنونة ما انتبهت لاستحالتها: أن تأخذ صوفيا معها إلى فرنسا. فقد اعتادت أن تساعدها في تمارينها، وتبدي إعجابها برسوماتها فتحضر لها أحيانًا أقلامًا للتلوين.

إنّه لأمرٌ طريف. كانت مدام كوزيت تودّ لو أخذت معها موتاها. أمّا مدام تكسيه فكانت تريد أن تأخذ معها الأحياء. كنّا ما سينقصها من رائحة وحنان حيث هي ذاهبة، لعلمها بأنّها لن تعرف مثله بعد الآن.

الفصل الرابع

«لعلّ هناك امرأة كانت تتعطّر لك،
أمّا أنا فكنتُ أقصدك لأتعطّر بك.
لأنّي ابنتك».

كان لعطرك الرجالي حضن. ما كان حاسّةً بل إحساس، تفوح كيمياؤه كلّما ضممتني، ما كان يُشمّ بل يُضمّ، فقد كان راحتي ورائحتي. كما عندما كنت تلاعبني طفلة وأنا على حجرك، فأشير مذعورة إلى شعيرات صدرك، متلفظة كلمات طفولية غير مفهومة، فتضحك لظنّي بأنّها لكثافتها تخفي شيئًا ما.

متأخرًا بعد رحيلك، أدركت بأنّ مرج صدرك كان مساحة الأمان الوحيدة في غاب الحياة.

لذا عشت بعدك يتيمة رائحتك. يقودني أنفي خطأ لخلطات سحرية كاذبة، وعيناي للتجسس الصّامت على رجلٍ يقف أمام المرآة، يحلق ذقنه، يضع عطر ما بعد الحلاقة، ويرتّب تفاصيل طلّته.. كأنّه أنت.

«العناق أن تأتي بعطر وترحل بعطرين» يقول نزار. ولأنّي ما كنت قد بلغت عمر التعطر بعد، كلّما هممت بمغادرتك عانقتك

طويلًا، كي أعود بذراعيك. فقد كنت أحتاجهما كثيرًا، لأحتمي بهما في غابة كنت أعبرها في غيابك عزلاء بسذاجة فراشة.

كبرت بعدك، وما اكتسبت مهارات الزواحف.

على مدى أشهر جئتك بأشياء، وهرّبت لك أخرى، اعتدتَ أن تراني كساحر، أخرج لك من حقيبتي جريدة، مذياعًا، أقلامًا، دفاتر، برتقالًا، سكّينًا.. أو عطرًا. وكما يعيد الساحر المناديل والحمام إلى قبعته، كنت أعيد بعضها إلى حقيبتي، سعيدة بتواطئي معك، وكأنّني أشاطرك بذلك جنونك.

فعلت ذلك دون وعيٍ، سوى الرغبة في إسعادك، وماذا لو كانت الأشياء التي تسعدنا هي بالذات سبب انتكاساتنا، لأنّ إحساسنا بها تغيّر؟

لكنّ سعادتك كان ينقصها شيءٌ ما استطعت إحضاره لك، وكنتَ دائم السؤال عنه، إنّه بريدك، الذي أصبح يتناقص حتّى لم تبق منه سوى مجلة نوفوستي، وبعض البطاقات البريدية في الأعياد يرسلها قريبٌ في فرنسا.

لم يكن زمن الهاتف المحمول قد حلّ بعد، كان البريد يتحكّم في سعادة وشقاء القلوب. وكان انقطاع الرسائل، مصدر حزن وفضول موجع لدى المحبّين.

ما كنت تدري أنّني أعلم تمامًا ما كنت تنتظر. كم تمنّيت لو كنت ساحرة، لأهديك شهقة تلك الفرحة، التي لم تعرفها منذ شهور.

لو كنت أعرف عنوان تلك المرأة، لكتبت لها أخبرها كم كانت رسالة منها ستسعدك، وربّما تساعد في شفائك، لكنّني كنت أشتبه في احتجاز أمّي لرسائلها.

ماذا لو كان ما يحزن أمّي أكثر هو أنّها لم تتلقَّ رسالة في حياتها، ولا استطاعت كتابتها، بينما كان عليها التعايش مع بريدك.

أتدري مأساة أن يعيش الإنسان من دون أن يكتب أو يتلقى رسالة واحدة في حياته؟ أن تتراكم داخله الكلمات والمشاعر على مدى عمر، لأنّ لا ورقة تحفظ أحزانه، ولا رسالة تلملم بوحه، ولا شيء ملموس في حوزته يمكن أن يعود إليه عندما يجتاحه الحنين. كيف يكون قد عبر هذه الحياة، من دون أن يكتب له أحدٌ «أحبّك» ولا هو كتبها لأحد؟

كيف لم يخطر ببالك أنّ أمّي أيضًا لها ما تمنّت قوله، وأنّه كان يمكن أن تكون شاعرة. أما كنت تقول بأننا نولد جميعًا شعراء؟

أذكر أنّك كنت، برغم تعبك، كلّما عدتَ من العمل، تخصّص بعض الوقت لتعليم العاملة التي كانت تساعد أمّي في أشغال البيت. وكانت يمينة سيدة من الجنوب، من أصول إفريقية ربّما، وصلت عندنا وأصبحت منّا، بعد أن توارثتها إحدى كبرى العائلات، ولم تغادر يومًا بيتهم. حتى أنّها لم تكن تميّز الأوراق النقدية ولا عرفتها من قبل، وكلّما أعطيتها معاشها الشهري، عادت من دونه، لأنّهم كانوا ينصبون عليها في السوق لجهلها قراءة الأرقام. قرّرتَ أن تحتفظ لها بمعاشها في ظرف أعلى خزانتك، وأن تعلّمها الأبجدية والحساب لتدافع عن نفسها في الحياة.

كان ذلك يثير غضب أمّي، لأنّها كلما جاءت بعاملة جديدة لتساعدها في شؤون البيت، أحضرتَ لها أنت دفاتر لمحو الأمّية، من تلك التي كنت قد أعددتها، وباشرتَ في تعليمها.

أَعجب لأنّك لم تعرض على أمّي أن تواصل تعليمها، ولا ساعدتها بقدر ما ساعدت يمينة. ربّما لأنّ أمّي لم تطلب منك ذلك عن كبرياء. وربّما لأنّك ما كنت جاهزًا أن تفتح عليك أبوابًا مغلقة، لعلمك بأنّ أمّي لو أكملت دراستها، لكانت امرأة خارقة تصعب السيطرة عليها.

الفصل الخامس

«جُنّ كي أراك!».

ربّما كان الجنون ضيفًا طارئًا، فصلًا من فصول العمر، يحلّ بضعة أشهر في حياة الإنسان خارج منطق المواسم، ثم يغادر بعد أن يكون قد غيّر الأثاث الداخلي للمرء، فحطّمه أو أصلحه، وربّما أدخل لمسات مجنونة أو عاقلة على ديكور وجدانه. بعدها، ستتماثل ذاكرته للشّفاء أو للشّقاء، حسب درجة وعيه بالأشياء.

نحتاج أن نفقد صوابنا أحيانًا، لنثبت للآخرين أنّنا على صواب. عندها نصبح مرئيّين ويدفعهم الفضول لأن يستمعوا إلينا. ها قد استعدتَ ما فقدتَ، وقلتَ ما أردتَ قوله، وعدتَ نهائيًّا إلى البيت، مطمئنًّا وسعيدًا بوجودك مجدّدًا بيننا، وكأنّ شيئًا من كلّ ما عشته لم يحدث.

حتّى قصة حبّك تلك كأنّها لم تكن. ما عدت تنتظر مفاجأة ما يأتيك بها البريد. ثمّة أغنية أجنبية اشتهرت على لسان جندي عائد من الحرب «إن كنتِ ما زلت تنتظرينني علّقي على شجرة بيتك

شريطًا أصفر» يقال إنّ كلّ الأشجار بعدها أزهرت شرائط صفراء. كان زمنًا يترك فيه الجنود الحالمون رسائل إلى حبيباتهم معلقة على الأشجار قبل ذهابهم إلى الموت، ويعرفون حين عودتهم من الشريط الأصفر، إن كان قلبها غدا لغيرهم أم هو في الانتظار.

كنتَ كجنديٍ عاد من الحرب ولم يجد الشريط الأصفر معلّقًا على شجرة الذكرى. ما كنتَ تتوقع كم من شريط أصفر اقتلعت أمّي من شجرتك تلك!

كان لديك جوع للاطّلاع على الجرائد، كي تعرف ماذا حدث في غيابك، فقد تراكمت لديك الأسئلة. وكنت تحتاج أن تستعيد عادتك في رؤيتي جالسة على طرف سريرك، أحكي لك تفاصيل يومي في الجامعة وفي الإذاعة، فنتناقش في كلّ شيء، انطلاقًا من أي شيء. حتّى لكأنّ حياتي غدت حياتك، وماضيك أضيف إلى حياتي.

الوحدة بالنسبة إليك، كانت غياب أي شخص يمكن أن تتحدث معه في السياسة والأدب. لذا كنتَ مع أدويتك، تتناول جرعة يومية من الكتب، مستفيدًا من وقتك لاكتشاف ما اشتريتَه منها ولا تدري به.

كان هناك دائمًا دفتر فوق الطاولة المجاورة لسريرك، تسجّل عليه يومياتك، مواعيدك، ملاحظات عن قراءاتك، الأدوية التي أخذتها، تطوّر وضعك الصحي، الناس الذين التقيت بهم، انطباعاتك عنهم وعن الأحداث. كأنّك تتبع نصيحة وولتر بنيامين القائل: «دوّن يوميّاتك بالدقّة التي تدوّن بها أجهزة المخابرات ملفّاتها عن الأجانب».

كنت تواصل إدارة فراغك كما لو كنت مزدحمًا به، لتوهم نفسك أنّك ممسك بالوقت، مواصلًا عاداتك المهنية يوم كنت مسؤولًا

عن أرشيف «حزب الشعب» وبعدها مستشارًا في الحكومة. فقد كنت دومًا مديرًا وسكرتيرًا لنفسك، لم توظّف يومًا سكرتيرًا لمهامك.

حال عودتي، كنت أجدك في انتظاري. غالبًا أنت من يفتح لي الباب، بعد أن كانت دَقَّتك المميّزة للجرس تصيبنا بالرّهبة، فلا ندري من منّا يفتح لك.

أبي الذي كان غائبًا معظم الوقت، أصبح حاضرًا أكثر ممّا تمنّى أن يكون. هو الذي كنّا ننتظر المناسبات لنراه، أصبح ينتظرني. هو الذي كان بطلي، أصبح في متناولي. كان الغائب الكبير، أصبح الحاضر الدائم.

سعادتك كانت في كوننا أصبحنا نملك الآن زمنًا مفتوحًا خارج المستشفى، لا يُفتح بباب أو بأقفال في ساعات محدّدة. كنّا أخيرًا معًا.

كان حصولي وقتها على ليسانس في الأدب، قد أسعدك كما لو كان إنجازًا شخصيًّا لك، ورحت تطالبني بمواصلة الصعود.

لكن، ذات يوم جلستُ على طرف سريرك كالعادة، وقلتُ لك وقد سبقتني الدموع:

– بابا... إنّي أخوض معارك كثيرة لا أحكي لك عنها.

كنت مستلقيًا، فأصلحتَ من جلستك وسألتني مندهشًا:

– ما الذي يحدث؟

– لقد منعوني في الجامعة من متابعة دراساتي العليا، برغم أنّ علاماتي جيّدة. بذريعة أنّنا أوّل فوج يحصل على الليسانس باللغة العربية بعد الاستقلال، وأنّهم يحتاجوننا للتّدريس في الثانوي. في الواقع هم قبلوا غيري ولا يريدون وجودي في الجامعة. بلغني بأنّ رئيس القسم أمر بعدم إعادة تسجيلي.

صحتَ:

– كيف هذا؟ بأيّ حق؟ سأذهب لمقابلة العميد، أنا أعرفه!

هذا تمامًا ما كنت أتفاداه خشية أن تنتكس.

قلتُ:

– لا تذهب بابا فلا جدوى من ذلك. رئيس القسم هو أحد الدكاترة المسؤولين أيضًا عن اتّحاد الكتاب، وهو ضمن مجموعة مكرّسة، تحارب أيّ وجود للشّباب، وأنا بالذات شهرتي تزعجهم.

تركتك مهمومًا غاضبًا.

لقد أرادوا التخلّص منّي باكرًا، كما مديرة الثانوية التي لم أحدثك عنها، فكيف يقبلون احتمال أن أصبح في السادسة والعشرين من العمر دكتورة، بشهرة تتجاوزهم.

لم أفهم أيّ ذنب اقترفنا نحن الشباب. فما كنّا في فرنسا حيث زلزلت انتفاضة الطلاب قبل ذلك بسنوات قليلة، في ماي 1968، البلاد، ووُصفت بأخطر محاولة لتغيير العالم، إذ أوقفت الاقتصاد الفرنسي وانضم إليها كبار الفلاسفة والكتاب والشعراء، حتّى أنّها أنهت حقبة ديغول الذي اضطر إلى الاستقالة.

كان الشعار الشهير للطلبة آنذاك «كونوا واقعيّين، اطلبوا المستحيل»، وكنّا نحن أكثر واقعيةً منهم. فكلّ ما كنّا نريده هو حقّنا في الوجود في ساحة أدبية تمّ الاستحواذ عليها من قبل «شيوخ الأدب» و«ديناصوراته»، في إطار صراع بين جيلين وفكرين.

أدركتُ بعدها بأنّ ذلك الصراع كان يمتدّ في كلّ المجالات، وهو السوسة التي نخرت الإدارة الجزائرية، وجعلتها تشيخ وتحنّط. استحوذ القدماء على أهمّ المناصب دون كفاءة، فقد كانت الأولوية للمقاييس الوطنيّة واعتقد البعض أنّه بمشاركته في تحرير الجزائر قد مُنح صكّ الاستحواذ عليها.

سنة 1975 كانت تنتظرني صدمة أخرى، عند انعقاد أوّل مؤتمر للكتّاب العرب في الجزائر. كان حدثًا كبيرًا افتتحه الرئيس بومدين في قصر الصنوبر. كان فرصة للقاء كتّاب كنّا نسمع عنهم كثيرًا في ذلك العصر الذهبي للأدب، وتمنيّت آنذاك أن أراهم. وإذا بأحدهم يقصدني أثناء حفل الاستقبال ويقول لي بشوارب ذلك الزمن الثورجي «عليك أن تغادري القاعة». قلت متعجبة «ولكنّني كاتبة وعضوة في اتّحاد الكتّاب» أجاب «ما عدتِ عضوة ولا نريدك هنا».

كانت صدمتي كبيرة، تجمّدت مكاني، اغرورقت عيناي دموعًا ولم أجد كلمات أردّ بها. فلم أعش موقفًا كذلك في حياتي ولا توقّعته. وقبل أن أهمّ بالمغادرة، إذا بالدكتور محيي الدين عميمور، وكان آنذاك المستشار الإعلامي الخاص للرئيس، يقصدني ويقول بنبرة حارّة وهو يستعجلني «الرئيس يسأل عنك، قال أين شاعرتنا، تعالي سلّمي عليه». استعدت كبريائي، قلت له «لست شاعرة وأنا على أهبة المغادرة». قال «كيف ذلك!.. الرئيس يقرأ لك، وإن واصلت الكتابة على هذا الخط سيكون لك مستقبل زاهر». كان يشير إلى مقالي الأسبوعي في ملحق جريدة الشعب.

وقفت تتجاذبني النّزعات. كلامه أسعدني في ذلك الظرف بالذات، فما توقعت أن يسأل الرئيس عني في محفل كبير كذاك. لكنّني كنت مدمّرة، لا أشبه عنفوان الكاتبة التي قرأها. كنت التلميذة التي سبق أن طُردت من الثانوية ظلمًا، والطالبة التي مُنعت من مواصلة دراساتها العليا في الجامعة، والشاعرة الصغيرة التي طُردت للتوّ لأنّ هناك دومًا من يطغى كلّما سمحت له سلطته بذلك. تمنيت أن أغادر القاعة من غير أن أسلّم على أحد، تمامًا كما غادرت الثانوية على عجل، والجامعة دون أن أستجدي أحدًا. لا أذكر ماذا حدث، سوى أنّي تركت القاعة باكيةً. لا أذكر حتّى اسم ذلك الذي

طردني من مؤتمر الكُتاب العرب... لكنّه ما نسيني. حتمًا صادفه اسمي كثيرًا بعد ذلك، فقد ساهم في جعلي ما أنا عليه اليوم.

لا تـردّ، امـضِ، ودعِ الـوقـت يقـوم بـالـلّازم، فهو يفعل ذلك أفضل منك!

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

«لا وجود لبلاد متخلّفة، بل بلادٌ تخلّف أبناؤها عن حبّها».

(قولٌ لا أنساه لجاك بيرك في إحدى محاضراته)

صدمة بعد أخرى وقعتَ على التناقضات التي أخرجتك عن صوابك.

أدركتَ المسافة التي قطعتها، لتنتهي في مصحٍّ عقلي. مثلك فقدتُ القدرة على مجاملة من لا أحترم. مثلك أصبح لي عدوّ غير مرئي، أفسد علاقتي بالوطن. ثمّ كثُر الأعداء تحت تسميات مختلفة. وبـدأ جيلي بالمغادرة، تاركًا البلاد للعجزة. في سبعينيات القرن الماضي بـدأ أبناء جيلي يهاجرون بالعشرات، ثـمّ في الثمانينيات غادروا بالمئات، ثمّ تحوّل النزيف إلى الآلاف، وخسرت الجزائر خيرة عقولها ونوابغها. هم اليوم من كبار العلماء وأصحاب الاختراعات في الولايات المتحدة. نتبارك بهم حين يزوروننا وقد دفعناهم خارج الوطن مكرهين.

أمّـا الفقراء وأنـصـاف المتعلّمين فغافلوا حـرّاس الشعارات، وغادروا الوطن في قوارب الموت.

أخبرتك يومًا أنّه ما عاد لي من مكان في هذه المدينة. دعني أغادر يا أبي. هذا الوطن لا يحتاجني.

في الواقع، كان الأعداء في ذلك الزمان مرئيين، نعرفهم بالأسماء، كانوا يعملون ضمن بيروقراطية ممنهجة. هل كنت تتوقّع يومًا لا أحد يعرف من عدوّه؟

من بعدك دخلنا عصر الأنترنت... المعارك غدت تُخاض بلا راية، خلف الأقنعة، جيشها «حشرات إلكترونية» وسلاحها الإشاعات، بإمكانها ببضع منشورات تشويه سمعة من تشاء. أصبح بإمكان من لم يترك الحبر أثرًا على يده ولا الطباشير بياضًا على أصابعه، ولا أمسك يومًا قلم BIC أن يختصر المراحل بالنقر خلف شاشة، متطاولًا على من يفوقه علمًا، فالإنترنت ألغى المنصّة التي يقف عليها الأستاذ، وساوى بين المقامات.

نمَت الأعشاب الضارّة حول أضرحة الأبطال، مذ صار الجبناء يحاربون بالشّتائم في ساحات التاريخ، فانسحب من لهم كرامة تاركين لهم المجال. في زمنٍ مضى كان الثوّار ملزمين بحماية سرّيتهم بأسماء مستعارة، كي لا يتعرّف عليهم العدو أو ينتقم من عائلتهم. أن يكون لك اسم ثانٍ يعني أنّك من المسبّلين الجاهزين للموت من أجل الوطن، أنت مشروع شهيد أو بطل. اليوم غدت الأسماء تلبس قناعًا يختفي خلفه السّفلة، لضرب كرامة الآخرين، والانقضاض على رموز الوطن.

غدا الفضاء الافتراضي يعجّ بالأسماء المستعارة والأعداء المسعورين.

حتى الأمراض كانت على أيامك معروفة، اليوم بلغنا عصر الفيروسات، نواجه عدوًّا غير مرئيّ، يعرف نقاط ضعفنا البشريّ، ولا نعرفُ له بعدُ من مواصفات، عدوّ يغيّر كلّ يوم اسمه، لا نعرف له

وجهًا ولا نرى له يدًا، أمسك بأعناق البشر، وأدخل الكرة الأرضية بأكملها في الحَجْر.

المال أيضًا غدا بعدك غير مرئيّ، لدينا عملات رقميّة تجعل منك ثريًّا افتراضيًا ثمّ مفلسًا حقيقيًّا.

يقال بأنّ حتى العالم تحكمه حكومة غير مرئية، تعيّن الرؤساء وتقرّر عن البشرية ما تشاء.

أخطأتَ في توقيت جنونك. ما كان الأمر يستحق أن تُجنّ على أيامك!

في الثالثة والعشرين من العمر، وبينما كنت أعتقد بأنّ الأبواب كانت تُسدّ حولي بإحكام، كما بذلك القفل الخارجي للباب الحديدي لغرفتك في ذلك المصحّ، كان القدر يدير أمري، فاتحًا لي في الجدار أبوابًا.

حصلت على موافقة البروفيسور جاك بيرك لتقديم أطروحتي في علم الاجتماع تحت إشرافه في السوربون. ما كنت قد سمعت به ولا أدري أنّني أصغر طلبته، وآخر دفعة (مع زوجي لاحقًا) من بين قلّة اختارها بعناية قبل تقاعده. شفعت لي عنده شهرتي. شهرتي نفسها التي كانت في وطني سبب محاربتي. بل إنّه إعجابًا ببحثي الأكاديمي كتب لاحقًا مقدّمة كتابي بالفرنسية.

شاهدت على وجهك الفرح والحزن يتلامسان في نقطتهما الأقصى. كنتَ تجلّ ذلك الرجل الذي كان «شيخ المستشرقين»، فقد كان صديق محمّد الخامس وعبد الناصر وكان محبًّا للجزائر، مناصرًا للعرب، وفي آخر حياته اجتهد لنقل جمالية القرآن في ترجمة استغرقت ستّ عشرة سنة كاملة من عمره. كان ذلك أجمل ما يمكن أن يتحقّق من أمنياتك، وأقسى ما يمكن أن تأخذ منك الحياة مقابله.

قلتُ لأطمئنك «بابا لا تحزن هكذا.. عندما أنهي دراستي سأعود».

أطلت ضمّي فلم تكن لتثق في الوعود الكاذبة للمطارات.

إن صدق قول بيسوا إنّ «الموت هو منعطف الطريق، الموت أن تختفي عن الأنظار فقط»، تكون الغربة إذن «موتًا صغيرًا». مجرّد اختفاء عن الأنظار في بلاد أخرى، نواصل فيها الحياة. لكنّنا لا ندري ونحن نسلك ذلك المنعطف الذي يبدأ بمطار، من المختفي، ومن المتوفّى، الذي يغادر... أم الباقون في انتظاره؟ فذلك المجهول الفاتن، ينتهي إلى إغرائك بالبقاء.

تدريجيًّا تستوطن غربتك. بينما في انتظارك يموت أهلك وهم أحياء.

إن كان كلّ شيء يولد صغيرًا ثمّ يكبر إلّا الموت، فالغربة «موتٌ صغير» يكبر مع الوقت، إلى حدّ قد يستغرق عمرك.

فراقي كان بالنسبة لك انتزاع شيءٍ منك، حاسّةٍ من حواسّك، أيّامٍ من عمرك. نهاية مباهج كنت تتقاسمها معي. بغيابي فقدت جمهورك، ففي التدريس كما في السياسة، على مدى عمر كنتَ الخطيب. تقبّلتَ أمر سفري، لأنّك بطبعك محارب، كان هناك معركة لا بدّ من كسبها، معركة الأحلام التي أعطيتني اسمها.

لحظة التحدّي الكبير، من مخاض الممكن والمستحيل، ينجب الإنسان نفسه. يبعث إلى الحياة ماردًا، يطيح بمن استصغروه.

ثمّة ذكرى لم تفارقني. مشهد إعلان اللجنة نجاحي، وإسراعي إلى الخارج بحثًا عن مقصورة هاتفية أطلبك منها.

صحتُ: «بابا.. لقد حصلت على الدكتوراه في علم الاجتماع بتقدير ممتاز. هي هديتي لك».

لا أدري إن كانت عيناك قد دمعتا للخبر، أمّا أنا فبكيت في القاعة وفي طريقي إلى مقصورة الهاتف، حيث انتظرتُ أن ينهي أحدهم مكالمته لأزفّ إليك الخبر. رآني الرجل خلف زجاج المقصورة ولم يدرِ ما بي، فاختصر مكالمته. كنت منهكة وحبلى في الشهر السابع بثاني أبنائي. لقد دفعتُ ثمنًا غاليًا لأفي لك بنصف وعودي. ذلك أنّ وعدي بالعودة للعيش معك ما عاد ممكنًا.

لاحقًا حين التقينا قلت لي: «كم يسعدني أن تحملي هذا اللّقب».

أجبتك: «لن أوقِّع به يومًا، لقد غادرت الجزائر بسبب من يحملونه. فوزي به كان من أجلك وحدك».

على مدى أربعين عامًا، وفيت بوعدي.

لو حملته، لتحوّلت الهدية إلى مجرّد شهادة أكاديمية ترافق اسمي، وتميّزني عن قرائي. لطالما أحببت الهدايا غير العلنية. كلّ تعبي وأرقي، طوال سنواتٍ أربع، لم يكن سوى من أجل لحظة زهوٍ في حياتك. فأنا لم أنسَ يوم جاءت صحفية إلى البيت لتجري معي مقابلة وسألتكَ عني، فأجبتَها بما أدهشها «لقد جئتُ إلى الدنيا لأنجب أحلام، أريد أن أنسَب إليها كما تُنسب لي».

كان عمري آنذاك ثماني عشرة سنة، ولم أكن قد أصدرت بعد سوى ديوانٍ واحدٍ. كان ضربًا من المجازفة أن تتنازل عن ماضيك وتُباهي بمستقبلي. هل سمعَتك السماء يومها فأخذتْ بقدري؟

لم تبقَ لك إلّا الكتابة حبلًا سريًا، ومَصلًا يبقيك حيًّا ويربطك بي على الضفّة الأخرى. كما لو كنّا معًا، كنت تصف لي مطوّلًا ذكرياتك في قسنطينة حتى غدوتُ أعرفها، أنا التي لم أكن قد زرتُها. لغزارة بريدك في السنوات الأولى، فكّرت أن أوظّف رسائلك في عمل روائي.

قلتُ فليكن، سأدرس بالفرنسية، وأكتب باللغة العربية كما أردتَ لي، سأهديك رواية.

وكانت صدمتي أن رحلتَ في توقيت صدورها. لم تدرِ حتّى بها. أردتُ مفاجأتك، فكنتَ «مفاجعتي».

أكانت مصادفة، أن تغادر تزامنًا مع إرسالي «ذاكرة الجسد» إلى دار النشر؟ ذهبتَ إلى عتمتك، وتركتَ لي الضوء الباهر لذلك النجاح المباغت.

«في الاختفاء أناقة»، يقول جان كوكتو. كان في توقيت رحيلك أناقة تشبهك، وكأنّه كان عليك أن تنسحب إكرامًا للأدب. فما كان يمكن أن تواصل الحياة داخل الكتاب وخارجه.

من أجل أسطورتك الشخصية كان يجب أن تغادر، فأنت تدري بأنّ الأدب يجمّلنا، أمّا الحياة فهي لا تجامل أحدًا.

***

«ليس في القرب ضوء.
توهمنا القرابة أنّنا نعرف آباءنا وأمهاتنا، لأنّنا نراهم مذ جئنا إلى العالم.
الحقيقة، أنّنا لا نعرفهم حقًّا إلّا عندما يرحلون عن هذا العالم...
ومن هنا يأتي حزننا».

كما كنت تبحث عن صورك القديمة التي مزّقتها أمّي عن غيرة، قضت هي الفترة الأخيرة من حياتها تبحث عن صورها التي كانت قد ألصقتها في الماضي داخل ألبومات كبيرة، ذات أغلفة متنوعة تختلف فخامتها حسب مكانة الصور. لكثرتها احتفظتْ بها في صندوق خشبيّ كبير مزخرف كان يحتلّ أرض غرفتها.

كنتُ قد أخذت بعض الصور دون علمها، لأعيد نسخها، بعد أن أصبحتُ أخشى فقدان ما لا يستعاد. ما توقّعتُ أنّها ستكتشف فورًا أمر اختفائها، وأنّها لن تنفكّ عن السؤال عنها.

لعلّ في عمرٍ ما، تنوب عن حياةٍ نعيشها صورٌ لحياة عشناها، فلا نعود ندري أيًّا منهما هي الأهم.

كيف أنّ وقتًا مُحنّطًا لزمن ولّى يصبح الأغلى؟ كأنّ ضحكاته ومناسباته حدثت في حياة أخرى، ويمكننا استعادتها إن أطلنا إلى الصور النّظر.

ألأنّها صورٌ عمّا كنّاه وما أضعناه إلى الأبد، تغدو غالية إلى ذلك الحدّ؟

لو وُجدت الصورة على أيّام الفراعنة لكانوا أخذوا معهم الصّور إلى مقابرهم، بدل الذهب. فحاجة الموتى إلى ذكرياتهم تفوق حاجتنا لرؤية صور من فقدناهم. هم يسعدون بها... أمّا نحن فنتألّم.

أحزنني أنّني لم أُعد لأمّي صورها، فحين عدت إلى الجزائر على عجل كان الوقت قد تأخّر.

تأخّرتُ في معرفة أمي، اكتشفتها بعد رحيلها. تمنّيت لو أورثتني كبرياء صبرها، أناقة تفاصيلها، أنوثة أشيائها، حياء الحرير والدنتيل في خزانتها، حدسها الذي لا يخطئ في الحكم على البشر. لو استفدت من حكمة الأمثال القسنطينية التي تبرع في الاستشهاد بها، وكيف أدوزن مشاعري بالدقّة التي تدوزن بها مكوّنات صينية البقلاوة، التي تعدّها في الأعياد، فلا أزيدها عسلًا، ولا أنقص كمّية الجوز.

لو علّمتني إعادة تدوير الخيبات إلى أمل، كما تعيد تدوير الملابس لتمنحها حياة أخرى. أن أقطع العلاقات السامّة بحسم كما

كانت تقطع الخيط بأسنانها. ألّا أطمئنّ للعلاقات الفضفاضة، وأفصّلها على قياس أصحابها، كما كانت بالطباشير تحددّ الأثواب التي تفصّلها. وكما كانت تحتفظ بقصاقيص الأقمشة، أتعلّم ألّا أفرّط في أي لحظة لأنّ الوقت قماش الحياة.

أنـتَ... لم تعلّمني شيئًا من كلّ هذا. هي نفسها كانت تردّد «كل ما تعلّمه أبوك انقلب عليه». وها قد انقلب عليّ ما علّمتني.

يا لزمنٍ كنّا فيه سعـداء. لم تكن السعادة مكلفة، ولا نحن متطلبين. ما كان الأطفال يُنسبون للماركات التي يلبسونها، لكن كانت ملابس طفولتنا فائقة الأناقة تحمل توقيع قلبها.

هي التي كانت تستبسل في الزمن الصعب في إظهارنا دائمًا أفضل حـالًا ممّا نحن، ومائدتنا في الأعـيـاد أكثر تنوّعًا ورُقـيًّا من إمكانياتنا. ثمّ تجمع كلّ الحلويات من على المائدة وتقوم بإخفائها والاحتفاظ بها لضيفٍ قد يجيء. أمن هنا جاء احتفاظها بالكلمات الغالية على القلب التي لا تقال إلّا في وقتها؟ أخفت كلّ ما حمل قلبها من بوح ومشاعر وعتاب إلى حين وقته. وما جاء وقته، بل جاء.. «زائر الغفلة»، غافلها وهي بين يديّ في المستشفى.

أمّـي.. اعذريني لم أعـرف كيف أتصرّف وأنـت تموتين بين يديّ. تعرفين كم أنّني لا أصلح لهذه المواقف، لو كان صغيرك ياسين هنا، لسارت الأمـور بطريقة أخـرى، وربّما ما كنت ممدّدة في ذلك السرير، لكنّ السّيجارة التي لم تحسبي لها حسابًا سرقته منك.

في الواقع كنتِ هناك لتلحقي به، فلم يتقبّل قلبك المتعب فاجعة موته فقد كان سندك ورجل عمرك. الفواجع غيّرت قراباتنا، فأنا أيضًا كنت أظـنّ ياسين أخـي، وحين رحـل اكتشفت أنّـه وهو

يرافقني ويحرسني وينصحني ويفاخر بي صار مع الوقت أبي، وكذلك أنتِ كنت أناديك أمّي برغم علمي أنّك غدوت في الآخر ابنتي. في كلّ من فقدتُ تيتّمتُ مرتين.

كان يمكن إنقاذك، ما كان الأمر خطيرًا. لكن، ما كان من طبيبٍ أو ممرضة لنجدتك. ركضتْ صوفيا في رواق المستشفى، نادتهم طويلًا طويلًا، ولم تحضر بعد ساعة سوى الملائكة. فرحلتِ وأنا مذهولة أراك تمضين.

تذكرين... كنت أنوي الحضور باكرًا لقضاء رمضان معك، لكنّك مانعت بإصرار. كان عليّ أن أتذكّر أنّك كثيرًا ما قلت عكس ما تودّين!

تذكرين... كنت تصرّين مهما يكن على العلاج والموت في الجزائر.

ها قد تحقّقتْ نصف أمنياتك، لم تعالجك الجزائر.. لكنّك متِّ فيها!

***

«ستعيشين بعدي يا امرأتي
وذكراي كدخان أسود
ستتبدّد في الريح
ستعيشين يا أخت قلبي
ذات الشّعر الأشقر
فالموتى لا يشغلون أكثر من سنة»

(رسالة ناظم حكمت من السجن إلى زوجته)

عاشت أمّي بعدك ثلاثين سنة، حتى نسينا أنّها يومًا لن تكون هنا.

الأمومة في إغداقها، تعطيك وهمًا بوعدٍ لن تفي به الحياة. توهمك بأنّك طفل أبديّ وبأنّك محميّ. في الواقع، لا نجاة لك، مذ

جئت الحياة وقدرك أن تكون يتيمًا. ويوما ما، ستختبر يتم صوت كان يسأل عنك، ويتم صباحات الأعياد، وتلك اللمّة التي ما ظننت عقدها سينفرط إلى الأبد.

لم تكن أمّي مواظبة على الصلاة، ولا كانت تحفظ الكثير من الآيات، لكنّها غيّرت نظرتي للإيمان، عندما توفّيت في رمضان ذات جمعة في ليلة القدر، التي يتمنّى كلّ مسلم أن يلقى الله فيها.

في الليلة التي سبقت وفاتها، كان التلفزيون يبثّ حضرةً صوفيّةً. ما كان يمكن لها أن تقاوم صوت الدّفوف وتلك الأجواء التي تسكن وجدان كلِّ قسنطينيّ. أخذها الحال فقامت من سريرها الطبي تجذب، مستندة إلى أختي التي سارعت لتطويقها من خصرها، لعجزها عن الوقوف. كانت تلك أوّل مرة تطرب فيها منذ موت ياسين قبل عام تمامًا. هكذا ودّعت أمّي الحياة ابتهالًا ورقصًا وغادرت في اليوم التالي لتلحق بابنها.

أكانت أمّي التي ما قرأت كتابًا في حياتها هي زوربا؟

أدري، كنت تتمنّى لو مثلها ودّعتَ الحياة أثناء «حضرة»، وأنت تجذب حتى السقوط الأخير. فقد كان جدّك عيساويًا وكنت مسكونًا مثلها بتلك الطقوس. لكنّك سقطت في المعارك اليومية، وأنت تتخبط على إيقاع الخطب والهتافات الثورية.

لكأنّك اخترت موتك بتلك الدقة المذهلة، لانطلاق الرصاصة الأولى للثورة، مؤكّدًا قول أندريه مالرو «ليس لنا الموت الذي نستحقّ بل الموت الذي يشبهنا».

تصوّر... كان آخر ما استمعتُ إليه وهم يخرجون جثمانك من المستشفى العسكري، هو النشيد الوطني، الذي ما سمعتَه يومًا إلّا وبكيت. كان ذلك لمصادفة مرورهم بالساحة لحظة رفع العلم صباح

أوّل نوفمبر، فاضطروا لوضع جثمانك أرضًا حتى انتهاء النشيد، ثمّ حيّوا العلم ومضوا بك إلى البيت. لكأنّه مشهد سينمائي من فيلم!

أغمضتَ عينيك في الوقت المناسب. يروي مراد أنّه أثناء مغادرة السيارة التي تحمل جثمانك، كانت سيارات الإسعاف العسكرية تدخل مسرعة من الباب نفسه، حاملةً الجنود الجرحى والقتلى الذين سقطوا في كمين الإرهابيين.

محظوظٌ أنت، لم ترَ عيناك ذلك. ولا دريت أيّ كابوس كنّا مقبلين عليه. فلم تكن تتوقّع أنّ أخبار الاغتيالات التي بدأت تتقاطر علينا، ستتحوّل إلى سيلٍ جارف من المذابح. كنّا في نوفمبر 1992 وكانت بداية عشر سنوات دمويّة سوداء عاشتها الجزائر في قبضة ما سميّ بـ«الإرهاب». مضيتَ ولن تدري بهذه الكلمة التي دخلت فجأة قاموس العالم، والتي مات تحت تسميتها أكثر من 200 ألف جزائري.

لم أصدّق المشهد. وجدتك في انتظاري عند مدخل الشقّة.

لكأنّك كنت تستبقيهم، لتستقبلني لآخر مرّة قبل أن يمضوا بك.

ها قد جئتُك أبي. باب شقتنا مشرّعٌ هذه المرّة، لن تفتحه لي فرِحًا كعادتك. مسجّى أنت وصامت، فقد قلت لي الكثير. لماذا أسرعتُ إذن وانهرتُ في كلّ المطارات، ما دام ليس من حقّي شرعًا مرافقتك إلى مثواك الأخير؟

افترقنا عند الباب. مضوا بك من دوني في موكب مزدحم بالرفاق، ليزفّوك لمعشوقتك الجزائر، في عيدها.

الآن فقط، وأنا أكتب هذا الكتاب، أتذكّر تفصيلًا لم يستوقفني عندما زرتك في اليوم التالي، لأنّ هاجسي في حينها كان البحث عن قبرك. لقد كانت «مقبرة العاليا» يومها، بدءًا ببوابتها المشرّعة على غير عادتها، مزيّنة بالأعلام الكبيرة وبأكاليل الورد الضخمة

الموضوعة على قبور الأمير عبد القادر وبومدين وبن مهيدي وكبار رجالات الجزائر، لأنّ من التقاليد الوطنية أن يزورها وفد رئاسي في تلك الذكرى.

أيمكن للمصادفة أن تنصفك وتهديك مشهدًا خرافيًا كهذا، فتغادر المستشفى بالنشيد الوطني وتستقبلك المقبرة بالأعلام؟!

سلّمتُ على من رأيتُ من رفاقك. كان عمّي ابراهيم حشاني أكثر من بكى. الرجل الذي كان يومًا مهيبًا بهيًّا بشوشًا برغم آثار الرصاص الذي اخترق حتى وجهه، والذي كان أوّل أمين عام لمنظمة المجاهدين نظرًا لنضاله الطويل، ضمّني وقال «هذه آخر مرة تريني فيها يا بنتي. لن أبقى طويلًا بعد سي الشريف». كان منهكًا كما لم أره يومًا، عائدًا لتوّه من زيارة ابنه عبد القادر القابع منذ أشهر في السجن.

لم يتأخّر عمي ابراهيم في الرّحيل، لم يدرِ بأنَّ ابنه لن يطلق سراحه إلّا بعد خمس سنوات، ولا بموته بعد ذلك مغتالًا، ولا بتلك الجنازة المهيبة التي خصّه بها الشعب.. لذا لم يكتب ديوانًا في رثائه، كما كتب بالفرنسية «رسالة إلى الجنة» عندما سقط ابنه البكر، عامًا بعد الاستقلال، في «حرب الرّمال» مع المغرب سنة 1963.

الرجل الذي أعطى عمره وصحته من أجل استقلال الجزائر. ما توقّع أن يأخذ الوطن منه بعد الاستقلال ما هو أغلى.

ما زلت كلّما صادفت اسم عبد القادر حشاني في الإنترنت، أتابع التّقرير لأعرف كيف أنّ ذلك الفتى الخجول الذي كان يزورنا رفقة أهله دخل التاريخ.

عدا هذا، دعني أخبرك بشيء، كنتَ تعتقد بأنّك الأكثر تنظيمًا، وضبطًا لبرامجك، بحكم عاداتك الإداريّة، وكثرة أسفارك، لكنّك نسيت

أن تستعدّ لسفرك الأخير. ولم توصِنا بشيء سوى بوضع أشرطة عبد الباسط عبد الصمد، التي جئتنا بها قبل وفاتك بأيام، رافضًا أن نأتي بمن يقرأ في جنازتك القرآن بمقابل، لكرهك تجّار الدين.

اعلم إذن أنّ أمّي تفوّقتْ عليك في أمرٍ لم تحسب له حسابًا. فقد أعدَّتْ تفاصيل سفرها الأخير، بالعناية التي كنت تعدّ بها أسفارك لروسيا أو يوغسلافيا. اختارت مقبرتها واشترت كفنها وتركت مبلغًا لبناء قبرها، وأوصت على الأكل الذي يقدّم في عزائها، واختارت المطعم الذي سيتولّى ذلك. اكتشفنا بعد رحيلها أنّها باعت مصاغها.. وفاءً لوعدها بأن لا تترك شيئًا!

المفاجأة الأخرى، أنّ وفاتها صادفت يوم افتتاح مقبرة جديدة غير بعيدة عنّا، وجّهونا نحوها.

وكما في الحياة، تصدّرت أمّي الصفّ الأوّل أيضًا بين الأموات، وسط مرجٍ أخضر تحوم فوقه الفراشات، على مقربة منها توجد نافورة جميلة، وفي مقابل قبرها مقعد جميل اعتدنا الجلوس عليه حين زيارتها، فنمدّ معها حديثًا عمّا حدث بعدها وكانت قد أخبرتنا به ولم نصدّق، وعمّن حذّرتنا منهم ولم نصدّق، ثمّ نترك على قبرها وردًا زرعته في حديقتها، واعتادت قطافه ووضعه في مجلسها، ونغادر!

ماذا نستطيع من أجلك يا أبي، وقد اخترت كابنٍ بارٍّ أن تدفن مع أمّك في الطرف الآخر من المدينة، في تلك المقبرة المتاهة التي تدعى العاليا، وحيث العثور على قبرك انتصار.

لأنّ لا مقعد في مقبرتك يمكن الجلوس عليه، والحديث مطوّلًا إليك، فأنا أتحدّث مع أمّي حين أزورها.. أمّا أنت فأكتب إليك.

***

«الأوهام هي جثة الأحلام لذا يثقل حملها».

مذ شرعت في الكتابة إليك وأنا منهكة، كأنّني غيّرت شقّتي ونقلت أثاثي لأعود للإقامة في ذلك الحيّ.

بلهفة الأُلفة، مررت بعدك بذلك الشارع الذي أقمنا فيه، كدت لا أتعرّف عليه، رأيته بائسًا، ضيّقًا، متسخَ الجدران. تأمّلت طويلًا باب البناية، ما زال هو نفسه، لكنّه فقد هيبته والخشب غيّر لونه، بدا لي بعد نصف قرن غريب المظهر. الباب الذي دخلنا منه صغارًا فرحين، لم أنتبه يومًا بأنّ له دفتين. كان يبدو لنا كبيرًا برغم أنّ دفة واحدة منه فقط كانت تظلّ مفتوحة. لم يُفتح يومًا على مصراعيه، إلّا يوم خرج منه جثمانك.

غادرتَ الشّقة محمولًا، ترافقك التّكبيرات في كلّ طابق.

فقد غدا سكّان البناية كلّهم جزائريين. البناية التي قضيت ثلاثين سنة تصعد طوابقها الخمسة لاهثًا، لأنّ مصعدها كان دائمًا معطّلًا، نزلت درجها أخيرًا محمولًا.

لنكن واقعيين. الوطن الذي حملته على مدى عمرك غير معنيّ بحماقتك، إن كنت وزّعتَ على الآخرين الأراضي واخترت أن تعيش في الطابق الخامس في شقة بالإيجار.

هكذا أنت.

ما كان يعنيك، وهم ينزلون بك، هو أنّ مدام كوزيت لم تعد هنا لتراك مغادرًا.

كنتَ تتحاشى أسئلتها المهينة حول المصعد، كلّما صادفتك صاعدًا أو نازلًا الدرج، وتلميحاتها بأنّكم عاجزين عن إصلاحه، وحتى إن أصلحتموه سيعيد الأطفال تعطيله، لأنّهم غير آبهين بشيء، ولم يتربّوا على احترام الأملاك العامة. كنتَ تدري أنّها كانت على حقّ،

لذا كنت تودّ لو كانت ثورة العقل قبل ثورة الأرض، لكن ما كان لفرحة النصر من عقل.

انتهى بك الأمر أن أدركت بأن لا جدوى من أن تتحدّاها، لا شيء يُبنى قبل بناء الإنسان. أمّا إصلاح المصعد فيحتاج إلى قطع غيار لا يمكن استيرادها إلّا من الخارج. رحلتْ مدام كوزيت، وتركت لك المصعد جثة هامدة.. شامتة.

ثلاثة عقود عشتَها على الأمل الكاذب بأن يتمّ تصليح المصعد.

ثم حدث أثناء ذلك أن تنبّه البعض بأنّ في كلّ مبنى مصعد معطّل، وأنّ الباب المغلق للمصعد، هو في الواقع باب رزق مفتوح للنهب. فالذين صفقوا الباب خلفهم وهم يغادرون، تركوه بين طابقين مواربًا للعودة. وهكذا أصبح للمصعد وكلاء يتولّون تصليحه، ويورثون من يأتي بعدهم غنيمة إبقائه على حاله.

عامًا بعد آخر اعتاد الناس الاستغناء عن المصعد. تقبّلوا فكرة أن يظلّ معطّلًا. لا مشكل ما دام هناك درج. كانت تلك بداية الخلل الأكبر.

وُلدتْ لدينا قابليّة التأقلم مع الأسوء، مع كلّ ما يخرب، أو يتعطّل، فانتقل العطل إلينا، ما عاد المصعد موجودًا في مَسكننا، أصبح يسكننا!

أذكر قبل عدّة أعوام، دعتني الغالية جميلة بوحيرد إلى بيتها، ثمّ نبّهتني بأنّها تسكن في الطابق الحادي عشر، وأنّهم وعدوا بتصليح المصعد هذه الأيّام!

يوم حاربت جميلة من أجل تحرير الجزائر من المستعمر، أكانت تتوقع أن يكون إصلاح المصعد هو المعركة الأكبر؟

الفصل السادس

«كلّ المأساة أنّه ما عاد بإمكاننا ضمّ الأموات».

احتفظتُ لك بدمعة متأخرة لكتابٍ كهذا.

أين يمكن للأحياء والأموات أن يتواعدوا خارج الكتب؟

لعلّ الروايات وُجدت كي نتمكّن من أن نروي للراحلين ما حدث بعدهم.

حيث أنت، أما زال لك فضول لمعرفة الأخبار؟ وهل يتذكّر الأموات أسماء أوطانهم في حياةٍ سابقة، وقد سقطت عنهم في الآخرة الهويّات، وانقسموا إلى أصحاب الجنة ونزلاء النار؟

إن كنتَ ما زلتَ تحبّ كتابة الرسائل، اكتب لي بابا، حتمًا حكاياتك أكثر تشويقًا من قصصي. سرّب لي بعض أسماء الأشرار الذين سيقوا هناك إلى النار، ليطمئن قلبي على أقدار الذين ما زالوا منهم على قيد الحياة، يحكمون العالم كما لو أنّهم خالدون. اكتب ما تشاء بابا، لا أحد يستطيع شيئًا ضدك، أنت محصّن بموتك. لقد حرّرك الموت من الخوف. لك صهيل الجياد عند انتهاء المعارك.

الآن، وبعدما لم يعد لديك قضيّة، أصبح لك من أوكسيجين الحرية ما لا تدري ما تفعل به. فهل يحتاج العربي إلى موته ليكون حرًّا؟

قبل أربعة عقود، قال يوسف ادريس «إنّ الأوكسيجين الموجود في العالم العربي لا يكفي كاتبًا واحـدًا». مـاذا كان سيقول اليوم، ومنسوبه في تناقص، حتّى لكأنّ الموتى استفردوا به.

لم أجرؤ على دخول غرفتك إلى أن اقترب موعد سفري. خفت ساديّة الأشياء في غيابك. ظلّ لها بعدك هيبتك ورائحتك، الرائحة اعتذار عطرٍ لم يحضر فناب عنه حضنٌ غير مرئي يُشمّ، فالرائحة هي آخر ما يتركه لنا الراحلون ليطيلوا حضورهم بيننا، إنّها طريقة أوجدوها لضمّنا، لأنّهم دومًا يغادرون على عجل. ليس قبرك الذي أبكاني، بل روحك التي كانت تحوم على سريرك، وبين روشتات أدويتك وأوراقك، وما تركته على طاولتك من كتب.. وساعتك تلك التي أمدّونا بها.

ساعتك!

هنا كان صباحك يبدأ بي. وكنت تقرأ عليّ أحيانًا مبتهجًا، قصيدة فيكتور هوغو الشهيرة عن ابنته التي كانت تزور غرفته كلّ صباح. كان متعلّقًا بها، وأحزنه إلى آخر حياته فراقها وموتها صغيرة. ما كنتُ أدري إلى أيّ حدّ كنتَ تتماهى معه.

Elle avait pris ce pli dans son âge enfantin
De venir dans ma chambre un peu chaque matin;
Je l'attendais ainsi qu'un rayon qu'on espère;
Elle entrait, et disait: Bonjour, mon petit père ;
Prenait ma plume, ouvrait mes livres, s'asseyait
Sur mon lit, dérangeait mes papiers, et riait,
Puis soudain s'en allait comme un oiseau qui passe.

منذ طفولتها، دأبت على زيارتي كلّ صباح،
أنتظرها كأنها من الشمس الشعاع
تدخل وتقول: «صباح الخير يا أبي الصغير»،
تأخذ ريشتي، تفتح كتبي، وتجلس على طرف السرير
تبعثر أوراقي وتضحك،
ثم ترحل فجأة، كعصفورٍ آن له أن يطير.

أبـي.. الآن أعي كم كان حبّك لي في الغياب موجعًا، فحتّى الأبوّة كانت بالنسبة إليك حالةً شاعريّة.

***

«أقيم في كتبي وصدّقني إنّني أدفع الإيجار غاليًا».

مالك حداد

في البدء، في مراهقة الكتابة، نُلبس الكلمات أجمل أثوابها، نتزيّن بالشِّعر والحكم لإغراء الأدب، نقضي ساعات أمام المرآة لتسريح ضفائر الكلمات، كما فلوبير وهو يكتب مدام بوفاري، مُهدرًا يومين في صقل جملة. كما جون إيريفينغ الذي قال متحسّرًا إنّه قضى نصف حياته في مراجعة ما كتب.

ثمّ نبلغ سنّ الرشد، ونشفى من الرغبة في إبهار الأدب، نبدأ في الكتابة لأنفسنا، وإبهار الحياة. لا وقت لنا، نكتب وكأنّ لا أحد سيقرؤنا. يحدث ذلك عندما لا نعود معنيّين بما يقوله أحد عنّا. لا أحد.

لنا عمر يتمنا، ولأنّـك ما عـدت هنا، كمخطوطات لم تنشر، ككتبٍ لن تكتب، كأمنياتٍ لم نجرؤ على تحقيقها، أحلم بكتاب لا يقرؤه سواك، لا تدري بأنّي من كَتبه. كتاب تمنّيتَ كتابته، وخانتك

الأمنيات فكتبتُه أنا عنك. لا أنتقي كلماته، لا أتعب في اختيار عنوانه، لا أفكّر في تقسيم فصوله، ولا فيما يمكن أن أكتبه أو أمحوه فيه.

رواية لا أختفي خلف أبطالها، ولا أخترع تفاصيل لأحداثها، لا تشغلني نهايتها، ولا أعيد مراجعتها أكثر من مرّة.

كتابٌ لك وحدك، أكتبه دفعة واحدة، دون الاستعانة بممحاة، فما كنتَ لتمحو شيئًا فيه. لن أوقّعه في معارض الكتاب، لن يسألني صحفي عن قصدي من كلّ جملة، ولن أترك فيه ما يصلح أن يكون حِكمًا أو مقولات، فقد أصبح الجميع صاحب فلسفة وحكمة بعد حياة عاشها في الإنترنت.

ما أريد أن أقوله لا يعني سواك. لأنّك ما عدت هنا.. ولأنّ الحياة تُعاش مرة واحدة.

الكتابة إعادة تدوير للخسارات، معالجة للذكريات الموجعة، بحيث يمكن إعادة استحضارها في كتاب، دون دموع.

فالأدب حزنٌ متأخّر، خيبة متأخرة، ندمٌ متأخر، شرحٌ متأخر، هو كلّ ما فاتنا ونستعيده بالكتابة عندما نعي أنّه لن يتكرّر.

هو ذاكرة، لكي ننجو منها، نُسكنها كتابًا، فينتهي بنا الأمر أن نغادر للإقامة معها في كتاب.

أن تكتب أي أن تتذكّر، أن تواظب على لملمة كلّ ما تبعثر حولك وفيك. وبدل التخلص من شظاياك، تسهر على تقديمها في شكلٍ مهذّب للآخرين.

قبل عقودٍ من الزمن، كان لهنري ميشو آلة لتقطيع الورق، يلقي إليها بكلّ قصيدة كتبها ولم يكن راضيًا عنها، فيفرمها كي لا يترك لها أية فرصة للعيش بعده.

ولأنّ لا نص كان يرضيه، ولا يعنيه أن يقرأه أحد، ترك خلفه كثيرًا من غبار القصائد. أمّا نزار فقال لي بأن أوّل ما يضعه في بيت يقيم فيه، جهاز للتصوير لاستنساخ كتاباته، خشية أن تضيع.

هل علينا أن نخاف ممّا كتبنا، أم أن نخاف عليه؟

وبعيدًا عن الكتابة، هل يجب أن نحتفظ بكلّ ذكرى، أم أن نتخلّص فورًا منها. أن ننجو من دكتاتورية الأشياء غير الضرورية، التي تتحكم فينا إلى الأبد، لأنّها يومًا كانت جزءًا من حياتنا؟

ما جدوى أن نقضي العمر في جمع ما سينتهي إلى غبار، والذي سنغادر يومًا دون أن تتمكّن من لملمته، ففي أحسن الحالات لا يترك لنا الموت من وقت سوى لجمع الأهمّ في حقيبة صغيرة، إن استطعنا ذلك!

تمامًا كما جمعت كلّ ما كنت تراه الأهمّ في حقيبة صغيرة أخفيتها في خزانتك.

في أوكرانيا، صاح منادٍ بالسكان عبر المكبرات الصّوتية «أمامكم خمس عشرة دقيقة قبل أن ننسف المبنى»! وكان هذا، في زمن الحرب، ضربٌ من الكرم المفخّخ بمزيد من الرعب.

تأمّلت وقع هذا الإنذار على أيّ مخلوق كان. ما الذي يمكنك إنقاذه في خمس عشرة دقيقة والهرب، ستقضي دقائق منها تائهًا بين الغرف، وأخرى راكضًا في السلالم حسب علوّ طابقك، ودقائق في النظر للسّاعة للتأكّد من دقّة عقارب الموت الممسكة بالوقت، وستتذكر حتمًا أنّك نسيت شيئًا هامًا ستتردّد في العودة لإحضاره. ما الذي تأخذه معك ممّا جمعتَه على مدى عمر؟ كيف تهرّب عمرًا في كيس أو في حقيبة يد؟

ما هو الأهمّ في سلّم الأولويات؟ عليك أن تجيب باكرًا على هذا السؤال، لتنجو من تهديد الدقائق التي، وإن طالت، ستضعك يومًا أمام الخيار الأصعب.

سُئل أندريه مالرو «ماذا تنقذ إن شبّتِ النار في بيتك؟»، فردّ بصيغة شاعرية: «أنقذ النار»!

أكان يجهل بأنّ النار تحرق كلّ من يحاول إنقاذها، أو يجازف باستعادة شيءٍ من بين فكّيها؟

كما التنظيف الذي يسبق الشتاء، فنُخرج الأثاث والسجّاد ونقوم بتهوية البيت، لا بدّ في شتاء العمر من فتح مرآب الماضي وتهوية الذاكرة. علينا أن نراجع ما جمعْنا في حياتنا من كراكيب، أن ننقذ أشياء، ونلقي بأخرى إلى المحرقة كي لا تعيش بعدنا.

أبي..

إنّه زمن الأشياء الأخيرة، التي عليّ لملمتها من بعدك. الأشياء المتأخرة التي على الأبناء جمعها في غياب من كانوا لهم كلّ شيء.

لا نجاة من هذا الألم، جميعنا سنفتح يومًا خزائن الرّاحلين، كما سيفتح أبناؤنا خزائننا، سنفرغ جواريرهم من كراكيب الذاكرة، ونحن نبحث بوجل في ما خبّؤوه لسنوات، كما لو كانوا سيعيشون إلى الأزل. تمامًا كما سيعجَب أبناؤنا بما جمعناه من أشياء على مدى عمر، برغم علمنا أنّها ستعيش بعدنا، وقد تنتهي لدى أعدائنا. سنبكي لثيابٍ معلّقة لم تغادرها رائحتهم، لأحذيتهم التي احتفظت بتراب آخر خطاهم، ومقتنياتهم وهداياهم التي لها ذكرى لا ندري بها. سنقع على أسرارهم الصغيرة أو الكبيرة. فكلّ راحل يترك خلفه أشياء احتفظ بها إلى آخر رمق من حياته، ليطيل عمرها... أو عمره. أشياء هي ثمينة بالنسبة له وحده.

كلّ الأشياء خائنة، كلّ ما في حوزتنا لا وفاء له.
كيف لم تتوقّع غدر الحبر والأوراق إذن؟

في الواقع، كنتَ فائق التنظيم، كلّ وثائقك ومراسلاتك، وروشتات الأطباء، وبيانات الأسلحة التي كنت تسلّمها للمجاهدين في تونس، وجواز سفرك الدبلوماسي الليبي الذي كنت تتنقّل به قبل الاستقلال، وبطاقة انتسابك لمنظّمة حقوق الإنسان، حتى فواتيرك التي تعود لسنوات إقامتنا في دار الباي بحمّام الأنف، كلّها تركتها في ملفّات منفصلة في حقيبة يدٍ جلدية، تلك التي كانت تسمّى على أيّامك «حقيبة دبلوماسية». لم تترك شيئًا خلفك مبعثرًا سوى في أدراج ذاكرتي، وخزائن الروح.

لكنّك تركت لي أيضًا مفاجأة، أو لعلّك لم تتركها لأحد. فقط لم يطاوعك قلبك على التخلّص منها. بين ملفاتك كان يختبئ أحد الكرّاسين اللذين أحضرتهما لك إلى المستشفى قبل عدّة سنوات.
كان مشابهًا تمامًا لذاك الذي سجّلت فيه آراء ومذكرات سياسية وكنت تخفيه تحت فراشك في المستشفى، وأعطيتني إيّاه يومًا لأخبّئه في غرفتي أعلى خزانتي، لثقتك أنّ لا أحد سيتوقع وجوده هناك.
لم أسألك ماذا فعلت بالثاني، لكنّني أذكر أنّ طبيبك الذي صادفته يومًا في غرفتك، قال لي:
– Votre père est poète. Le saviez-vous?
(أتعلمين يا آنستي بأنّ والدك شاعر؟).
أسعدك أن تكون انتزعتَ منه في حضرتي ذلك الاعتراف.
لم أعرف كيف أردّ.
ظننته يجاملك. أوَليست مهمة طبيب الأمراض النفسية رفع معنويات مريضه؟

أنت من أجبته يومها بسعادة:

– Merci docteur.

الحقيقة عثرت عليها في حقيبتك. حيث كان ذلك الكرّاس، الذي تعمّدتَ تركه في متناول الطبيب، ومرّ به قلمه، معلّقًا ببضع كلمات نهاية كلّ رسالة حب أو قصيدة عاطفية، كما كنت تفعل مع تلاميذك لتشجيعهم، مع الفرق أنّ تعليقاته كانت باللون الأزرق لا الأحمر، وأنّها كانت إعجابًا أو تعاطفًا معك، مستشهدًا بدوره أحيانًا ببيتٍ شعري. فقد نجحتَ في استدراجه لساحتك، غير مدركٍ أيّ مقلب نصبتَه له!

أتراه صدّقك حقًا؟

أيمكنك أن تتذاكى على طبيب نفسيّ، يعرف الكثير عن عوالم النفس البشرية، ويعلم أنّ لكلّ مريض مراوغاته في إخفاء حقيقة ما؟ هل صدّقت أنّك ضحكتَ عليه، وهو يدرك تمامًا أنّ الحبّ لا يمكن أن يوصل رجلًا شغل مهامك إلى المستشفى؟ إنّه يطالع الجرائد أيضًا ويدري بكلّ ما يحدث. لعلّه أُعجب بكذبتك، وانتهى به الأمر أن أحبّ ما كتبت.

المفاجأة، وجود ثلاث رسائل كتبها إليك من فرنسا، ردًّا على رسائلك، ويبدي فيها سعادته بشفائك، وعودتك إلى الحياة الطبيعية. وكان قد غادر المستشفى، كما غادرته أنت أيضًا، بعد أن شفيت تمامًا من دون أن تتماثل ذاكرتك للشفاء. تلك الرسائل الثلاث، تدلّ بأنّ مودة ما ولدت بينكما، وأنّك كنت «حالة» استوقفته وأولاها اهتمامًا خاصًّا. وربّما مريض انتهى به الأمر أن صادقه، برغم كلّ التناقضات التي تفصله عنه، أو من الأرجح بسببها. فقد كان شيءٌ ما، وإعجابٌ متبادل يجذب أحدكما إلى الآخر.

الجزء الثالث

الفصل الأوّل

«إنّ الكلمات التي لم تُقَلْ هي التي تجعل التوابيت ثقيلة».

تاليران

قال لك الدكتور يومًا: «يعتقد الهنود بأنّ الناس يمرضون بسبب رغباتهم التي لم تتحقق. يحدث هذا كثيرًا. الحبّ في حدّ ذاته جنون مؤقت. لكن عليك ألّا تستسلم للمشاعر السلبيّة، صدّقني، لا شيء يستحق الحزن».

ابتسمتَ في سرّك. ماذا يعرف عن رغباتك التي لم تتحقّق؟ إن كان ثمّة مَن يمرض لأنّ أحلامه لم تتحقّق، فعندنا من يموت لأنّ أحلامه تحقّقت.

نجحتَ في جعل الطبيب يتعاطف معك.

كيف لا، ولم يكن بين مرضاه من «مريض حبّ» سواك!

كنتَ متفوّقًا في حديثك عن صدمة الفراق، إلى درجة خادعة وربّما صادقة، وأنت تستعين بأبيات لشعراء الرومانسية الفرنسية، الذين كان الحبّ لديهم حالة مرضية تتغذى من الحرمان، وتعيش على الحنين والكآبة.

في الواقع، أخذتَ بنصيحته، لقناعتك بأنّ في الكتابة شفاؤك. لكنّك شرعتَ في الكتابة في كرّاسين، أحدهما كنت تتركه كمصيدة في متناوله على طاولتك، لعلمك أنّه سيأخذه للاطلاع عليه، وآخر كنت تخفيه تحت فرشتك، توثّق فيه أمورًا سياسية، أوصلتك فظاعتها حيث أنت، ولا تريد عن غيرة وطنية أن يكتشفها فيشمت بك، ولا أن يقع الكرّاس في يد أحد الممرضين العسكريين فيشي بك. الحذر صفة تمكنت منك منذ سنوات الحرب، أمّا التوجس فهو من أعراض الاستقلال. كانت الجزائر تدخل زمن زرع الشك، الكلّ يشكّ في الكلّ، ولا أحد يدري على من سيكون الدور، ففي مواسم قطاف النصر، تجزّ السنابل من أعناقها!

منك، تعلّمتُ أن تكون لحياتي نسختان، واحدة في متناول الآخرين، وثانية وحدي أدري بها. واحدة أنشرها في كتاب، وأخرى أهرّب مسوداتها. تدريجيًّا. غدت الكتابة حقيبة بجيوب سريّة، لتهريب أفكاري الأخطر خلف واجهة عاطفية. ما من أمر حدّثتني عنه، إلّا واعتبرته وصيّة.

قبل عقدين من الزمن، أخبرني أسيرٌ فلسطيني من سجن عسقلان، أنّهم نجحوا في إدخال نسخة من «ذاكرة الجسد» إلى السجن، وأنّهم يتناوبون على قراءتها. أذكر قوله «أنت التاسعة في كلّ زنزانة» صحّحت له «بل أنا العاشرة، فالتاسع كان دومًا أبي».

في كل رواية كتبتُها، رواية أخرى، لم يحدث لرقيب أن فكّ شيفرتها.

ذلك أنّنا نحتاج إلى تمويه الحقيقة لإنقاذها، وإلى اختراع أكاذيب جميلة في الحبّ، إلى حدّ لا يعود حتى بإمكان قلبنا تكذيبها.

أمـام «دفتـر الحـبّ» شعـرت برهبة حـضورك، وارتـبـاك من تتجسّس على أسرار أبيها ونبضاته، بعد أن توقّف قلبه. هل كنت لتأذن لي بذلك؟

لـمـاذا إذن لـم تسلّمني هـذا الدفتـر كمـا سلّمتني «دفتـر السياسة»؟ ولا قرأتَ لي منه شيئًا، كعادتك في أن تقرأ لي الجديد من كتاباتك؟

شعرت برهبة وجودك وأنا أقرأ بوحك العاطفي. قرّرت أن أطالعه على أنّه نسختك المزوّرة. كنت أحتاج أن أقنع نفسي بذلك لكي أرتاح.

لعلّك تكذب، ما دمت تكتب بالفرنسية، لغة ليس لك نحوها أي التزام وجداني حسب بول سيلان القائل «فقط في اللّغة الأمّ يمكن أن تقال الحقيقة، الشاعر يكذب حين يستخدم لغة أجنبية»، فليكن. «أجمل الشعر أكذبه»، تقول العرب. لكنّك لم تسمع بهذا القول ولا قرأت شيئًا من الشعر العربي.

أنت لم تصادق سوى فيكتور هوغو، وما كنت تدري أنّ حبيبته جولييت درويـه كتبت له 20 ألـف رسالة ردًّا على ما يعادلها من رسائل كان هو مرسلها، على مدى 50 سنة، كان كلاهما يكتب للآخر صفحتين إلى أربع كل يوم، يتقاسمان فيها تفاصيل حياتهما لأنّهما لم يتمكّنا من الزواج بحكم تقاليد المجتمع الفرنسي التي تمنع زواج النبلاء من الممثلات. كانت رسائلها إليه تبدأ جميعها بـ«عزيزي توتو» ويقال إنّها أرقّ ما كتب من رسائل الحبّ في الأدب الفرنسي!

تـصـوّر، 20 ألـف رسـالـة إلـى «تـوتـو» كـانـت واحــدة منها تكفي لإسعـادك، وأربـع صفحات يوميًّا كـانـت تكفي منها كلمة واحدة لشفائك.

لكن، فيكتور هوغو نفسه القائل «بعد كلمة أحبّك لا شيء ممّا يقال يكون له من معنى»، ما كان ليتنازل لك عن صفحة من فائض رسائل جولييت..

في الواقع لا عاشق يكتفي أو يشبع من رسائل الحبّ.

تصوّر أنّ رسائل بلزاك إلى عشيقته الأساسية مدام هنسكا وحدها، والتي ستصبح زوجته في نهاية حياته، تتجاوز الألف صفحة!

وأنّ الرئيس فرانسوا ميتيران كتب على مدى 33 سنة إلى «آن بينجو» المرأة التي أحبّها سرًّا، ما يقارب 1300 رسالة، حتى أنّها لم تجد طريقة للاحتفاظ بها، إلّا وضعها مرتّبة بعناية في عشرات علب الأحذية.

وأنّ سارتر وسيمون دو بوفوار تبادلا مئات الرسائل، طول بعضها 20 صفحة وحدث أن كان يستلم منها ثلاث رسائل في يوم واحد.

كم كنت ستحزن لو دريت بهذا!

أيكون الحبّ الصادق قد مات يوم توقفنا عن كتابة الرسائل باليد، بكلّ ما في ذلك من جهدٍ وشغف؟

كان البريد في زمانك هو الرئة الأخرى للبشرية.

كما الشّهيق والزّفير، كان إرسال الرسائل وتلقّيها هو أوكسيجين الحياة بالنسبة لملايين البشر، الذين تباعدهم القارات أو حتى المدن. كما لا تقاوم فراشة جاذبية الضوء، لا يستطيع عاشق إلّا الوقوع محترقًا في موقد الكلمات. كان ساعي البريد هو الأقرب إلى قلوب الجميع، إنّه الزائر المنتظر، بزيّه الأزرق المميّز وقبّعته، وزوّادته الجلدية التي يُخرج منها كساحرٍ مفاجآته.

اكتشفتُ أنّ لكلّ الكائنات في هذا الكون صندوق بريد، ورسائل مشفّرة لا ندري بها، فهي أذكى من أن تبوح بها، أو تكتبها.

إنّها تحمي أسرارها، وتكلّف غيرها بنقلها. وحده الإنسان مذ تعلّم النطق ومارس الكتابة غدا مفضوحًا. أسرار الإنسان يثقل حملها، أمّا رسائل الكائنات الأخرى، فتحملها الرّيح والأمواج والنّسيم والغيوم والغبار، كلّها تعمل سعاة بريد.

خذ الأشجار مثلًا، إنّها تتبادل الرسائل في ما بينها، توشوش أسرارًا وتنقل أخبارًا، تتواعد، وتتعانق جذورها سرًّا تحت الأرض ولا يدري بها أحد. لها بريد موسمي تأتيها به الشّمس صيفًا وآخر تحمله لها الريح خريفًا، إيذانًا بقدوم حبيبها المطر، فتحذّرها وتبشّرها، وتسعدها حينًا وحينًا تبكيها.

أتكون حتى النباتات أكثر حظًّا منك؟ لا بريد لك إلّا نشرة «نوفوستي» التي لم تتوقف عن الوصول إلى صندوقك إلّا سنة 1991 عند سقوط حائط برلين. على مدى ربع قرن تغيّر حكام الجزائر، وتغيّر اسم شارعنا وتغيّر منصبك، وظلّت النشرة تصلك غير معنيّة بأقدارك.

لكلّ بريد وجهة أخرى غير المكتوبة على الظَّرف، يختار عنوانها ساعي القدر.

كان العشاق على أيّامك يعيشون من أجل الرسائل، إمّا منهمكين في كتابة رسالة، أو قلقين في انتظارها. الكلّ شغوفٌ بكتابة رسائل الحبّ، حبًّا في الحبّ، يجرّب نفسه في وصف الأشواق، والإبداع في الحرمان. فقد كانت المراسلات فنًّا أدبيًّا في حدّ ذاته، وجد العشاق فيه ساحة مثالية للمزايدة في الاستعراض العشقي والمهارات الأدبية، بين من يكتب بدموعه، ومن يكتب بدمه، ومن يكتب الرسالة الأطول، أمّا من لا يجد من يكتب إليه، فيراسل نفسه.

كيف لا تراودك فكرة مجنونة كهذه، وأنت نزيل مصحّ للأمراض العقلية؟ أنت من أخبرتني بقصّة أندريه جيد التي ذاعت على أيامك،

ساخرًا من رجل في كامل قواه العقلية بل وحاصل على نوبل للآداب، ينتظر يوميًا أن يأتيه ساعي البريد ببرقية أرسلها لنفسه بالأمس!

ماذا لو أنّ الرسائل التي كتبتها لتلك الحبيبة، كتبتها في الواقع لنفسك، أو لعلّها كانت فرصتك لتستعرض على الطبيب موهبتك الأدبية.

العزلة والمرض والفقدان، جعلوا من ذلك الطبيب «العدو» قارئًا صديقًا. القراءة تلطّف الأجواء، وتقرّب حتى الأعداء، وتفتح مجالًا لنقاشات كنت متحمّسًا لها، لأنّك تتفوّق غالبًا فيها كمتحدث محترف. كان يكفيك قارئ واحد لتسعد، وتستعيد عافيتك، وكنت أنا أصغر من أن أكون ذلك القارئ، أو لعلّ الحياء ما كان يمنعك. لكن، ما كتبته قبل عشرين سنة وأخفيته عنا، وقعتُ عليه، بعد مغادرتك بأيّام، وكان ذلك أكثر ما آلمني في ما تركتَ. ذلك أنّك في الواقع لم تترك لنا شيئًا. فما كنتَ تريد أن تملك ولا أن تورّث. لذلك اعتبرتُ رسائلك العاطفية نصيبي من إرث الكلمات.

الفصل الثاني

«وحلمت أنّ ما اعتبرته حقيقة لم يكن سوى حلم، والحلم كان حقيقة».

تشيكوف

الرسالة الأولى

مساء الخير على كلّ أشيائك، على غرفتك في البلاد البعيدة، حيث حدود روحي، على ثوبك الصوفي حين تخلعينه لارتداء منامتك، على غفوة ابتسامتك عندما أخطر ببالك قبل النوم. مساء الخير على أمسيات لا أقاسمك برنامجها، على حذائك الشتوي ذاك الذي يصحبك حيث لا أستطيع مرافقتك. على شارعك، على حيّك العماليّ، على درج شاهق اعتادَ وقع خطاك لأنّ لا مصعد في بنايتك، على والدة تنتظر عودتك.

مساء الخير على صندوق بريدك. ذلك الذي أزوره كلّ مساء، وأفتحه سرًّا كي أتأكّد من أنّ الرسائل التي لم أرسلها لك قد وصلت. فلا تسأليني لمَ لا أكتب إليك!

الرسالة الثانية

أراقب لحيتي تنمو، أقيس بها اللازمن. كلّ الوقت الذي لم تكوني فيه، وعشته معلّقًا إلى مصل ذكراك. افتقدتك كثيرًا وأخشى أن أكون فقدتك. فالتعلّق بداية كلّ خسارة.

متربعًا على عرش الخسارات، جالسًا على سرير صغير أكتب إليك. لا طاولة للكتابة هنا، لذا لم أكفّ عن الكتابة إليك في ذهني. الحنين هذيان صامت. هذيان متواصل، إدمان للألم حدّ الافتتان.

الحياة سلسلة فقدان قد نفقد في آخرها صوابنا، وتلك نعمة.

لا تقولي مجدّدًا أنّك تحبّينني بجنون، سأتفوّق عليك، فأنت لا تتوقّعين من أين أكتب إليك، فقط اخلعي عقلك حين تزورينني حيث أنا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الرسالة الثالثة

في غيابك الصاعق، تعبرني خيالات كالبرق تضيء في الجزء من الثانية وجداني... أهي هلوسات أم أنت هنا حقًّا؟

نتاليا، أيّتها الزهرة التي تفتّحت في جمهوريات الخوف، وتشكّلت في المصانع الاشتراكية للوشاية، أَحَجزوا عطرك وبريدك إليّ... هناك حيث حتى شراء آلة راقنة شبهة؟

كنت تقولين وأنا أحاذر الظهور معك «الحبّ هو أن تضع حياتك في خطر»، ولا تدرين بأنّني رجل المخاطر... وماذا عنك؟

هل تصلك رسائلي التي لا أرسلها؟ وهل لا زالت لك القدرة على فكّ شيفرة صمتي ورفع تقارير لقلبك بما لم أقله، بحكم عادتك في التجسّس على الشفاه؟ لم أصدّق يوما احتمال أن يكون قد تمّ تجنيدك لهذا الهدف.

الرسالة الرابعة

ما عادت رسائلك تسألني إن كنت أحبك. ألأنّني لم أقلها لك يومًا لم يسمعها قلبك؟ بعض الكلام أغلى من أن يقال، هكذا في أعراف قومي، لا بوح عشقي للرجال. بالصمت نوصل أكثر مما نودّ قوله. طمئنيني بأنّك تسمعين ما أوشوشك مساءً في وحدتي.

كلّ تلك القواميس التي جمعتها طوال عمري، لم تسعفني في قول كلمة «أحبّك» فقولي عنّي «إنّه يحبّني».

الرسالة الخامسة

لم أخرجك من مخيلتي يومًا، أكتب لك في ذهني رسائل لا تاريخ لها، أحبّك فيها تارة، وأخرى أتشاجر فيها معك. أفسّر احتمالات صمتك. لا أحد يقرع بابي ليأتيني بخبر منك. حيث أنت ما الذي يحدث؟ أخبريني ما الذي يحدث!

من ترافقين الآن إلى معالم سياحية تحفظينها عن ظهر قلب، لمن تهدين ضحكتك، شرحك المطوّل عندما لا أكون أنا «الرفيق» الزّائر؟

كان أجمل عندما كنت مرشدك السياحي في الجزائر. لم تفارقك دهشة الانبهار، ورغبةٌ في البقاء معي. كانت تلك أوّل مرة تغادرين فيها يوغسلافيا، وكلّ شيء كان جميلًا في عينيك، كطفلة تكتشف العالم دفعة واحدة، كان قلبك متمسّكًا بذراعي، وكنتُ أنبّهك بأنّ تلك السعادة البسيطة غير ممكنة. قلتِ «ماذا سيغيّر لو بقيت هنا معك... مثل آلاف المتعاونين من أوروبا الشرقية المقيمين لديكم؟ أبقني عندك».

لم أخبرك يا «شبهتي الشقراء» بكلّ ما فعلته لأدعوك بذريعة رسمية. لكنّني لم أسعَ للعثور لك على وظيفة كما كنت تتمنّين. ألهذا أنت عاتبة عليّ ولا تكتبين لي؟ في الواقع، لم أشأ ذلك، خفت من عواقب قربك. تدرين معنى أن نعيش معًا في المدينة نفسها؟

أندم لأنّني ما استبقيتك.

الآن وقد تحرّرت من المسؤوليات، والوشايات، وأحكام الآخرين، بإمكاني المضيّ إلى الحبّ طليقًا. قولي إنّك ستجيئين، لأتأبّط ذراعك وأرتمي في أحضان الحياة.

الرسالة السادسة

نتاليا...

الوقت هاربٌ بنا وهاربٌ منّا.

إنّه يصيبني بالذعر، يبدو لي بطيئًا حينًا، وأحيانًا سريعًا. أخشى أن يغدر بنا، ولا نلتقي أبدًا، بإمكاننا في البعد محاربة كلّ شيء عداه، فلا تكوني معه عليّ. أواجه الوقت وحدي، الوقت المفتوح على مزيد من الوقت. ما زالت في معصمي ساعة، لم يجرّدوني منها، لكن جرّدوني منك، وكنت لي الوقت.

لعلّك لا تدرين بأنّهم في السجن يمنعون عن المساجين وضع الساعة. هل تتصوّرين شقاء من يعيش حياة لا وقت فيها.

لستُ في السجن اطمئنّي. لكن كثيرًا ما أشعر حيث أنا، بأنّي لا أختلف عن السجناء. ألا أعتقتني.

الرسالة السابعة

اشتياقي أصابه الوهن، داسه الزمن وصمتك. في غيابك غدت الذّكريات حاضري، أجترّها مذ تلك اللحظة التي صافحتُ روحك، واستبقيتُ

يدك كأنّني أستعيدها بعد ضياع، ورحت أبحث عن أسباب واهية لمواعدتك. ها أنا اليوم، أبحث عن أسباب واهية لصمتك، فليس للعاشق من مواسٍ غير وهمه.

الحنين إليك يفترسني. قهقهات الوقت الساخر العابث بدقائق الحياة تدوّي في غرفتي الخالية من أية بهجة. توقّفت عن عدّ الزمن الذي لم نلتق فيه. أرى الساعات والأيّام والأشهر تمرّ غير عابئة بنا.

الوقت غدا عقارب لا تتوقّف عن الدوران لتلسعني... سارقة منّي مشاريع فرحتي.

نادم أنا، أأكون أخطأت؟ ناصرت كلّ القضايا العادلة في العالم، ولم أعدل حين خنت القضية الأكبر: الحياة.

أحتاجك لأحيا.

أريد أن أعيش عمري بطيشه وأخطائه. أن أكون رجلًا لا بطلًا.

بإمكاني أن أعلن هذا على الملأ، إن كان هذا يسعدك. المجنون لا سرّ له.

تعالي واختبريني.

الرسالة الثامنة

نتاليا يا فراشتي البيضاء...

ها قد عاد ربيعٌ آخر من دونك. أيّ مروج سرقتك منّي؟

على أيّ أزهار تحطّين؟

أين تكونين عندما تزهر أجراس النّرجس في أوّل ماي ولا أراك؟

أم لديك تقويم عاطفيّ غير تقويمي؟ حاذري صائدي الفراشات.

أغار على غبار جناحيك من شباكهم.

الرسالة التاسعة

ما زلت أخوض معركة الشّوق برأس مرفوع. لكن، بعد نهار من المكابرة يهزمني الحنين إليك ليلًا. ألأنّني أنام مستلقيًا على ظهري، غدوتِ سقف أحلامي؟

لماذا تحوّل حبّك إلى حزن كبير واستعادة دائمة لتلك الفرحة الطارئة العابرة كحلم. نحن لا نشقى سوى بما سبق أن سعدنا به، أكانت سعادتي المفرطة كمينًا نصبه الحزن لي؟

أكتبي لي. لو تدرين ما بإمكان رسالة منك أن تفعل بي.

المخلص دومًا...

CHERI(F)

الفصل الثالث

«كلّ عشق قدره الموت. إنّه يموت أو يميت».

كاتب ياسين

قضيت أيّامًا تحت وقع ما قرأت، أتساءل ما هي نسبة الحقيقة فيما كتبتَه؟

يا لها من فكرة عبقرية، أن تعطي نصًّا كاذبًا للطبيب. في جميع الحالات، أن تكتب أي أن تكذب. أنت تكذب مذ اللحظة التي تبدأ في اختيار كلماتك لأنّها ستنتهي عند قارئ ولو واحد.

طويلًا بعد رحيلك لم يغادرني ذلك السؤال الذي أنجب لي أسئلة أخرى: هل كنت صادقًا مع الحبّ أم كاذبًا مع الطب؟

ورسائلك تلك أكانت حقًّا تمويهية، أم اعترافات عشقية، بكلّ حرقة الفقدان، وهذيان العزلة والمرض؟

وإن كان كذلك، لماذا لم ترسلها وقد كان لك متسع من الوقت لذلك، مذ أن غادرت المستشفى قبل سنوات؟

أمكابرة منك أبيت إرسالها إلى حبيبة انتهى بك الأمر أن اقتنعتْ بأنّها نسيتك؟

أم لعلّك أعدتَ نسخها على ورق للرسائل وبعثتها إليها. وإن كان ذلك، أين الردّ، فلستَ ممّن لا يحتفظون بمراسلاتهم؟

الطّريف، أنّك كنت تشتبه في أن تكون الرسائل قد تمّ حجزها من مصدرها في يوغسلافيا، نظرًا للنظام البوليسي هناك، الذي يتجسّس على كلّ بريد له علاقة بالخارج، ولم تكن تتوقع أنّ لك في البيت جهاز KGB كاملًا متمثّلًا في أمّي.

كم من رسالة تراها مزّقتْ؟ وكم من أشواق وتساؤلات ودموع تكون قد ألقت بها، مع بقايا الأقمشة، في سلة المهملات، بجوار ماكينة خياطتها.

يا للهدر، كلّ ما كتبته أنت لتلك المرأة لم تدرِ هي به.. وانتهى عند الطبيب!

وما كتبتْه هي لك، ما دريت أنت به.. وانتهى عند أمّي!

ما من قصة حبّ إلّا وكان الظلم طرفًا فيها بتسميات مختلفة. ذلك أنّ كلّ قصص الحب الكبرى، تقوم على مستحيلٍ ظالمٍ ما.

لكن، هل كانت قصتك تلك كبيرة حقًّا، أم أنت من ضخّمها لأنّك أردتها كذلك؟ لرفضك قصص الحبّ الصغيرة التي تصغّرك، كنت تريد قصّة لا تشبه قصص حبّ الأبطال الخيالية في الروايات، بل قصص الكُتّاب أنفسهم: بالزاك، سانت إيكزوبيري، فيكتور هوغو، آراغون. كنت تريد حبيباتهم لا رواياتهم ولا أشعارهم!

لكنّ الزمن خانك. كنت من رجال اللّحظات الجميلة، لا العمر الجميل. العمر أخذته منك الثورة، وكان عليك أن تعيش اللحظات المسروقة في اشتعالها الأقصى.

لعلّ أصدق الرسائل تلك التي كُتبت ولم ترسل، وأعمقها أثرًا، هي تلك التي تصف ما لم يكن.

لم أصـدّق ما تشكوه من وجع الحبّ. في كلّ ما كتبته من رسائل كنتَ العاشق الذي لا يريد التّماثل للشّفاء من مرضه. فأنت شغوف بالحالة العشقية. تؤمن كغالبية جيلك بموت الحبّ إن اقترب العاشق أكثر ممّا يجب. من تلك الطائفة التي أهدتنا دموع لامارتين أمام بحيرة بورجيه، وأسى جاك بريفير وهو يرى أوراق الشّجر الميتة تجمع بالمجرفة كما تجمع ذكريات العشاق بعد الفراق.

العشق انصهار، والانصهار يحتاج إلى درجة عالية من الحرارة، أي من الألم.

أنت من اخترت لجنونك أن تتألّم، لاعتقادك بأنّ في الألم كرامة.

حتى الجنون كان أجمل في الماضي، وهذيان العشّاق كان أكثر صدقًا، وكان المتلقّي يصدّق كلمتي «المُخلص دومًا» التي تُختم بها الرسائل. فقد كان الجميع يثق في أبديّة المشاعر، ومصداقية ما تحمله من بوح، فقد كانت الرسائل موجهة لشخصٍ واحد، لا منمّقة بنيّة نشرها في الفيسبوك للفوز بإعجاب الغرباء.

***

«هل أنت شيوعي يا سيد كونديرا؟

لا، أنا روائي

هل أنت منشقّ؟

لا، أنا روائي

هل تنتمي إلى اليسار أو إلى اليمين؟

لا هذا ولا ذاك أنا روائي»

(الوصايا المغدورة) ميلان كونديرا

لن أعرف يومًا الحقيقة. لكن بين الفينة والأخرى كان ينتابني فضولٌ روائي لاكتشاف ما فاتني من فصول قصّتك تلك.

وحدث أن راودتني فكرة مجنونة.

تمنّيت البحث عن تلك المرأة، أو لو أنّها من تجدني أثناء بحثها يومًا عن اسمك، تمامًا كما عثر عليّ قدامى تلاميذك في تونس بفضل الفيسبوك، وطلبوا أن أحضر في أقرب وقت، لإطلاق اسمك على الصفّ الذي كنت تدرّس فيه على مدى سنوات في مدرسة الزعيم، فأغلبهم كان قد تجاوز الستين من العمر، وبعضهم كان قد رحل.

هل كنت تتوقع أن أزور يومًا مدرستك؟ أن أجتاز ذلك الباب الذي طالما اصطفّ أمامه تلاميذك على مرآى منك، قبل دخولهم الصف، وتخرَّج منه البعض على أيام بورقيبة سياسيين وكوادر في الدولة؟

قيل لي أنّ لا شيء تغيّر في أثاث الصف. كان إحساسًا غريبًا، أن أجلس على مقعدك أمام تلاميذ لا يفهمون أن أكون أخذتُ مكان معلّمهم، لأرى ما كنت تراه من مكانك على مدى سنوات. تذكّرت مشهدًا رسخ في ذاكرتي من فيلم «حلقة الشعراء الذين اختفوا» (Dead Poet Society).

كان فيك شيء من أطوار بطل ذلك الفيلم، كما حين طلب من تلاميذه أن يمزقوا مقدّمة كتاب عن الشعر، لأنّ تعريف الشعر مهمة الشعراء لا النقاد، وأن يتمردوا على مواقعهم، ويصعدوا على الطاولات ليروا العالم بكبرياء من فوق، حتى لا يعتادوا الانحناء، ومواصلة الانكباب على مكاتبهم الصغيرة مدى العمر.

أحد تلاميذك القدامى، وكان ضابطًا متقاعدًا في الأمن، عندما حدثته عن انزعاجي من مخبرين في زيّ مدني كانوا يلاحقونني في كلّ تنقلاتي، فاجأني بانتقاده للقبضة البوليسية لنظام بن علي، متوقّعًا ألّا يستمر الوضع على هذا النحو. خفت عليه من شجاعته،

أجابني «تعلّمت من سِيدي ألّا أقبل الظلم». كان يملك شجاعة آخر العمر، وعرفان المسنّين، وما زال يسمّيك «سِيدي» كعادة التلاميذ في ذلك الزمن في مناداة معلّمهم. لعلّه أحد الذين أقنعتهم بالصعود فوق الطاولة، وتمامًا كما في الفيلم، كان يمكن لدروسك أن تتسبّب في هلاكه.

لا شيء تغيّر في صفّك ذاك منذ خمسينيات القرن الماضي. لذا، كما كنت تفعل، كتبتُ بالطباشير على السبّورة تاريخ اليوم، وعام 1958 الذي التحقتَ فيه بالمدرسة، غير أنّي عجزتُ عن وضع عنوان لدرس ذلك اليوم.

نظرتُ من النافذة التي قيل لي إنّك كنت تنظر منها طويلًا أثناء إلقاء الإملاء، وحاولت أن أتصوّر أين كان يمضي تفكيرك وقتها بين جملة وأخرى. ذهبتُ بعيدًا في خيالي.

في صفّك، ما كنت ابنتك. كنت روائية.

***

«أقوى وعد يقال بأقلّ الكلمات».

جورج شابمان

بدا لي البحث عن تلك المرأة مثيرًا، كمشروع رواية بكلّ مفاجآتها وألغازها. الحياة فيلم تتولى فيه المصادفة كتابة السيناريو، ولأنّ على مدى الحياة حدثت لي ككاتبة مصادفات مذهلة، أصبحت أتوقّع كلّ المفاجآت، كالوقوع على تعليق في صفحتي على الفيسبوك مثلًا، تسألني فيه امرأة مسنّة عن قرابتي بك.

كنت سأخبرها أنّك رحلت، وأنّك تعذّبت في زمنٍ ما بسببها، وأنّك كثيرًا ما ذكرتَها، حتى أنّك كنت أحيانًا تنادي اسمها، الذي

كان يفلت من لسانك دون تفكير فأسمعك تقول بالفرنسية Natalia ma fille «نتاليا يا بنتي». وأعجب كيف غدت هذه المرأة الغريبة ابنتك. لم أغر من حبّك لها، لكن، أصبحت لي مقاييس جديدة في الحبّ. بعدها أدركتُ بأنّ الأبوّة تتويج لأسمى معاني الرجولة في الحبّ. من لم يحبّ امرأة بأبوّته، لم يحبّها حقًّا.

كنت سأسألها نيابة عنك، هل تزوّجت، وهل كانت الحياة أكثر كرمًا معها، فقد كان وضعها المادي يشغلك كما يبدو من رسائلك، ولعلّك قدّمت لها مساعدة ما، كما أتوقّع.

كنتُ من الجنون لأزور بلادها كي ألتقي بها. لكن لا عنوان لها ولا صورة بقيت في حوزتك. وفي جميع الحالات حتمًا هي غيّرت عنوانها، فحتى يوغسلافيا غيّرت اسمها وانقسمت على نفسها، ولعلّ تلك المرأة ماتت في إحدى الحروب التي خاضها اليوغسلافيّون بوحشية ضدّ بعضهم البعض.

بعضُ ما كتبتَه لها في ذلك الدفتر، ظلّ عالقًا بذاكرتي. لجماله نسبت بعضه لنفسي لإنقاذه. كقولك «سأنتظرك، إنّ لحظة حبّ تبرّر عمرًا كاملًا من الانتظار».

لن تدري كم كلّفني وعدك ذاك، فقد رحت أتحدّث مثلك لأضاهيك رومانسية، قبل أن أكتشف حماقة كلامك.

الجميع أحبّ المقولة وتناقلها، لكنّها فكرة مجنونة تليق بزمنك، حين كان الانتظار ضربًا من النضال العاطفي الذي يصنع زهو العشّاق. كان الوفاء مفخرة الرجال، ومباهاة النساء. اليوم غدا ضربًا من الغباء. حماقة أن تهدر عمرك في انتظار أحد. الذي يمضي على أيّامنا لن يعود. النسيان في متناوله على الإنترنت، فكلّ شيء اليوم يمكن استبداله.

تغيّر الزمن كثيرًا من بعدك يا أبي.

هل تتصوّر أحدًا يقول اليوم ما قاله الشاعر الأرجنتيني خوان جلمان لحبيبته: «حين أموت سأستمرّ بسماع ارتعاشة فستانك في الرّيح».

أصلًا ما عادت النساء يرتدين تلك الفساتين الأنثوية الفضفاضة الخفيفة، التي تحرّكها خطاهنّ، كما في خمسينيات القرن الماضي.

أو ما كتبه مخائيل نعيمة في وصيّته بعد ثمانين عامًا من الانتظار:

«اتركوا باب الضريح مفتوحًا لعلّها تأتي»!

وكان في العشرينيات من عمره حين أحبّ، أثناء دراسته في روسيا، سيدة روسية متزوجة، بادلته الحبّ لكنّها ما استطاعت الطّلاق لأنّ زواجها أورثودوكسي، فعاش الكاتب حتّى بلوغه المائة سنة معتزلًا في ضيعته اللبنانية دون زواج وفاء لها حتّى سمّي «ناسك الشخروب».

أدري كنت ستحبّ هذه القصة، وربّما كانت ستبكيك. لكن، صدقًا أبي، هل يستحقّ من انتظرناهم ولم يأتوا، أن ننتظرهم إلى ما بعد الحياة؟!

أنت رجل النقطة والفاصلة، الحريص على احترام مسافة الصمت بين الكلمات، يحزنني أن يكون حبّك قد انتهى بنقاط انقطاع. فلا نهاية معروفة لقصة حبّك الوحيدة.

الفصل الرابع

«يسألونك ماذا تملك؟ لا ماذا فقدت.
يسألونك كم عمرك لا كم عشت من هذا العمر.
يسألونك أيّ مدينة تسكن؟ لا أيّ مدينة تسكنك».

يومًا، قال لي ذلك الرجل الخارج من كتابٍ سابق لي:

– المدن كالبشر، في آخر كلّ حبّ تجاوز حدّه ثمّة خذلان محتمل. دعي للمدن مسافة الذكرى وجمال الحنين. سيغريك الشوق بفتنة اللقاء بين حبيبين لم يعد لهما العمر نفسه مذ افترقا. تلك خدعة الذكريات، ففي غيابك شاخت مدينتك.

– كيف لها أن تشيخ؟ كنت أكبرها سنًّا يوم غادرتها، حتى إنّني كثيرًا ما توهّمت أنّها ابنتي. في كلّ أعماري كنت أمّ وطني، خفت عليه أكثر ممّا خاف عليّ في صغري، عساه الآن إذن، وقد هرم، أن يحبّني بعطف المسنين وحنانهم!

ضحك منّي:

– تعانين من فائض أمومة يا عزيزتي، إنّها متلازمة يتامى الأوطان.

– أمن العيب أن أكون عاطفيّة؟

– هذه مشاعر غير سويّة. تأمّلي الآخرين، لا هم أبناء أوطانهم ولا هم آباؤها، لا يخافون عليها ولا هم يخافون منها، هي التي تخاف عليهم. إنّهم مواطنون. أن تكون مواطنًا أي أن تطمئنّ، فثمّة وطن يسهر عليك. أمّا أن تكون وطنيًّا، فذلك يعني أنّ لك قضية غالبًا ما أوجدوها لتبقيك على قلق لتتعايش مع كفنك.

– لكنّني من جيلٍ عربي عقيدته الوطنية، يحتاج أن يفاخر بوطنه، أن يرفع شأنه وأن يسأل نفسه كيف أخدمه!

– هذا إن خدمك. الوطنية على الطريقة العربية حالة مرضيّة، حبّ من طرف واحد لوطن لا يحبّك، ويحتاجك حطبًا لحروبه، في أوّل فرصة يلقي بك إلى البحر، أو إلى الضفة الأخرى، لكن ما تكاد تجفّ ثيابك حتّى تحنّ إليه، مصرًّا على كون البلاد التي نكّلت بك هي أمّك. لا يفارقك الشعور باليتم، ستبكي في الأعياد لأنّ وطنًا هو كلّ همّك يأبى أن يسأل عنك أو يضمّك. أن تكون جاهزًا للموت من أجله، وهو غير معنيّ بما يحلّ بك، فحتّى في إحصائيات الموت أنت الرقم الضائع في سجلّه.

أنا روائية بأبطال متعبين، يشوّشون على قناعاتي. أتعلّم منهم أحيانًا وأحيانًا أندم على مناقشتهم. لعلّ الوقت تأخر لأغيّر أفكاري.

في رواية سابقة، قال قولًا ساخرًا ما زال يضحكني.

«أنا جزائري.. لكنّني أتعالج»، مبرّرًا وعكات حنينه لبلادٍ ما استطاع العيش فيها ولا الشفاء منها.

وما زال في كلّ انتكاسة يتداوى بالسخرية.

ذكاء سخريته صنع شهرته، تلك السخرية الجزائرية اللاذعة التي دفع ثمنها تهديدًا في سنوات الإرهاب، بعد فوزه بجائزة عالمية للتصوير الفوتوغرافي.

هو لا يكذب. لكنّني أَعجب أنّه لا يملك صورة واحدة لامرأة أحبّها قبلي وهو المصوّر، ربّما لأنّنا ننسى أن نلتقط صورًا لمن نعشق، لفرط حضورهم فينا. تلك المرأة لا تقيم إذن في هاتفه، بل في «الأسطوانة الصلبة» لذاكرته!

هو يوثّق الإحساس لا النّاس، اللحظة التي لن تتكرّر، الزمن الذي لا يُستردّ. الوقت الهارب بمن نحبّ.

لعلّها كانت عادية، لكن لإصراره على إخفائها، أصبحَت تلك المرأة في خيالي أجمل ممّا هي. ما نخفيه في الصورة هو الذي يجمّلها. كانت الظل المتستر، وكنت الضوء الذي يحسدها.

ما من رجل إلّا ويخفي في أعماقه امرأة ما، حتّى إن كان بطلًا في رواية.

مساءً، فاجأني هاتفه.

هكذا هو... يعود دائمًا عندما لا تنتظره:

– أفكر فيك... وينك؟

تأخّرت في الرد على رسالته الهاتفية، كي أدّعي لامبالاتي بعودته.

فجأة أصبح على عجل. لا يمكنه الانتظار حتّى الصباح.

الرجل، عندما يغادر، يعود بقوّة أو لا يعود أبدًا.

تركتُ بيننا بعض الوقت، ثم كتبتُ باستخفاف:

– حقًّا.. تفكرّ بي؟ يا له من خبر!

– أنا في الجزائر، دومًا تمنّيت أن ألتقيك هنا. حضرت لتصوير فيلم وثائقي. أقيم في فندق الجزائر مقابل مقرّ الإذاعة والتلفزيون، مذ جئت وأنت في بالي، كأنّي من شرفتي أراك صبيّة تعبرين إلى الإذاعة.

– كم يبدو بعيدًا ذلك الزمان!

– خطر ببالي أنّني لو عرفتك آنذاك لكنتُ أوّل رجل أحببتِه.

– يعنيك أن تكون الأوّل وأريد أن أكون الأخيرة.. لنكُن واقعيّين، ليس بإمكان أحدنا إلغاء الماضي.

– لو كنتِ هنا لأخذتك إلى كلّ الأماكن التي تردّدتِ عليها من قبلي، من دون أن تدليني عليها، لأقنعك بأنّي كنت معك من قبل أن نلتقي. الحبّ الكبير يبدأ ما قبل الحبّ نفسه.

ضحكتُ:

– يا له من اختبار مجنون...! في جميع الحالات، حياتي في الجزائر ما كانت تتجاوز دائرة حديقة «ساعة الأزهار» وما حولها... بالمناسبة أنا هنا... جئت لمعرض الكتاب.

شهق الحبّ. ها قد رتّب لنا القدر موعدًا خارج الكتب.

قال مودّعًا:

– جيّد، نلتقي هناك.

مذ آخر لقاء، كم من المواعيد خانها التوقيت، كم من الأمنيات مضى بها نهر الزمن.

قال لي نزار ذات مرة «حاذري أن يوقعك الأدب في قبضة الحبّ، فتنسين الكتابة. غالبًا ما تكون الحدود واهية بين الاثنين، ونحن نكتب عن الحبّ نقع في الحبّ، فننسى الأهمّ. بين أيّ شيء والكتابة، اختاري القلم».

من يومها قرّرت أن أحبّ أبطال رواياتي. على الأقلّ معهم لا هدر للوقت، لا مفاجآت، لا غدر ولا ألم. في زمنٍ على هذا القدر من الزيف، كيف لي أن أميّز بين من يتمنّون موتي والذين يحبّوني حدّ الموت، نحن لا نعرف الآن مَن الصديق ولا من العدو، فكيف نعرف مَن هو الحبيب.

لكنّ أبطال الروايات أيضًا يشيخون، يخونون، يختفون ويعودون، تتغيّر ملامحهم، تتغيّر قناعاتهم، يشتاقون، يحزنون ويندمون على ما قالوه في كتاب، أو اقترفوه في لحظة جنون.

ومثلهم الروائيون. لذا يواصلون التجسّس على أبطالهم، ليطمئنوا بأنّهم ما زالوا يشبهونهم، ويشتهونهم اشتهاء الصفحة الأولى.

بطلي لم يشخ، زاده النجاح وسامة. الناجحون جميلون دائمًا. لكنّ مسحة حزنٍ لا تفارقه.

لم أغر من نجاحاته، بل من ذكرياته، من زمن لم أكن فيه في حياته.

الروائيّون لا يغارون من أبطالهم بل عليهم.

***

«قلبي يعود إلى الوراء وإلى الأمام تسير بي مجرى الرياح».

بعد سنوات، ها أنا أعود إلى ذلك الحيّ. هل سكنته برهة أو دهرًا ما عدت أذكر. لكأنّي أرى أسى الأمكنة التي تبحث عن أصحابها وتسأل عن خطاهم.

هنا شوارع لا تهمس، لا توشوش، لا يعبرها العشّاق، إنّها شوارع صاخبة، غاضبة. فلماذا جئت أواعد الحبّ هناك؟

في زمنٍ وديع، كانت الصبايا يعبرن كقطيع غزلان خفيفة أنيقة مبتهجة، والصغار الأشقياء يلعبون هنا، والحمام يرفع تقاريره إلى السماء.

أحبّ مواعدة أبطال رواياتي حيث واعدت في الماضي من أحببت، كي أطيل الأقدار القصيرة، لزمنٍ كان العشّاق على أيّامه أنقياء، بقصص حبٍّ بريئة وجميلة، وكان البوح كلمات نقطفها بعناية على استحياء، كمن يسرق وردًا من حديقة ليست له.

عبرتُ بخفة فراشة «حديقة ساعة الأزهار»، استعاد قلبي عادة خفقانه، مسرعةً نزولًا نحو الواجهة الكبرى للبحر حيث أقدام الحديقة، والساعة التي كنت أتفقّدها لأتأكّد من دِقّة الوقت، ولأقطف في طريقي براعم أمنيات لم تتفتّح بعد.

أماكن أليفة في حياةٍ أخرى مشيتها. هنا كنت أنتظر «وحيد»، محتميةً من الأنظار بالبوابة الحديدية للحديقة، في انتظار أن يأتي الحبّ، ليأخذني في سيارة لنزهة مسروقة، أترقّبها بقدر ما أحسب لها من حساب. عندما يكون أمامي كثيرٌ من الوقت، كنت أقصد غاليري «محمد راسم» على يمين بوابة الحديقة، حتّى لا أنتظر في الشارع، فأتأمّل اللّوحات وأحاور الرسّامين. لعلّ هناك ولدت الفكرة الأولى لـ«ذاكرة الجسد». ولأنّ بجوار الغاليري توجد مخبزة باستور، طبعًا، كنت أتوقف لأشتري قطعة (ميل فوي)، ألتهمها في الانتظار. فالحبّ يفتح شهيّتنا على الطيّبات.

بعد أربعين سنة، وجدتني أسلك الرصيف نفسه، أعبر الغاليري من دون أن أسأل عن خالد بن طوبال، كان رسّام شاب يعرض لوحات عصرية. لا أحد يرسم الجسور اليوم، لكنّي وقفت طويلًا أمام واجهة

المخبزة، أتأمّل ذاكرة اشتهائي لحلوى كثيرًا ما صنعت بهجتي وفرحة أبي، وكانت أمنيتي دومًا أن أحظى بقطعةٍ منها.

ها هي ذي قطع الميل فوي أمامي في صينيّات بأكملها. بإمكاني أن أشتريها اليوم كلّها. لكنّ اشتهائي لها تناقص، ألأنّ إمكانياتي زادت، أم لأنّ مخزون السكر زاد في دمي وأجبرني على مقاومة نداء الحلويات؟ ماكرةٌ هي الحياة، تهديك ما أحببت، عند نفاد الوقت، أو نفاد الصحة، أو انطفاء الشغف. تقسّم الأشياء دون عدل تعطي للبعض الرغبة وللبعض الآخر الإمكانيات. برغم ذلك دخلتُ المخبزة واشتريت قطعة ميل فوي لفتةً منّي للذاكرة... وعدت بها سعيدة إلى الحديقة.

***

«لا تواعدي الذكريات ستحضر حيث لا تنتظرينها».

جلست على مقعد تظلّله شجرة في إحدى المنعطفات الصاعدة. كأنّني أطلّ على نفسي من فوق، من شرفتنا. في الماضي، كانت النساء يجلسن هنا، يرفعن قليلًا الحايك عن أرجلهنّ ليتشمّسن أثناء تبادلهنّ الأحاديث ومراقبة أطفالهنّ وهم يلعبون بالكرة. وكان الحارس لا يتوقف عن إطلاق تحذيرات بصفارته. لا وجود للحارس اليوم، أو لعلّه هنا وما عاد مرئيًا بعد أن خلع زيّه الرسمي. بإمكان أيٍّ كان أن ينتحل صفته، وينوب عنه في محاسبتك أو إزعاجك، بأيّة ذريعة شاء.

لكأنّ الحديقة تحرس نفسها، أو يحرسها الحمام، غير أنّ الحمام نفسه ما عاد كما كان. إنّه يبدو مذعورًا حذرًا يودّ لو اقترب أكثر ليقاسمني ما في يدي. لكنّه يحافظ على مسافة أمان. يفضّل حريّته

على قُوته. أصبح لا يطمئنّ للبشر لفرط ما آذاه الأطفال، لا أدري كيف سكنه الخوف، هل التقطه أرضًا مع كلمات العابرين؟

بدا لي الوقت طويلًا، تذكّرت أبي الذي كان يرتاح قليلًا على أحد المقاعد هنا، قبل مواصلة الصعود نحو البيت متبادلًا الأحاديث مع بعض الشّباب، طالبًا منهم أحيانًا أن يقرؤوا له مقالي بالعربية قبل أن يأتيني بالجريدة. أحدهم التقط له صورة أثناء حواراته تلك، نشرتها وقتها جريدة (Algerie Actualité) على طول صفحتها الأولى.

كان عليها أن تعنونها «حارس الأوهام».

هل بسبب ترشيد المياه تمّ ترشيد الأحلام وتقنينها أيضًا؟ لقد مات كلّ ما كان يصنع بهجة هذه الحديقة وذكرياتها الجميلة.

أبي... لا أريدك أن تعرف أنّ لا شيء ممّا سقيتَه عاش، وأنّك كنت بستانيّ الأوهام وحارسها. ما نفع أن تدري بذلك الآن!

ها أنا هنا منذ ساعة وما وجدت من أحاوره. وحدهم بعض المتقاعدين يشغلون المقاعد، ويتحدّثون في ما بينهم بعد أن احتلّوا الحديقة هربًا من بيوتهم.

ألقيتُ نظرة إلى ساعة الأزهار بحكم العادة. لكنّها ما كانت تدلّ على الوقت. قبل سنوات، حدث أن اختفت عقارب «ساعة الأزهار». هكذا فجأة، غدت ساعة بلا عقارب، دائرة من عشب أخضر لا إشارة فيها للوقت.

ثمّ فجأةً أيضًا، عادت العقارب من جديد، لكنّ الأزهار التي كانت تشير للساعات اختفت، وحلّت محلّها حجارة كما لو أنّها شواهد قبر تدلّ على ضريح الساعات، ونما حولها عشبٌ يابس محترق، غطّى بفوضوية كلّ المساحة التي كانت خضراء، فأصبحت الساعة، أثناء دوران عقاربها، تبثّ إحساسًا باحتضار الوقت.

أين مضى الوقت؟ ليس الوقت الذي يذوب وينساب كما لدى سلفادور دالي، هنا الوقت غير مرئي، يتبخّر. لا آثار لعبوره. لا تدري كيف مضى، وفيما مضى، وكم ما زال منه في حوزتك.

لا أحد هنا تعنيه الساعة، إنّهم هنا لقتل الوقت.

المدينة خلعت ساعتها. لكنّها ليست وحدها من فعلت، فكلّ المدن غيّرت توقيتها، والبشرية مذهولة، تلهث خلف زمنٍ لسرعته ما عاد يُرى. غدا الوقت يقاس بالأعوام الضوئية، ووحدها الذكريات تشير عقاربها إلى الماضي.

وكلّ ما هنالك أنّي أريد أن أعرف كم الساعة؟

اقتطعت قضمة واحدة من قطعة الميل فوي، وتركتها للحمام.

خفت أن يستبدّ بي العطش كما بعد كلّ حلوٍ ألتهمه، وأن أحتاج بعدها أن أشرب، وعندها، لا يبقى للحلو مذاق في فمي، فلا حلو يدوم. أنتَ من قلت لي كلّ ما هو حلو يليه الندم، لأنّه لا يبقى في الفم. ثمّ وحدي أدركت أنّ في كلّ ما نستطيبه في الحياة قصاص مستقبليّ.

حتّى اللحظات الجميلة سنشقى بها عندما تغدو ذكريات، لأنّها زمن لن يتكرر.

التفتّ وأنا أغادر. كان الحمام حال انسحابي قد اجتمع عند أقدام مقعدي يلتقط فتات الحلو... وفتات كلماتي. لا كرامة للحمام. لا أدري لمن سيرفع أخباري.

طويلًا انتظرته.

عجبت لرجلٍ كان متلهفًا، ثم لم يحضر.

هناك مواعيد يخونك فيها أبطالك، وأخرى يُخوَّنون فيها.

عليك ألّا تسأل عن السبب، ستأتيك الأخبار لاحقًا من خارج الكتب. فكلّ ما يحدث اليوم في الحياة يحدث لأبطال الروايات.

هذا زمنٌ لا يؤتمن.

عند بداية كلّ حبّ كنت أستعدّ لخديعة الطريق، والإشارات الضوئية المزوّرة.

لكن ما توقّعت خيانة الساعة، أنكون أضعنا بعضنا بعضًا عند مفترق الوقت؟

كلّ المواعيد حلم ووهم. «وحدها الذكريات على يقين»، يقول الحنين.

مع الوقت، ننسى وُعودنا، دُموعنا، عُهودنا، ننسى ما قلناه وما قيل لنا، قسَمنا بأن نظلّ معًا، وبأن نكون أوفياء مهما حصل. كلّ ما ظننّا أنّنا لن ننساه سيسخر منّا مع الزمن.

وحدها تلك الساعة لن تنسانا. حتّى من دون عقارب ستواصل لسعنا، وبأزهار أو من دونها لن تكفّ عن الركض بنا.

لم يحضر.

لكنّ قطرات مطر خفيف كانت تلاطفني كما لو كانت يده.

لعلّه الشتاء المُقبل على عجل. يا لفاجعة عشّاق يواجهون وحيدين ساديّة المطر. أيّتها السماء الباكية صيفًا تخلّى عنها، ألا ترأّفت بنا!

عصافير مُبلّلة قلوبنا، ترتجف على شجرة الغياب.

كلّما أمطرت تآمر علينا الكون..

نحن يتامى الحبّ وحرّاس الأوهام.

مكتبة

بعدكَ أصبحتُ أنت.

أعدتُ اقتراف كلِّ حماقاتك، خسرتُ بسخاء،
وبسخاءٍ تهكَّمت على خساراتي.
أكرمتُ أعدائي لأنَّ لا قصاصَ أكبرَ من الكرم.
أحببتُ الحياةَ كما لو كانت رجلَ حياتي، لأنّك
أحببتَها كما لو كانت أنثاك.

وضعتُ شرطًا لقلبي ألَّا يحبَّ إلَّا رجال
المواقف، لأنَّ الحبَّ عندك كان قضية.
لم أسأل يومًا أحدًا عن ديانته، لأنّك لم
تسألني يومًا إلَّا عن أخلاق من عرفتُ.

إنّ أحلام مستغانمي شمساً جزائرية أضاءت
الأدب العربي. لقد رفعتنا بإنتاجها الأدب الجزائري
الى قامة تليق بتاريخ نضالنا. نفاخر بقلمها العربي والتزامها
القومي افتخارنا كجزائريين بعروبتنا.

أحمد بن بلة

جنيف 12 فبراير 2002، أحمد بن بلّة

مكتبة
t.me/soramnqraa